# نساء النبيّ

## عليه الصلاة والسلام

تأليف

الدكتورة عائشة عبد الرحمن

( بنت الشاطئ )

أستاذ الدراسات القرآنية بكلية الشريعة ودار الحديث

جامعة القرويين بالمغرب

دار الهلال

بسم الله الرحمن الرحيم

الأهداء

الى رائدنا ، مجدد الفكر الاسلامى

**الاستاذ امين الخولى**

فى قلوبنا ، وضمائرنا ، وعقولنا .

**عائشة عبد الرحمن**

الطبعة الخامسة
رمضان : ١٣٩١
اكتوبر : ١٩٧١

## مقدمة الطبعة الخامسة

بسم الله أقدم هـذه الطبعة الخامسة بعد أن نفدت نسخ سابقاتها ، ونفدت طبعات أخرى نقلت فى بيروت عن طبعات دار الهلال

ويمنحنى نفاد طبعات أربع متقاربة ، من مثل هذه الدراسة الاسلامية ، ما أطمئن به الى أن الكتاب الجاد لا يزال قادرا على أن يثبت ويناضل فى المعركة غير المتكافئة بينه وبين أجهزة العصر الموصلة للكلمة ، بأيسر جهد وأزهد ثمن .

وهذا الكتاب واحد فى سلسلة تراجم لسيدات بيت النبوة ، نشرتها لى مؤسسة دار الهلال ، ولقيت من تقدير القراء واقبالهم ماجعل طبعاتها تتتابع ولا تتوقف .

واذا كان رواج هذا الصنف من الدراسات فى تاريخنا الإسلامى ، لافتا إلى حاجة الحياة إليها ، ومصححا ما شاع فينا من أن القراء عندنا لا يطلبون من الزاد الفكرى والوجدانى الا الرخيص التافه أو المسف المبتذل .

فإنه فى الوقت نفسه ، يؤكد أن الوجدان القومى لأمتنا العربية العريقة لم يفقد وعيه فى دوامة الضجيج الهادر للبضاعة المجلوبة ، بل ما يزال يطلب زاده من نبعنا الأصيل ، دون أن تصده أو تفتنه عنه بضاعة أجنبية طارئة ، تغزونا بها مؤسسات أمريكية فاحشة الثراء ، فتغمر أسواقنا بمترجماتها الأنيقة وتدق لها أجراس الاعلان .

تحية الشكر والمودة ، لأصدقائى ، قراء هذه التراجم لسيدات بيت النبوة

وحفظ الله أمتى ، وبارك فى نضالها الباسل فى معركة الوجود والشرف والمصير .

عائشة عبد الرحمن
استاذ الدراسات القرآنية
جامعة القرويين : المغرب

# مقدمة الطبعة الثالثة

تظهر هذه الطبعة ، بعد أن استكملتُ دراستي لحياة سيدات بيت النبوة ، فتأخذ مكانها مع « أم النبى » و « بنات النبى »
ومع « السيدة زينب » بنت الزهراء ، والسيدة « سكينة بنت الحسين»

ولست أمُن على قراء هذه التراجم ، أن بذلتُ لها ما استطعت من جهد مخلص .. بل هم الذين يمنون علىَّ أن منحونى كل تشجيع ومؤازرة ، فكان حسن استقبالهم لهذه الدراسات الجديدة فى البيت النبوى ، مددا لى : يعيننى على مواصلة الدرس ، ويزودنى بطاقة على احتمال أعبائه وتكاليفه ، والاضطلاع بأمانته الصعبة ..

***

ولا بد لى من أن أشير الى رغبة كريمة ، أبداها بعض السادة القراء ، ممن يؤثرون أن نطوى بعض أخبار عن حياة الرسول الخاصة ، تعلقت بها شبهات أعداء الاسلام .

غير أنى فى الحق ، ألفيت أن طىَّ هذه الأخبار، لا تقره أمانة البحث ، ولا هو من هدى القرآن الكريم الذى حرص على أن يسجل منها ما يؤكد بشرية الرسول ، كى يعصمنا مما تورط فيه غيرنا ، حين جردوا رسولهم من بشريته ، وأضفوا عليه من صفات الألوهية ما يشوب عقيدة التوحيد التى هى جوهر الدين كله ..

وما كان لى أن أطوى ما لم يطوه الله تعالى ، من أخبار عن بيت نبينا صلى الله عليه وسلم ، فى آيات تتعبد بها وتتلوها قياما وقعودا وعلى جنوبنا ، فلم يعد يحل لدارس مسلم أن يضرب الصفح عن ذكرها ، فيما يتناول من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد نزل بها الوحى فى مثل آيات : التحريم ، والأحزاب ، والنور ..

وإذا كان فيما نشره بعض المستشرقين عن بيت النبوة ، مدسوسات زاغ بها التعصب وانحرف بها الحقد ، فليس الحق أن نلقاها بالغض والتجاهل والصمت ، بل الحق أن نعرض المرويات التى تعلقوا بها ، على منهج البحث التاريخى الأمين ، ليكشف عن عثرات منطقهم وزيغ منهجهم ويجلو مداخل التدليس فيما ينقلون من مراجع إسلامية للسيرة والتاريخ .

وأنا بعد لا أرى فى هذه المواقف ، إلا آية عظمة فى نبينا الذى استطاع وهو بشر مثلنا ، أن يضطلع بختام رسالات الدين ، وأن ينقل بها الانسانية الى مرحلة الرشد ، ويحررها من ضلال الوثنية وشوائب الشرك ، ويقودها على مراقى طموحها الى تحقيق وجودها الكريم ...

آية البطولة فى محمد بن عبد الله ، انه استطاع وهو بشر مثلنا أن يدخل التاريخ كما لم يدخله سواه ، وأن يوجه سيره منذ بُعِث بدين الاسلام ، على امتداد الزمان والمكان !

***

أريد أن أقول :

اننى فى كل ما تناولت فى مرويات عن حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ، لم أر فى شىء منها قط ، ما أتحرج من تعريضه لضوء البحث الأمين ، وقد أخذتُ مادتها جميعا ، من مصادر أصيلة ، لا يرقى اليها أى شك فى حسن المقصد وصحة الايمان ..

ومنه تعالى ألتمس الهدى والتوفيق ، سبحانه : عليه توكلت واليه أنيب :

« ربَّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمِلْ علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا ، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين »

صدق الله العظيم

# مقدمة الطبعة الأولى

هــذا حديث عن حياة محمد صلى الله عليه وسلم فى بيته ، أعرضه فى صور متتابعة للسيدات الكريمات اللواتى أظلهن هذا البيت ، وكان لكل منهن أثرها فى حياة زوجهن الرسول ، ومكانها فى تاريخ البطل الذى قاد أشرف معركة باسلة عرفتها الدنيا منذ كانت ..

ولم أكتب كلمة واحدة من هذا الحديث ، حتى قرأت ما فى مكتبتنا عن هذا الجانب من حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وحياة نسائه أمهات المؤمنين ، مبتدئة بالقرآن الكريم ، والحديث وكتب السيرة ، والتفسير ، والتراجم والتاريخ ، ثم قرأت معها ، أو بعدها ، ما استطعت الوصول اليه مما كتبه المستشرقون عن « محمــد والاســلام » فى الانجليزية ، والألمــانية ، والفرنسية ، وانه لكثير ..

على أنى حين بدأت أكتب جعلت من الكتاب والسنة منار طريقى ، وخليت هذا الحشد من المؤلفات الى جانبى أرجع اليه كلما دعت حاجة أو ضرورة ، وتركت قلمى يصور حياة أمهات المؤمنين فى بيت النبوة ، كما تمثلتها بعد أن وعيت الذى قرأت ..

وأعترف بأنى شعرت بتهيب ورهبة حين فرغت من القراءة ، حتى لقد هممت بأن أعود فأحجم عن الكتابة فى هذا الموضوع ، وذلك لمـا ملأنى من احساس بجلاله ودقته من ناحية ، ولكثرة ما كتب فيه من ناحية أخرى :

فهؤلاء السيدات اللواتى عشن فى بيت النبى ، ينزعن جميعا الى حواء ، وقد جئن الى بيت تلاقت فيه البشرية بالنبوة واتصلت الأرض بالسماء ، وتزوجن من بشر يتلقى الوحى من أعلى ، ويبلغ رسالة الله ، فأنّى

لقلم أن يصور حياة كهذه ، تموج فيها أهواء البشرية فى فيض من النور الأسنى ، وتتجاذب فيها الأنوثة — التى نعرف رقتها وضعفها ورهافة وجدانها — تيارات" بالغة القوة والعمق ، يجذبها بعضها الى هذه الأرض الدنيا ، وتشدها أخرى الى السموات العلا ، وتتعادل من هذا بشرية سماوية ، وسماوية انسانية !

غير أنى عدت فرأيتها حياة حافلة مثيرة ، تغرى بالدرس والتأمل ، وتجربة نادرة فذة ليس من السهل أن أنصرف عنها بعد أن اتجهت اليها

***

واذ صح منى العزم على تناول هذا الموضوع الجليل الدقيق ، لم أعد أتهيب كثرة ما كتب فيه ، فما كانت هذه الكثرة لتحول دون تناول جديد له ، وبخاصة اذ ذكرت أن أغلب الذين كتبوا قبلى عن حياة النبى عليه الصلاة والسلام فى بيته ، مال بهم الهوى عن الحق..

منهم من زين له الايمان والإجلال أن ينزه الرسول عن بشريته التى قررها القرآن أصلاً من أصول العقيدة ، وكان صلى الله عليه وسلم لا يمل من الإقرار بها ، وترسيخها فى عقيدة أمته

وآخرون من أعداء الإسلام ، أضلهم التعصب وأعماهم الحقد ، فجعلوا من هذا الجانب فى حياة نبينا العظيم ، ما يشفى حقدهم ..

ومن هنا بقى فى الموضوع مجال لتناول جديد ، يتمثل حياة نساء النبى فى البيت الكريم على هدى الفطرة ، وبايحاء البيئة واملاء التاريخ ، وفى نزاهة مؤمنة ، ودراسة محققة ..

***

وسيرى القارىء أنى اقتصرت فى هذا الكتاب على السيدات اللائى شرفن بلقب أمهات المؤمنين ، ومعهن « مارية المصرية » التى كان لها الى جانب حظوتها عند الرسول وشرف أمومتها لابنه ابراهيم ، أثر واضح فى الحياة الخاصة لمحمد صلى الله عليه وسلم . وفيما عدا أمهات المؤمنين ومارية ، لم أتحدث عن السيدات اللائى تزوجهن المصطفى ولم

يدخل بهن ، وقد اختلفت الروايات فى عددهن وأسمائهن ، فمن شاء قراءتها فليرجع الى الجزء الرابع من ( السيرة النبوية ) لابن هشام ، طبع الحلبى ، والجزء الثالث من تاريخ الطبرى ، طبع الحسينية ، والجزء الثانى من الروض الأنف للسهيلى ، طبع الجمالية ، والجزء الثامن من الاصابة ، طبع الشرفية ، والسمط الثمين ، طبع حلب ..

كذلك لم أتحدث عمن وهبن أنفسهن للرسول ، ولا عن « ريحانة بنت عمرو » التى اصطفاها الرسول لنفسه من نساء بنى قريظة فى السنة الخامسة للهجرة ، وعرض عليها أن يتزوجها ، فقالت :

« بل تتركنى فى مِلكك ، فهو أخف علىّ وعليك » فكانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى توفى عنها وهى فى ملكه (١)

ولست أجهل أنه قد كان لهذه السيدة المصطفاة ، ولغيرها من الواهبات أنفسهن للرسول ، أثر فى حياته صلى الله عليه وسلم ، العاطفية والزوجية ؛ غير أن التاريخ المروى ، لم يشأ أن يسجل ذلك الأثر ، ولا عرف لهن مكانا فى بيته ، ومن ثم جاز لى أن أدعهن كى أفرغ للحديث عن أولئك اللائى دخلن حياته صلى الله عليه وسلم ، مركزة جهدى فى تمثل شخصياتهن كما بدت فى بيت النبى ، فلم أتعرض لما قبل مجيئهن اليه الا على سبيل التمهيد ، ولم أتتبع حياتهن بعد الرسول ، الا أن تكون إشارة موجزة يدعو اليها المقام ..

ذلك لأننى لم أشأ لهذا الكتاب أن يجمع شتى المرويات عن نساء النبى جمعا لمّا ، ولا أردت أن أجعل من هذه الدراسة مجموعة من تراجمهن على النحو التقليدى المألوف فى تراجم الأشخاص ، وانما عنانى تمثل حياة كل منهن فى بيت المصطفى ومكانها منه ، وتصوير شخصيتها تصويرا يجلوها زوجاً وأنثى ، ولا على القارىء بعد هذا أن يلتمس هنا ما وراء ذلك من تحقيق تاريخى لسنة وفاتها ، وتحديد لمكان قبرها

---

(١) السيرة لابن هشام : ٢٥٦/٣ ط الحلبى — والسمط الثمين للمحب الطبرى ص ١٤٦ ط حلب .
وتاريخ الطبرى : ٥٩/٣ ط مصر .

وتتبع دقيق لأبنائها بعد زوجها ، بل فليلتمسه فى غير هذا الكتاب اذا شاء ، وحسبه منى أن أقدم له من ملامح شخصيتها الأصيلة ، ما يضىء تاريخها كله الاضاءة الكبرى ..

***

وأود بعد هذا أن يطمئن القارىء الى أنه ما من خبر سيق فى هـذا الكتاب ، الا أخذ من مصادره الأصيلة ، ونقل منها نقلا أمينا . ثم كان لى وراء ذلك منهجى فى التناول وأسلوبى فى الأداء ، وعسى أن أكون قد وفقت فيهما الى شىء مما حاولت من النظرة الواسعة الأفق، والصراحة الصادقة التى تدرك جلال الموضوع ، وتقدر حرمة الكلمة وأمانة القلم

الفصل الأول

# محمد

## الزوج النبي

عليه الصلاة والسلام

« قل سبحان ربى هل كنت إلا
بشرا رسولا »

قرآن كريم

# البيت ، والزوج

الحديث عن « نساء النبى » فى بيته ، لابد أن يسبقه حديث عن البيت الذى هو البيئة المكانية لحياتهن ، والواقع أنه لم يكن بيتا واحدا ، بل بيتين :

أولهما فى « مكة » حيث عاش « محمد بن عبد الله الهاشمى » مع زوجه الأولى وحدها ، وحيث أنجب ، وواجه التحول الأعظم فى حياته وفى حياة العرب والانسانية جميعا . وقد وصفتُ هذا البيت فى كتابى عن « بنات النبى » (١) ومن ثم أعفى نفسى وأعفى قرائى من التزيد بتكرار من الوصف .

أما البيت الثانى فى « المدينة » حيث عاشت أمهات المؤمنين جميعا غير السيدة خديجة رضى الله عنها ، فيجد القراء وصفه موجزا فى الفصل الخاص بالسيدة عائشة رضى الله عنها من هذا الكتاب ، اذ كانت أولى الزوجات مكانا فيه ، ومن بعدها جاءت نساء النبى تباعا ، وصار لزواج الرسول معنى اجتماعى وسياسى وتشريعى لم يُلحظ فى البيت الأول الذى دخله « محمد بن عبد الله » شابا فى الخامسة والعشرين من عمره ، لم يُبعث بعد برسالة الإسلام ، ولم يتلق وحى الله .

***

وكذلك ينبغى أن يسبق الحديثَ عن نساء النبى فى بيته ، حديثٌ عن رب هذا البيت الذى أظلهن ..

وأحسب أن ليس من بين القراء من ينتظر منى هنا تتبعا لسيرة الرسول أو عرضا لتاريخ حياته المجيدة الحافلة ، وانما أقف من هذا كله عند جانب بعينه لا ينبغى أن أتجاوزه الى سواه ، ذلك هو محمد الزوج ، أو الرجل الانسان الذى أظل بيته هؤلاء السيدات الكريمات ، ووسعهن من دنياه

---

(١) ظهرت منه اربع طبعات : دار الهلال القاهرة

الخاصة ، وكان لهن حظ المشاركة فى حياته الوجدانية ثم فى حياته العملية.

والفصل بين شخصية محمد زوجا رجلا ، وشخصيته نبيا رسولا ، بالغ الصعوبة ، وليس الأمر كذلك فى حياة نبى آخر من حملة الرسالات برغم كونهم جميعا آدميين ، يقول الله تعالى فيهم : « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى اليهم » (١) ، ذلك لأن الرسالة المحمدية تفرض علينا الإقرار ببشرية الرسل عليهم السلام ، أصلا من اصول عقيدتنا . وقد اصطفى نبينا بشرا سويا ، ولم تنزع الرسالة من قلبه عواطف البشر ، ولا جردته من وجدانهم ، ولا عصمته مما يجوز عليهم فيما عدا ما يتصل بالنبوة . فهو كما قال جل جلاله : « قل إنما أنا بشر مثلكم » (٢) : يسكن الى زوجة ، ويشغل بالأبناء ، ويعانى مثل الذى يعانيه بنو آدم من حب وكره ، ورغبة وزهد ، وخوف وأمل ، وحنين واشتياق ، ويجرى عليه ما يجرى على سائر البشر من يتم وثكل ، ومرض وموت :

« وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ » (٣)

ولو شـاء الله لعصم نبيه من كل هذا ، ولأعفاه مما ذاق من حر الثكل فى بنيه وفداحة المصاب فى خديجة ، ومحنة الإفك فى عائشة ، ولجعل حياته نصرا متصلا لا يعرف هزيمة ولا يشفق من خيبة ، وأراحه من اضطهاد أعدائه وكيد خصومه ونفاق المتخاذلين من أتباعه ، ولكن سبقت كلمة الله لرسوله :

« قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء ، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » (٤)

وإنه لتكريم للبشرية ، أن يصطفى منها نبى يحمل رسالة الله ، ومن قبل كرمها سبحانه ، فأمر الملائكة أن يسجدوا لآدم ، أبى البشر !

---

(١) من ايات : يوسف ١٠٩ ، والنحل ٤٣ ، والانبياء ٧ .
(٢) من آيتى الكهف ١١٠ ، وفصلت : ٦.
(٣) من اية ١٤٤ سورة ال عمران (٤) آية ١٨٨ من سورة الاعراف .

ولكن محمدا صلى الله عليه وسلم ، لم يكن مع ذلك كأحد من البشر، وقد اصطفاه الله من بين المخلوقين جميعاً ، ليبعثه خاتما للرسل الأنبياء ..

هو بشر رسول ، وهـذا هو موضع الدقة والعسر فى الحديث عن « الرجل » فى حياته العاطفية والزوجية ، فما يغيب عن كاتب يعرض لهذا الجانب من شخصية محمـد ، انه قد كان النبى المصـطفى ، وان كلمـة الإسلام الأولى هى الشهادة بأن لا اله الا الله ، وان محمدا عبده ورسوله..

ويزيد فى دقة الأمر وعسره ، أن نرى الشخصيتين منـدمجتين فى الرسول غير منفصلتين ، وأن الله سبحانه وتعالى لم يدع لرسوله حياته الخاصة يتصرف فيها كيف شاء على نحو ما يفعل سائر البشر ، وانما كان عليه الصلاة والسلام ، يتلقى من حين الى حين وحى ربه فى أخص الشئون الزوجية ، وكانت علاقاته بأزواجه تخضع أحيانا لتوجيه إلهى صريح :

فمحنة الإفك مثلا ، لم يحسمها الا نزول الوحى ببراءة « عائشة » مما افتراه عليها الذين أرجفوا بالسوء ..

وزواج الرسول من « زينب بنت جحش » ما كان ليتم لولا أن نزل به عتاب صريح من الله الذى كره لمحمد أن يخفى فى نفسه ما الله مبديه ، وأن يخشى الناس والله أحق أن يخشاه ..

وضيق نساء النبى بما فرض عليهن من حياة خشنة ، لم يضع حدا له إلا قوله تعالى فى سورة الأحزاب :

« يأيهاالنبى قل لأزواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيـا وزينتهـا فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا . وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما » (١)

وسلوك نسائه رضى الله عنهن ، كان يخضع لرقابة مباشرة من الوحى ، على نحو غير مألوف فى حياة غيرهن ، والله تعالى يقول :

« يا نساء النبى لستن كأحد من النساء ، ان اتقيتن فلا تخضعن بالقول

---

(١) آيتا ٢٨ ، ٢٩ من سورة الاحزاب

فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفا . وقَرْنَ فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله ، انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا . واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة ، ان الله كان لطيفا خبيرا » (١)

وبعض هذا يكفى لبيان صعوبة الفصل بين شخصية الزوج وشخصية النبى ..

فأى رجل كان نبى الاسلام ؟ ..

وأى زوج جمع بيته هذا العدد من عقائل كريمات ، اختلفت أجناسهن وألوانهن ، وتباعدت أصولهن ومنابتهن ، وتفاوتت أعمارهن وصورهن وشخصياتهن ؟

قد نستطيع بشىء من الجهد ، أن نتبين بعض ملامحه المميزة ، فى الشاب الهاشمى الذى صحب عميه : أبا طالب ، وحمزة ، الى دار خديجة بنت خويلد ، ليحتفل بزواجه منها فى العام الخامس عشر قبل المبعث ..

كان اذ ذاك بشرا غير رسول ، وان يكن المهيأ ليبعث بالرسالة ..

كان شابا هاشميا عريق الأصل طيب المنبت ، أبوه « عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم » ، الذى وعت « مكة » قصة افتدائه من النحر وفاء بنذر أبيه (٢) ، وهى قصة مثيرة أحيت ذكرى الذبيح الأول « اسماعيل ابن ابراهيم » جد العرب العدنانية ..

وأمه « آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن قصى » أفضل امرأة فى قريش نسبا وموضعا (٣)

وقد أمضى أعوامه الأولى فى بادية بنى سعد ، فتركت هذه التربية البدوية طابعها الخاص فى شخصيته ، وأكسبته صحة الجسم والنفس ،

(١) الايات ٣٢ : ٣٤ من سورة الاحزاب .
(٢) ابن هشام : السيرة ١٦٠/١ : ١٦٣ ــ وانظر معه كتاب « ام النبى »
(٣) ابن هشام : السيرة ١٦٥/١ .

وصلابة الخلق وفصاحة اللسان (١) . كما أكسبته حياته اليتيمة الكادحة من بعد ذلك ، قوة احتمال وشعورا مبكرا بالمسئولية . وجاءت الرحلة الى الشام فوسعت من أفقه وزادته خبرة بالدنيا والناس ، فكان — فى ابان شبابه — الرجل الناضج الجلد الصبور ، تلمح فى شخصيته آثار البادية ، وفى سلوكه تهذيب الحياة المتحضرة حول الحرم : مثابة الحجاج ، ومسكن قبيلة تتولى النقل التجارى بين الأطراف المتحضرة فى الجزيرة ، كما تلمح فى عقله تجارب الرحلة والسفر ، وفى خلقه شمائل هاشمى قرشى ، لم يفسده الفراغ والمال ، ولم يصبه الترف بآفات النعومة واللين

هكذا كان «محمد» حين سمعت به السيدة خديجة ، وبلغها ما يتحدث به القوم عن أمانته واستقامته وعفته ، فمهد هذا كله سبيله الى قلبها الذى كانت قد أغلقته دون الرجال جميعا ، وفكرت فيه من قبل أن تلقاه وتراه : « شابا وسيما ، معرب الملامح ، أزهر اللون ، ربعة فى الرجال ليس بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد ، ضخم الرأس ، مبسوط الجبين ، مرسل الذقن ، عالى العنق ، عريض الصدر ، غليظ الكفين والقدمين ، يتوج هامته شعر كث شديد السواد ، وتشع عيناه الدعجاوان الواسعتان جاذبية وسحرا تحت أهداب طوال حوالك ، وتتألق أسنانه المفلجة البيضاء اذا تكلم أو ابتسم » (٢)

« وكان يسرع الخطو ملقيا بجسمه الى الأمام ، ويحسن الاصغاء ملتفتا الى محدثه بكل جسمه ، لطيف المحضر ، يضحك أحيانا حتى تبدو نواجذه ، فاذا غضب لم يخنه حلمه ، بل ينفر عرق بين حاجبيه السابغين المتصلين ، من أثر الغضب » (٣)

ولم تكن خديجة اذ ذاك صبية ساذجة ، بل كانت السيدة

---

(١) لم يفتنى هنا أن العرب عموما قد احتفظوا بسلامة السنتهم ، قبل اختلاطهم بالشعوب التى فتحها الاسلام ، ولكن يبقى للبادية مع هذا ، نقاء عربيتها نسبيا بالقياس الى بيئة مكة التى عرفت الاختلاط قبل الاسلام ، بحكم مركزها الدينى والتجارى : فاليها كان حج العرب ، ومنها كانت رحلتا الشتاء والصيف الى اليمن والشام — والقضية معروضة بتفصيل فى كتابى ( لغتنا والحياة ) : المعارف ١٩٧١

(٢) تاريخ الطبرى : ١٨٥/٢ — وانظر معه الروض الانف للسهيلى جـ ١

(٣) من وصف الامام على لابن عمه المصطفى ، فيما نقل الرواة . وراجع الجزء الاول من « الروض الانف » للسهيلى — وتاريخ الطبرى: ١٨٥/٢ .

الناضجة المجربة التى بلت الدنيا وعرفت الناس وتزوجت من قبل ذلك رجلين من سادة قريش ، وعاملت رجالا آخرين كانوا يخرجون فى مالها الى الشام ، وان فى اعجاب مثلها « بمحمد » وحرصها على الزواج منه لدليلا على أنها وجدت فى شخصيته الآسرة اللافتة ، ما لم تجده فى أى رجل ممن تزاحموا على بابها يطلبون يدها . ولسنا بحاجة الى أن نقرر هنا أنها لم تر فيه يومئذ سوى الرجل المثالى ، لا النبى المنتظر .

وقد عاشرته زوجه السيدة خديجة ، خمسة عشر عاما قبل أن يبعث ، وانها لأعوام طويلة تكفى لأن تكشف لها عن جوهر هذا الزوج وتبدى من طبائعه وخصاله ما قد يخفى على غيرها من الناس ، وليس كالحياة الزوجية ما يمتحن الرجل أدق امتحان ويزنه أصدق ميزان وأضبطه ، ومن ثم كان ايمان السيدة خديجة برجلها ، وتصديقها برسالته دون أن يساورها أدنى ريب فى الزوج الذى اختارته شابا ، وأحبته وعاشرته زوجا ، وعرفته رجلا ، آية على عظمة ذلك الانسان ، فهى لم تكد تسمع حديثه العجيب عن الوحى الأول ، حتى هتفت فى حرارة ولهفة ويقين :

« ... والله ما يخزيك الله أبدا .. انك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق » (١)

تلك كانت شهادة الزوجة لزوجها بعد معاشرة طالت وامتدت ، وان فيها ما يجلو لنا ملامح من شخصية محمد الرجل ، قبل أن يبعث نبيا رسولا . وقد يؤيدها ما تناقل الرواة من وصف « على بن أبى طالب » لابن عمه المصطفى ، الذى عاش معه طويلا فى بيت أبى طالب ، ثم انتقل معه صبيا بعد أن غادر هذا البيت وتزوج من السيدة خديجة :

« ... وهو أجود الناس كفا ، وأجرأ الناس صدرا ، وأصدق الناس لهجة ، وأوفى الناس ذمة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه أحبه .. » (٢)

وفى الاستيعاب (٣) ، حديث لأم معبد الخزاعية «عاتكة بنت خالد» ،

(١) الاصابة لابن حجر : جـ ٨ ـ والسمط الثمين للمحب الطبرى : ١٩

(٢) وانظر معه حديث انس بن مالك الانصارى ، عن شجاعة الرسول وجوده ، فى تاريخ الطبرى ، ١٨٦/٢ ، ١٨٧

(٣) ١٩٥٦/٤ ـ ط نهضة مصر . والدعج : شدة سواد العين . والوطف : طول الشعر فى أهداب العين

تقول وصفا لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وقد رأته قبل أن تعرفه :

« رأيت رجلا ظاهر الوضاءة ، أبلج الوجه ، حسن الخلق .. وسيم قسيم ، فى عينيه دعج ، وفى أشفاره وطف ، وفى عنقه سطع ، وفى صوته صحل ، وفى لحيته كثاثة ، أزج أقرن ، إن صمت فعليه الوقار، وان تكلم سما وعلاه البهاء ، أجمل الناس وأبهاه من بعيد ، وأحسنه وأجمله من قريب ، حلو المنطق ، فصل ، لا نزر ولا هذر .. ربعة ، لا بائن من طول ولا تقتحمه عين من قصر .. له رفقاء يحفون به ، ان قال أنصتوا لقوله ، وان أمر تبادروا الى أمره .. »

والسيدة « خديجة » تنفرد من بين نساء النبى جميعا بأنها وحدها التى عرفته رجلا وزوجا قبل أن تحف به أضواء النبوة ، ومن هنا كانت وقفتنا عند حياتهما الزوجية نلتمس فيها شخصية الرجل والزوج . فاذا تركناها الى أزواجه الأخريات اللواتى جئن بيت النبى بعدها ، شق علينا تمثل حياتهن هناك ، فما من امرأة منهن دخلت حياة « محمد » الا رأت فيه الزوج والنبى معا ، وعرفت فيه الرجل والرسول مجتمعين ..

والذى نطمئن اليه ، هو أن الزوجة منهن كانت تأتى بيت الرسول معتزة بشرف الزواج من النبى المصطفى ، والسيد البطل . ثم ما تكاد تدخل هذا البيت وتلقى من فيه من أزواج يشاركنها فى رجلها ، حتى ترى فيه ــ صلى الله عليه وسلم ــ الزوج قبل الرســول . ومن هنا كانت المغاضبة والمنافسة ، والغيرة التى تحتدم حتى تجاوز المدى ، وما يكون شىء من هذا فى حياة نساء يرين فى زوجهن نبيا فحسب !

وحياة «محمد صلى الله عليه وسلم» فى بيته ، تبدو رائعة فى بشريتها ، فقد كان يؤثر أن يعيش بين أزواجه رجلا ذا قلب وعاطفة ووجدان (١) ، ولم يحاول ــ الا فى حالات الضرورة القصوى ــ أن يفرض على نسائه شخصية النبى لا غير ، ونحن اليوم نقرأ ما وعى التاريخ من مرويات عن تلك الحياة الزوجية ، فيبهرنا ما فيها من حيوية فياضة لا تعرف الجدب

---

(١) فى كتاب السمط الثمين للمحب الطبرى ، حديث طويل عن رعايته صلى الله عليه وسلم لزوجاته ، وسمره معهن ، وصبره عليهن : ص ٨ : ١١

الوجدانى ، ولا الجمود العاطفى . وما ذاك الا لأنه صلى الله عليه وسلم كان سَوِىَّ الفطرة ، فأتاح بذلك لنسائه أن يملأن دنياه الخاصة دفئا وحيوية ، وينحين عنها كل ظلال الجمود والفتور والجفاف ..

وتاريخ الاسلام يعترف لهؤلاء السيدات الكريمات ، بأنهن كن دائما فى حياة الرسول البطل ، يصحبنه حين يخرج فى معاركه ومغازيه ، ويهيئن له مايرضى بشريته ، ويغذى قلبه ، ويمتع وجدانه ، ويجدد نشاطه ، فكان له من ذلك كله ما أعانه على حمل العبء الثقيل ، واحتمال ما لقى فى سبيل دعوته الخالدة من تكاليف بالغة الصعوبة ..

وقــد عاش المصطفى ما عاش ، فَتِىَّ القلب حتى بعــد أن بلغ الستين ، حى الوجدان حتى يوم رحل عن هذه الأرض وأغمض عينيه فى حجر أحب نسائه اليه وأحظاهن عنده ..

فليغــفر الله لمن حملهم ايمانهم على أن يجحدوا آية الله العظمى فى ابن امرأة من قريش تأكل القديد ..

وليغفر الله لمن زعموا أن نبيه لم يخفق قلبه بحب «عائشة» ، ولا أحس ميلا نحو «زينب بنت جحش» ، ولاكان لعاطفته دخل فى زواجه من نسائه!

ويأبى الله ورسوله ، وتأبى هذه الفطرة السوية التى عرفتها الانسانية فى « محمد » واعتزت بها ، ويأبى التاريخ الذى وعى من أنباء الحياة الزوجية للرسول ، ما ينفى عنها الجفاف والجمود ..

# تعدد الزوجات وحياة الضرائر

ولا بد هنا من تعرض للقضيتين الكبيرتين فى حياة النبى مع نسائه : تعدد الزوجات ، وحياة الضرائر ..

وقد قال المستشرقون فى أولاهما ما قالوا ، ولم يروا فى هذا الجمع بين عدد من النساء ، تحت رجل واحد ، سوى مظهر مادية مسرفة . وانه لضلال أملاه التعصب الأحمق والهوى المضل ، وانحراف عن المنهج العلمى الذى يأبى أن تقيس مسألة تعدد الزوجات بمقاييس عصرية مستحدثة صنعتها بيئة تفصلها عن بيئة « محمد » آباد وأبعاد ..

وهذا الغرب لا يجرؤ اليوم على أن يدعى ان نظام الزوجة الواحدة ، يتبع فى دقة وينفذ نصا وروحا ، ومع هذا يأتى بعضهم فينكرون فى جرأة ، أن يجمع بيت المصطفى عددا من الزوجات ، منذ أربعة عشر قرنا ، فى بيئة قد كان التعدد هو نظامها السائد التى لا تعرف سواه الا فى حالات قليلة ولدواع خاصة . ولم يكن هذا النظام اختياريا ، وانما قضت به طبيعة الزمان والمكان ، فى اقليم أدنى الى البداوة ، وفى مجتمع يسوده نظام القبيلة ، والبنون فيه زينة الحياة ، وفخر المرأة الانجاب ، وفخر الرجال الولد وعزة النفر ..

وربما بدا لنا اليوم ان ذلك التعدد كان مظهرا من مظاهر استعباد المرأة العربية ورقها المزعوم ، وأنه قصد الى ارضاء الرجال . لكنه فى الحق كثيرا ما ألقى على الرجل عبئا ثقيلا مرهقا ، وأنقذ المرأة العربية من نظام أبشع من التعدد ، وهو هذا الرق العصرى الذى يعترف بزوجة واحدة ، ويدع لغيرها ، ممن يعاشرهن الزوج ، الضياع والهوان والعار ..

والمرأة الخاسرة هى التى تدفع الثمن باهظا ، ويدفعه كذلك مجتمع تعس ، وانسانية شقية بلقطاء مضيعين ، وصغار منبوذين ، لم يكن يعرفهم المجتمع العربى الذى فرضت عليه ظروفه وأوضاعه أن يستكثر

من الأولاد ، ولو عن طريق التبنى والاستلحاق ، بحكم نظام القبيلة ، واعتزاز الرجال بكثرة النفر . وهى أوضاع نسخها التطور ، واتجهت بها الضرورة فى بعض البيئات الى تنظيم النسل ، رعاية للمصلحة العامة التى هى قوام الشريعة ..

وفى مسألة التعدد ، جانب دقيق غفل عنه كثير ممن هاجموه : الرجال ليسوا سواء ، وقد تؤثر أنثى راضية ، أن يكون لها حظ النصف من حياة رجل ، على أن يكون لها غيره كاملا ..

وليس معنى هذا أن نساء النبى كن سعيدات بحياة الضرائر ، ولا هو يقتضى أن تستريح احداهن الى هذه المشاركة فى الزوج

ولكن معناه على التحديد أن « محمدا » كان من ذلك النمط الفريد بين الرجال ، الذى تؤثر الزوجة أن يكون لها أى مكان فى بيته ، على أن تكون لها مع غيره ، مملكة مستقلة تنفرد بها دون مشاركة ..

وليس من بين أزواجه صلى الله عليه وسلم ، من دخلت بيته وفى حسابها أن تنفرد به ، فقد كانت مسألة التعدد تبدو طبيعية الى حد يسهل علينا تصوره ، لو ذكرنا أن « خولة بنت حكيم » اقترحت على المصطفى أن يخطب عائشة بنت أبى بكر وسودة بنت زمعة ، فى وقت واحد (١) ، وان « أم المؤمنين ، ميمونة بنت الحارث » هى التى (٢) عرضت أن يتزوجها المصطفى وفى بيته ثمانى زوجات ، وان عمر بن الخطاب عرض ابنته حفصة على أبى بكر وعثمان (٣) ، وعنده « أم رومان » حماة النبى صلى الله عليه وسلم ، وأن على بن أبى طالب همّ بأن يتزوج على « فاطمة الزهراء ، بنت النبى » ، وأن أبا بكر وعمر ، صهرى الرسول رغبا فى الزواج من « أم سلمة بنت أبى أمية زاد الركب »

---

(١) ابن هشام : السيرة : ٣٥٢/١ وتاريخ الطبرى ، الجزء الثالث

(٢) السيرة : ٢٩٦/٤ ، وتاريخ الطبرى ، الجزء الثالث .

(٣) السمط الثمين : ٨٣ ــ ونسب قريش : ٣٥٢ ط الذخائر

حين مات عنها زوجها ، وفى بيت كل منهما أكثر من زوجة ..

ولو خيِّرت أزواج النبى بين حياتهن تلك المشتركة فى بيت واحد ، ومع زوج واحد ، وبين حياة أخرى منفردة فى غير ذلك البيت ، لما رضين عن حياتهن بديلا ..

وكنّ مع ذلك مرهقات بهذه المشاركة ، تضنيهن الغيرة ويشقيهن ألا تنفرد كل منهن بقلب زوجها . وقد شهد بيت المصطفى من غيرة نسائه ما يخيل الينا معه أنها جعلت من هذا البيت ميدانا لمعارك نسوية لا تهدأ ولا تفتر ، وإن لم تر فيه الطبيعة سوى أثر لحيوية هؤلاء السيدات ، ومظهر من مظاهر التنافس على حب زوجهن والرغبة فى الاستئثار به والحظوة لديه ..

وما من شك فى أن المصطفى قد عانى من ذلك كثيرا ، لكنه راض نفسه على احتماله ، تقديرا للدوافع الطبيعية التى كانت تدفع اليه قسرا ودون اختيار ، وما تزال الانسانية تصغى حتى اليوم ، وغدٍ بعده ، الى كلمته فى زوجه « عائشة » حين لجت بها غيرتها الجامحة :

« ويحها ، لو استطاعت ما فعلت ! »

وترى فيها آية على سلامة الفطرة ، وصحة النفس ، وعمق الفهم لطبيعة حواء . وقد كانت نساؤه يعرفن هذا فى زوجهن الرسول ، ويلذن به كلما أخرجتهن طبيعة حواء عما يجب لنساء نبى من مسالمة ووئام ، ويدركن أن الغيرة مهما تجمح بهن ، فمثل رسول الله من يعذر ، ويقدر ، ويرحم ، دون أن يرى فى ضعف البشرية إثما لا يغتفر ، أو يجد فى فطرة حواء ما يدعو الى الازدراء ..

ويحضرنى الآن حديث لعمر بن الخطاب ، أستجلى فيه ملامح الزوج الرسول ، وأراه صادق الدلالة على شخصية النبى الانسان . قال رضى الله عنه :

« والله إن كنا فى الجاهلية ما نعد للنساء أمرا حتى أنزل الله تعالى فيهن

ما أنزل ، وقسم لهن ما قسم . فبينا أنا فى أمر أئتمره اذ قالت لى امرأتى : لو صنعت كذا وكذا ؟ .. فقلت لها : وما لك أنت ولما ههنا ، وما تكلفك فى أمر أريده ؟ .. فقالت لى :

ـ عجبا يا ابن الخطاب ، ما تريد أن تراجَع أنت ، وان ابنتك لتراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان ؟

فأخذت ردائى ثم انطلقت حتى أدخل على حفصة ، فقلت لها :

ـ يا بنية ، انك لتراجعين رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان ؟

فقالت : إنا والله لنراجعه !

ثم خرجت حتى دخلت على « أم سلمة » لقرابتى منها ، فكلمتها ، فقالت لى :

ـ عجبا لك يا ابن الخطاب !.. قد دخلت فى كل شىء حتى تبتغى أن تدخل بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه ؟

فأخذتنى أخذا كسرتنى به عن بعض ما كنت أجد (١)

ذلك أن عمر والصحابة رضى الله عنهم ، كانوا يرون فى « محمد » النبى المصطفى ، أما نساؤه فكن يرين فيه الزوج الرسول ، وهو ـ صلى الله عليه وسلم ـ راض بهذا ، مقر له ، غير ضجر به ولا كاره ..

***

ومن الناس من يشفقون من تناول ما كان يحدث بين نساء النبى من خصام وخلاف ، والحق أنه صلى الله عليه وسلم ما ضاق بهذا الا أن يجاوزن المدى ، فيغضب ، أو يزجر ، أو يهجر ، لعلهن يرعوين ..

وفيما عدا تلك الحالات القليلة التى اضطر فيها الرسول الى أخذ نسائه بالشدة والعنف ، لم يكره محمد صلى الله عليه وسلم أن يقف فى ساعات فراغه من معركته الكبرى ضد الوثنية وضد اليهود أعداء الاسلام

---

(١) المحب الطبرى : السمط الثمين ١٨٣ ط حلب .
وانظر معه طبقات ابن سعد : ٧٣/٢ ط ليدن .

وأعداء البشر ، ليرقب تلك المعركة الصغيرة بين نسائه ، يشعلها حبهن له وغيرتهن عليه . ولعله كان مما يُرضي الرجلَ فيه أن يغار مثلهن على مثله ، وأن تتنافس أزواجه على الظفر بحبه ورضاه الى حد ينسين معه أحيانا أنه ليس كغيره من الأزواج . وما حاول ، صلى الله عليه وسلم ، أن يروضهن على قهر غريزة الأنثى فيهن ، ولا كان بحيث يطيب له أن تمسخ فطرتهن فيبرأن من نوازع حواء وأهوائها ، ويتجردن من الغيرة ، والشوق ، واللهفة ، والرغبة فى الاستئثار بالزوج الحبيب .

وما كان أحلمه صلى الله عليه وسلم ، وأرق وجدانه وألطف مزاجه ، حين سمع قصة ائتمار نسائه بعروس له أشفقن من جمالها ، فأوصينا أن تستعيذ بالله حين يدخل عليها النبى ، استجلابا لمحبته ورضاه ، ففعلت وسرحها الرسول قبل أن يدخل بها ، وقال عن نسائه :

« إنهن صواحبات يوسف ، وان كيدهن عظيم ! » (١)

***

وهذه صورة من حياة أزواجه أمهات المؤمنين رضى الله عنهن فى بيته الكريم ، أرجو أن يرى فيها القارىء شخصية هذا الرجل الفذ الذى آمنت به نساؤه رسولا ، وأعجبن به بطلا ، وعاشرنه زوجا ، وشاركن فى حياته مجاهدا قائدا

(١) القصة منقولة بمزيد تفصيل ، فى الفصل الخاص بعائشة ام المؤمنين ، من هذا الكتاب .

## الفصل الثانى

# خديجة بنت خُويلِد

## أم المؤمنين الأولى

### ووزير النبي

« والله ما أبدلنى الله خيرا منها : آمنت بى حين كفر النــاس ، وصــدقتنى اذ كذبنى النــاس ، وواستنى بمالهــا اذ حــرمنى النــاس ، ورزقنى منهــا الله الولــد دون غــيرهــا من النســاء »

محمد رسول الله

# ذكرى اليمة

أينع صباه واكتمل شبابه ، فى بيئة تَمهد أمثاله من الفتية الهاشميين بما شاءوا من طيبات الدنيا ، لكنه كان يجد طعم الحياة فى مذاقه مرا كلما عاودته ذكرى بعيدة ..

وما فتئت تلك الذكرى تعاوده ، وترده الى لحظة طواها الزمن منذ ثمانية عشر عاما ، وما يزال يذكر موقفه فى بقعة موحشة من الصحراء بين « مكة ويثرب » ، أمام أمه « آمنة » والحياة تتسرب من جسمها رويدا ، ثم تنطفىء الى الأبد ..

ثمانية عشر عاما ، وما يزال المشهد الأليم يتراءى له عبر السنين ، (١) فيرى نفسه مكبا على الحفرة التى ألقوا فيها جثمان الغالية «بالأبواء» ، ضائع الحيلة مهيض الجناح ، لايملك أن يستبقى أمه لحظة واحدة بعد أن حان أجلها ، ولا أن يرد عنها عاديات الوحشـــة والبرد والظلام ، بعد أن واروها الثرى وهالوا عليها الرمال ..

وربما شغلته شواغل العيش حينا عن أشجانه ، وصرفته دواعى الحياة فترة عن تمثل ذاك الموت الذى غال أعز من له ، أمام عينيه وبين يديه ، لكنه لا يلبث أن ينتزع من حاضره مستثار الحزن ، فإذا قلبه يخفق بين جوانحه نزوعا إلى عالم بعيد ، فى طريق الشمال ، ليطوف بمرقد الثاوية فى جوف الصحراء ، ثم ينثنى مثقلا بالأسى والشجن ..

وما أكثر ما كان يمر فى مكة بالبيت المهجور الذى ضمه وأمه زمنا ، ثم أوحش من بعدها وخلا ! ..

ما أكثر ما كان ينطلق الى المراعى خارج مكة ، فاذا حان المساء وآن له أن يثوب الى منزله ، تلبث برهة عنـــد مدخل أم القرى ، وتمثل نفسه عائدا من رحلته الأولى الى يثرب ، وحيدا محزونا ، مضعضع

(١) ابن هشام : السيرة ١٧٧/١ — وانظر معه : « أم النبى » ص ١٢٩ — الهلال

الحواس ، مضاعف اليتم ، يتبع جاريته « بركة » وانى الخطو صامتا واجما ، وهى تسعى به الى بيت جده الشيخ «عبد المطلب بن هاشم » ..

وكم حاول الجد الرحيم أن يذود عن أفق الغلام اليتيم تلك الرؤى الحزينة التى تروع صباه ..

كم جاهد — على طول عامين كاملين — ليضـمد بيده الرقيقة ذلك الجرح الدامى فى قلب حفيده الصغير العزيز ! (١)

لكن الزائر المرهوب الذى ألم بآل الغلام فانتزع أباه ثم أمه ، عاد من جديد فطوّف بحى بنى هاشم ، وتلبث برهة يحوم حول فراش كبيرهم عبد المطلب ، وينذر بالرحيل ..

ووقف الغلام مرة ثانية ، يرقب الحياة وهى تنطفىء فيمن كان له أبا بعد أبيه الذى لم يره ..

وأصغى فى حزن ذاهل الى صوت الشيخ المحتضر ، وهو يدعو اليه ولده « أبا طالب » فيوصيه بمحمد ، ابن أخيه « عبد الله » ..

ثم يمضى ...

وانتقل الصبى من بعده الى منزل جديد ، ووجد فى عمه أبا ثالثا ، لكنه ظل يفتقد الأم ..

وبقى قلبه على الأيام والشهور والسنين ، ينزع نحو مرقدها الأخير فى « الأبواء » ..

ولم يستطع ضجيج صبية بنى هاشم فى ملاعب حداثتهم ، أن يمحو من مسمعه صدى الحشرجة الرهيبة التى صكت أذنيه وقلبه فى جوف البيداء

ولا استطاعت مشاهد الحياة الزاخرة الحافلة حول « البيت العتيق » فى « أم القرى » أن تطوى فى متاهة النسـيان ذلك المشـهد الفاجع لاحتضار أمه وموتها ، قرب « الأبواء » ..

***

وهذا هو يقف فى المساء الساجى عند أطراف الصحراء شارد البال ،

(١) ابن هشام : السيرة ١٧٨/١ .

والكون من حوله موحش واجم ، يلفه الغلس برداء أربد ، ويتنفس فيه الصمت العميق شجنا واعياء ..

واذ تتكاثف الظلمة من حوله ، يجمع نفسه فى جهد ، ويأخذ طريقه الى منزل عمه ، وفى نفسه احساس مرهف بفراق وشيك ، فقد آن له أن يغادر هذا المنزل الذى آواه بضعة عشر عاما ، وحسبُ العم ما يحمل من أعباء بنيه الكثار ..

ولكن الى أين ؟ ..

الى « الشام » مؤقتا كما أراد له عمه فى صباح يومه ذاك ، فلقد حدثه فى مطلع الشمس عن رحلة مرجوة الخير ، وقال له فيما قال :

« يا ابن أخى ، أنا رجل لا مال لى ، وقد اشتد الزمان علينا وألحت علينا سَنون منكرة ، وليس لنا مال ولا تجارة ، وهذه عِير قومك قد حضر خروجها الى الشام ، وخديجة تبعث رجالا يتجرون فى مالها ويصيبون منافع ، فلو جئتها لفضّلتك على غيرك لما يبلغها عنك من أمانتك وطهارتك ، وان كنت أكره أن تأتى الشام وأخاف عليك من يهود

قد بلغنى أنها استأجرت فلانا ببكرين ، ولسنا نرضى لك بمثل ما أعطته ، فهل لك فى أن أكلمها ؟ » (١)

قال « محمد » :

ـ ما أحببت يا عم ...

ترى هل كلمها العم واستقر العزم على الرحيل ؟

اذن فليرحل ، تاركا تدبير المستقبل للغد المطوى فى ضمير الغيب ..

---

(١) هذه رواية الزرقانى عن الواقدى . وانظر معها سيرة ابن هشام ١٩٩/١ ، والسمط الثمين للمحب الطبرى ص ١٣ طبعة حلب ـ والذى فى الطبرى ، ١٩٦/٢ ، أن السيدة خديجة هى التى عرضت عليه ، مباشرة ، أن يخرج فى مالها الى الشام تاجرا .

# لقـــــاء

القافلة تغذ السير نحو « أم القرى » عائدة من رحلة الصيف الى الشام ، والحداة يهزجون بأغانيهم التى تَعِدُ الإبلَ بالراحة والظل والرى، وتمنى الركب بأنس اللقاء ، للأهل والأحباب ..

والمسافرون قد استغرقتهم نشوة حالمة منذ بلغوا « مر الظهران » على مقربة من « مكة » واشرأبت أعناقهم الى معالمها التى لاحت لهم من بعيد ، تناديهم فى لهفة واشتياق ..

لكنه وحده ، من بين هؤلاء جميعا ، انطوى على نفسه يكابد أشجانه التى هاجها مرور القافلة قريبا من «الأبواء» فى طريق عودتها الى «مكة»

وعبثا حاول تابعه المرافق ، أن يغريه بالتطلع الى « أم القرى » أو يشغله بالحديث عما ينتظره هنالك من تقدير السيدة الثرية الكريمة ، التى اختارته ليخرج فى مالها الى الشام ، ووعدته بأن تعطيه ضعف ما كانت تعطى غيره ممن استأجرتهم قبله ..

وقال التابع « ميسرة » :

« أسرع أنا الى سيدتى فأخبرها بما صنع الله لها على وجهك ، فانها تعرف ذلك لك » ..

فتركه « محمد » يمضى ، وفرغ لتأملاته :

أهذا كل ما ينتظر المسافر العائد من الشام ، والحداة يمنون الركب بأنس اللقاء للأهل والأحباب ؟ ! ..

وكر بصره راجعا الى وراء ، يتبع آثار طيف من أمه « آمنة » ، بدا كأنما يملأ فضاء الصحراء ..

وتذكر رحلته الأولى عائدا من « يثرب » بغير أم ! ..

***

حتى علا ضجيج الركب مختلطا بهتاف المستقبلين ورغاء الابل التى

أناخت على ثرى « مكة » مطمئنة ، فمضى « محمد » على بعيره نحو دار « خديجة » بعد أن طاف بالبيت العتيق ..

وكانت « خديجة » هناك فى دارها ، ترقب الطريق من علية بها ، فى لهفة مشوبة بشىء من القلق ، والى جانبها غلامها « ميسرة » يملأ سمعها بحديث مثير عن رحلته مع « محمد بن عبد الله » (١)

واذ ظهر لها أخيرا يدنو من الدار بطلعته الوسيمة وملامحه النبيلة ، اندفعت تستقبله لدى الباب مرحبة ، مهنئة بسلامة العودة ، فى صوت يفيض عذوبة ورقة وحنانا ..

ورفع اليها وجهه شاكرا ، فما تلاقت الأعين حتى عاد فخفض بصره ، ومضى يقص عليها أنباء رحلته وربح تجارته ، وما جاءها به من طيبات الشام ..

وأنصتت اليه شبه مأخوذة ، حتى اذا ودعها ومضى ، ظلت واقفة حيث هى ، تتبعه عيناها الى أن توارى فى منعطف الطريق ..

واتجه هو الى منزل عمه « أبى طالب » وهو يحس شيئا من الرضى والارتياح ، أن عاد اليه من رحلته موفقا سالما ، لم يمسسه أذى من يهود ..

---

(١) انظر فى ابن هشام ١/٢٠٠ — وفى السمط الثمين ص ١٣ — وتاريخ الطبرى ٢/١٩٦

# زواج سعيد

وسارت الحياة فى أم القرى على وتيرتها أياما ، وقد عكف أصحاب الأموال على مراجعة حساباتهم واحصاء أرباحهم أو خسارتهم ، وانصرف التجار العائدون الى أهليهم يستجمون من آثار سفر شاق طويل ، محفوف بالأخطار ..

وصفى حساب القافلة أو كاد ، وانقطع ما بين التجار والأجراء الى حين ، اللهم الا ما كان بين السيدة « خديجة » و « محمد » الصادق الأمين ..

لقد بلت « خديجة » الدنيا وعرفت الرجال ، وتزوجت مرتين ، باثنين من سادات العرب وأشرافهم : عتيق بن عائذ المخزومى ، وأبى هالة بن زرارة التميمى (١) ، واستأجرت غير واحد من الكهول والشبان ، فما رأت فيمن عرفت ، ذلك النمط الفريد من الرجال ..

واستغرقت فى تفكيرها ، تستعيد صوته العميق الآسر وهو يحدثها عن رحلته ، ويطالعها مرآه وهو مقبل عليها ملء الفتوة والمهابة والنبل ..

وفجأة ، ألفت خواطرها تحوم حول الموضع الذى التقت فيه بالشاب الهاشمى ، فهزها شعور مباغت ، وانثنت تسائل قلبها :

فيم الخفقان وقد أدبر الشباب أو كاد ؟ ..

ترى هل مسه الحب فاستيقظ بعد ما طال به الهجوع وطاب له الرقاد؟

واذ تلقت جواب القلب ، انتفضت حائرة لا تدرى كيف تواجه دنياها بمثل هذه العاطفة ، بعد أن نفضت يديها من الرجال أو خرجت — فى حساب بيئتها — من حياة الرجال ؟

(١) هذه رواية السيرة « ١٩٢/٤ » وتاريخ الطبرى « ١٧٥/٢ » والسمط الثمين « ١٣ » ومثلها فى الاستيعاب ، لكنه ذكر قبلها أن السيدة خديجة تزوجت أبا هالة ، ثم عتيق بن عائذ « ١٨١٧/٤ » وانظر ترجمة عتيق وابى هالة فى جمهرة انساب العرب لابن حزم . ص ١٣٢ ، ١٩٦ ط أولى ذخائر العرب .

وكيف تلقى بها قومها وقد ردت عن بابها الخُطّاب من سادة قريش وسراة مكة ؟ (١)

ولكن ويحها ! لقد فكرت فى قومها ، دون أن تعرف رأى « محمد » فيها : أتراه يستجيب لعاطفة أرملة كهلة فى الأربعين من عمرها وهو الذى انصرف حتى اليوم عن عذارى مكة وزهرات بنى هاشم الناضرات ؟

وانتابها ما يشبه الخجل ، فما هى فى كهولتها بالقياس الى « محمد » فى شبابه غير خالة أو أم ، ولو قد عاشت « آمنة بنت وهب » لما جاوزت إذ ذاك سن الأربعين !.. وهى بعدُ ليست خلية من هموم الأمومة ، فقد ترك لها زوجها عتيق بن عائذ المخزومى بنتاً أدركت سن الزواج ، وخلف لها زوجها أبو هالة بن زرارة التميمى ، ولدها « هندا » غلاما لم يشب عن الطوق (٢) ..

وهتفت بقلبها : أن حسبك ، فأى طائل وراء هذه العاطفة التى تبدو يائسة عقيما ؟ ..

وفى غمرة حيرتها واضطرابها ، زارتها صديقتها « نفيسة بنت منية » فلم يغب عنها الذى تجد صاحبتها ، فما زالت بها حتى كشفت لها عن سرها المطوى ..

وهوّنت « نفيسة » الأمر عليها ، فما فى نساء قريش من تفوقها نسبا وشرفا ، وهى بعد ذات غنى وجمال ، كل قومها حريص على الزواج منها لو يقدر عليه (٣) ..

ثم تركتها وقد اعتزمت أمرا ..

***

جاءت (٤) « محمدا » فسألته فيمَ عزوفه عن الدنيا وقضاؤه على

---

(١) سيرة ابن هشام : ٢٠١/١ — والسمط الثمين ١٢

(٢) انظر ترجمة بنت عتيق فى جمهرة الانساب « ١٣٢ » وانظر ترجمة هند بن ابى هالة ، ربيب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الاستيعاب « ١٥٤٥/٤ » وفى الجمهرة « ١٩٦ »

(٣) السيرة : ٢٠١/١

(٤) كذا فى شرح المواهب . والذى فى سيرة ابن هشام ان السيدة خديجة عرضت نفسها عليه من غير وساطة . وروى المحب الطبرى فى السمط ، انها بعثت الى محمد صلى الله عليه وسلم ، ولم يذكر اسم من بعثته — وانظر تاريخ الطبرى ١٩٧/٢ .

شبابه بالحرمان ؟ .. هلا سكن الى زوجة تحنو عليه وتؤنسه وتزيل وحشته ؟ ..

فأمسك الشاب اليتيم دمعة كادت تخونه وهو يذكر ما ذاق من حرمان منذ تركته أمه صبيا فى السادسة من عمره ، وتكلف الابتسام ليرد على محدثته :

ــ ما بيدى ما أتزوج به ..

قالت على الفور :

ــ فإن دُعِيتَ الى الجمال والمال والشرف والكفاءة ، ألا تجيب ؟

فما مسَّ سؤالها أذنيه حتى أدرك من تعنى :

تلك « خديجة » ورب الكعبة ، ومن سواها تدانيها شرفا وجمالا وكفاءة ؟ ..

ألا لو دعته لأجاب ، ولكن هل تدعوه ؟

وانصرفت « نفيسة » وتركته مشغول البال ، يرنو فى رقة الى طيف من خديجة ، وقد تراءت له فى وحدته طلقة المحيا باشة الأسارير ،

وأشفق أن تبعد به أمانيه ، اذ كان يعلم ردها أشرافَ قريش وأغنياءها ، فغالب نفسه ليستردها الى واقعه ، وانطلق يسعى نحو الكعبة ، فإذا كاهنة تلقاه فى طريقه فتستوقفه سائلة :

ــ جئتَ خاطبا يا محمد ؟ ..

أجاب غير كاذب :

ــ كلا ..

فتفرست فيه برهة ثم هزت رأسها وهى تقول :

ــ ولم ؟ .. فوالله ما فى قريش امرأة ، وان كانت خديجة ، لا تراك كفؤا لها (١)

(١) راجع هذا الحديث كله ، فى الجزء الاول من السيرة لابن هشام ، والروض الانف للسهيلى ١/١٢٢ .

ثم لم تك إلا فترة قصيرة المدى ، حتى تلقى دعوة «خديجة» فسارع اليها ملبيا وفى صحبته عماه « أبو طالب وحمزة ، ابنا عبد المطلب »

وهناك فى بيتها ألفوا قومها ينتظرون ، وكل شيء مهيأ لزواج سريع..

وتكلم « أبو طالب » :

« أما بعد : فإن محمدا ممن لا يوازَن به فتى من قريش ، الا رجح به شرفا ونبلا وفضلا وعقلا ، وان كان فى المال قل ، فإنما المال ظل زائل وعارية مسترجعة . وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك .. »

فأثنى عليه عمها « عمرو بن أسد بن عبد العزّى بن قصى » وأنكحها منه ، على صداق قدره عشرون بكرة (١)

ولما انتهى العقد ، نحرت الذبائح ودقت الدفوف ، وفتحت دار خديجة للأهل والأصدقاء ، فإذا بينهم « حليمة » قد جاءت من بادية بنى سعد ، لتشهد عرس ولدها الذى أرضعته ، ثم لتعود فى الغداة ومعها أربعون رأسا من الغنم ، هبةً من العروس الكريمة لتلك التى أرضعت « محمدا » زوجها الحبيب ..

وتندت عينا « محمد » وهو يتفقد أمه « آمنة » فإذا يد لطيفة رقيقة ، تأسو الجرح القديم فى حنان غامر ، واذا به يجد فى « خديجة » عوضا جميلا عما قاساه من طويل حرمان ..

***

ولم يعنِ « مكةَ » من أمر الزوجين السعيدين ، سوى أن زواجا ربط بين « محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشى » وبين « خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزّى بن قصى » (٢)

ولكن « التاريخ » تلبث بعد بضع عشرة سنة ، ليسجل يوم العرس المشهود ، بين أيامه الخالدات على مر الحقب والدهور ..

---

(١) ابن هشام : السيرة ٢٠١/١ ، وفى رواية اخرى انه أصدقها اثنتى عشرة اوقية ذهبا : السمط ١٥ .

(٢) وأم خديجة : فاطمة بنت زائدة بن الاصم بن هرم بن رواحة . راجع الاستيعاب « ١٩١٧/٤ » وتاريخ الطبرى « ١٧٥/٣ » ـ ونسب قريش : ٢٣٠

وقد انصرف الى حين ، تاركا هـذين الزوجين ينعمان بأطيب حياة زوجية شهدتها « مكة » ويترشفان على مهل ، رحيق ودٍّ صاف عميق ، سيظل حديث الزمان ..

واستغرقا فى هناءتهما خمسة عشر عاما ، ناعمين بالألفة والاستقرار ، وقد أتم الله عليهما نعمته ، فرزقهما البنين والبنات : القاسم ، وعبد الله ، وزينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة (١)

***

وأرخى الزمن لهما فى حياتهما تلك الرخية الهانئة أعواما ذات عدد ، ارتوى « محمد » خلالها من نبع الحنان ، معوضا بذلك حرمان ماض يتيم ، ومتزودا لغد مقبل ، حافل بالكفاح المضنى والشواغل الجسام ..

وقد ذاقا فى تلك الفترة لوعة الثكل فى الولدين العزيزين ، فكان للزوجين فى وئامهما وتصبرهما ، ما أعانهما على تجرع الـكأس التى تدور على النـاس جميعا فلا يعفى من شربها أحد ، وما كان ولداهما الا وديعة ، ولا بد يوما أن تسترد الودائع ! (٢)

---

(١) انظر الاصابة ، الجزء الثامن . والسيرة : ٢٠٢/١ ـ وانظر معه تاريخ الطبرى ١٧٥/٢ ط مصر .

(٢) لم نطل الحديث هنا عن ابوة محمد وامومة خديجة ، لان موضع هذا الحديث فى كتابنا عن « بنات النبى »

وذكر الطبرى ان هند بن ابى هالة ، كان عند امه خديجة بعد زواجها بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفى ترجمة هند بالاستيعاب ، انه كان ربيب رسول الله صلى الله عليه وسلم . « ١٥٤٥/٤ » .

# رسالة السماء

ثم كان الحادث الخطير ، لا فى حياة هذه الأسرة الوادعة فحسب ، ولا فى حياة قريش والعرب وحدهم ، بل فى حياة الانسانية جمعاء ..

لقد تلقى « محمـد » رسالة السماء ، وجاءه الوحى الإلهى فحمّله الأمانة العظمى ، وبعثه فى الناس بشيرا ونذيرا ..

وكانت الرسالة إيذانا بحياة جديدة ، شاقة كادحة ، وبدءا لعهد ملؤه الاضطهاد والعذاب ، والجهاد ، ثم النصر ..

وفى الحق لم يكن الحادث الأكبر مفاجأة للعرب ، فما أكثر ما تناقلت الجزيرة أنباء ارهاصات عن نبى جديد قد حان مبعثه ، وما أكثر ما تحدث السمار والكهان والمتحنفون ، عن رسالة سماوية منتظرة آن أوانها ! (١)

و « مكة » على الخصوص ، كانت الموضع الذى تتلاقى فيه تلك الارهاصات والتكهنات ، وتتجمع روافدها من هنا ومن هناك وهنالك ، لتصب حول « البيت العتيق » : مثابة الحج ومركز العبادة من قديم العصور والآباد ..

كذلك لم يكن الحادث الخطير مفاجأة لمحمد ، فمنذ استقرت به الحياة فى رعاية زوجه الرءوم ، وأعفته ظروفه المادية من عناء الكفاح اليومى ، أتيح له أن يستجيب لما فى نفسه من نزوع الى التأمل ، وميل الى التفكير المستغرق . وهى نزعة ظهرت فيه واضحة منذ الصبا . ووجدت فى ساعات فراغه — أيام رعيه للغنم — مجالا رحبا ، ثم صرفه عنها كدح العيش ، لتعود فتظهر من جديد ، قوية أصيلة ، كأنما هى فطرة فيه ..

وكثيرا ما حامت تأملاته حول الكعبة ، تلك التى صنعت تاريخ «مكة» وتاريخ أسرته بوجه خاص (٢) ، ووصلت ما بين أبيــه « عبد الله »

(١) انظر هذه الانباء بالتفصيل فى الجزء الاول من سيرة ابن هشام ، ط الحلبى — وفى الجزء السادس عشر من نهاية الارب للنويرى ، ط دار الكتب — وفى الجزء الاول من « وفاء الوفا ، باخبار دار المصطفى ». للسمهودى . ط السعادة بمصر .

(٢) السيرة : ١٦٣/١ — واقرأ الفصل الخاص بمكة فى كتابنا « ام النبى » ص ٥١ وما بعدها ، ط ثانية — الهلال .

و « اسماعيل » جد العرب ، برباط وثيق نسجته يد الزمن طوال قرون لا عداد لها ، فأحيت بحادث فداء «عبد الله» من الذبح ، ذكرى متناهية فى القدم ، لمشهد الذبيح الأول : ابن ابراهيم ..

وانبلج له قبَس من نور الحق ، فأنكر هذه الأصنام التى تكدست فى بيت الله ، صماء عمياء ، لا تملك نفعا ولا ترد عن نفسها ضرا . واستبشع أن تخف أحلام قومه ، فيتعبدوا لحجارة بالغة الهوان ، ويقدموا القرابين لأوثان وأصنام صنعوها ، ثم جعلوا منها آلهة لهم مع الله وأربابا ..

وأرهف التأمل حسه ، فاذا هو يستشف أدق ما فى الكون من أسرار ، ويلمح وراء جلال الليل ورهبة الصحراء وسنا الضوء وبهاء السماء ، قوة عظمى خفية ، تدبر هذا الكون وفق نظام دقيق ونواميس مطردة ، فلا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون ..

***

وما شارف الأربعين ، حتى كان قد ألف الخلوة فى غار « حراء » واستطاب رياضته الروحية التى يحس خلالها كأنما يدنو من الحقيقة الكبرى ويستجلى السر الأعظم ، وما كانت « خديجة » فى وقار سنها وجلال أمومتها لتضيق بهذه الخلوات التى تبعده عنها أحيانا ، أو تعكر عليه صفو تأملاته بالمعهود من فضول النساء ، بل حاولت ما وسعها الجهد أن تحوطه بالرعاية والهدوء ما أقام فى البيت ، فاذا انطلق الى غار « حراء » ظلت عيناها عليه من بعيد ، وربما أرسلت وراءه من يحرسه ويرعاه (١) ، دون أن يقتحم عليه خلوته أو يفسد وحدته ..

وهكذا بدا كأن كل شيء مهيأ لاستقبال الرسالة المرتقبة ، لكنها ــ برغم هذا التهيؤ ــ زلزلت حين جاءت ، أرجاء ذلك العالم الذى طالما أرهص بنبوة وشيكة ، وهزت كيان ذلك النبى الموعود ، « محمد بن عبد الله » الذى ما رضى قط عن موضع الأصنام بالكعبة ، ولا شك

(١) السيرة لابن هشام : ١/٢٥٣ ــ والسمط الثمين : ١٩

لحظة ، فى أن حياة قومه لن تمضى هكذا على سفه وضلال ..

فما جاءه وحى السماء وهو فى غار « حراء » ، حتى انطلق يلتمس بيته فى غبش الفجر خائفا شاحبا مرتعد الأوصال ، واذ بلغ حجرة زوجه أحس انه وصل الى مأمنه ، فحدثها فى صوت مرتجف عن كل ما كان ، ونفض لديها مخاوفه : (١)

أتراه يهذى حالما ؟ .. أم به جِنّة ؟ ..

وضمته الى صدرها ، وقد أثار مرآه أعمق عواطف الأمومة فى قلبها ، وهتفت فى ثقة ويقين :

« الله يرعانا يا أبا القاسم ، أبشر يا ابن عم واثبت ، فوالذى نفس خديجة بيده ، انى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة ، والله لايخزيك الله أبدا .. انك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكلّ ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق » (٢)

وأشرقت أسارير « محمد » وزايله روعه ، فما هو بالكاهن ولا به جِنّة ، وهذا صوت « خديجة » العذب الحنون ، ينساب مع ضوء الفجر الى فؤاده ، فيبث فيه الثقة ، والأمن والهدوء ..

وأحس الراحة والطمأنينة وهى تقوده فى رفق الى فراشه ، فتضعه فيه كما تفعل أم بولدها الغالى ، ثم تهدهده بصوتها الأليف ..

واستراحت عيناها عليه برهة وهو مستغرق فى نومه الهادىء المطمئن ، ورف حوله قلبها ملء الحب والعطف والتقدير والاعجاب ، ثم قامت فتسللت من المخدع على حذر ، حتى اذا بلغت الباب اندفعت الى الطريق الخالى ، تحث خطاها نحو ابن عمها « ورقة بن نوفل » ومكة ما تزال تنعم بغفوة الصبح ، والكون يبدأ تفتحه للضوء والحياة ..

وجاءت « ورقة » فأقعدته الشيخوخة عن النهوض للقائها ، لكنه ما

(١) تاريخ الطبرى : ٢/٢٠٧ .
(٢) ابن هشام : السيرة ١/٢٥٣ — وتاريخ الطبرى : ٢/٢٠٥ ، ٢٠٧ — والسمط الثمين ص ١٠ .

كاد يصغى الى ما تتحدث به حتى اهتز منفعلا ، وتدفقت الحيوية فى بدنه الواهن ، فانتفض يقول فى حماس :

« قدوس .. قدوس ، والذى نفس ورقة بيده ، لئن كنت صدقتينى يا خديجة ، لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى وعيسى ، وانه لنبى هذه الأمة ، فقولى له فليثبت » (١)

ولم تنتظر مزيدا من قوله ، ولم تستعد كلمة واحدة منه ، بل طارت الى زوجها الحبيب تعجل له بالبشرى ، فإذا به لايزال نائما كما تركته ..

وعز عليها أن توقظه ، فجلست بالقرب منه منتظرة ، تكاد نفسها تذوب من لهفة عليه وحب وحنان ، ثم اذا به فجأة ينتفض فى فراشه ، وتتثاقل أنفاسه ، ويتفصد العرق من جبهته .. وظل على ذلك فترة قبل أن تعاوده سكينته وتنتظم أنفاسه ، ويبدو عليه كأنما يصغى الى محدث غير مرئى ، ثم يتلو فى بطء كأنه يستعيد درسا ألقى عليه :

« يأيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبِّر . وثيابَك فطهر . والرجز فاهجر . ولا تمنن تستكثر . ولربِّك فاصبر » (٢)

وتلقته « خديجة » من صحوه بين ذراعيها ، وحدثته بما سمعت من « ورقة بن نوفل » فرنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ اليها مليا بنظرة تفيض شكرا وامتنانا ، حتى اذا ملأ عينيه من تلك التى ملأت دنياه حبا وأمنا وسلاما ، استدار فنظر الى الفراش وقال فى تأثر :

« انتهى ياخديجة عهد النوم والراحة ، فقد أمرنى جبريل أن أنذر النـاس وأن أدعوهم الى الله والى عبـادته ، فمن ذا أدعو ومن ذا يستجيب ؟ »

هتفت فى لهفة وإيمان :

ـ أنا أستجيب يا محمد ، فادعنى قبل أن تدعو أى انسان ، وانى لمسلمة لك ، مصدقة برسالتك ، مؤمنة بربك ..

فباركها وهو يشعر بسكينة وراحة ، ثم استجاب لها فقام ينشـد

(١) ابن هشام : السيرة ٢٥٤/١ وتاريخ الطبرى : ٢٠٦/٢
(٢) سورة المدثر : الآيات ١ : ٧

« ورقة » الذى صاح حين لمحه مقبلا :

« والذى نفسى بيده ، انك لنبى هذه الأمة ، ولتُكذَّبن ، ولتؤذَيَن، ولتخرجَن ، ولتقاتلن ، ولئن أنا أدركتُ ذلك اليوم لأنصرن الله نصرا يعلمه ! » ..

ثم أدنى رأسه اليه فقبّل يافوخه ..
قال محمد صلى الله عليه وسلم :
« أو مخرجيَّ هم ؟ » ..
أجاب « ورقة » :
« نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ماجئتَ به إلا عودِى ، ليتنى أكون فيها جذعا .. ليتنى أكون حيا ! » (١)

***

وطابت نفس الرسول بما سمع ، فآب الى بيته مطمئنا ليبدأ نضاله من أجل الدعوة ، وليلقى فى سبيلها أفدح ما وعى تاريخ الأبطال من أذى واضطهاد ، فما كانت قريش لترضى أن يعيب دينها ويسفه أحلامها ، ويحقر آلهتها التى وجدوا آباءهم لها عابدين !

ووقفت الزوج المحبة المؤمنة الى جانب زوجها النبى المصطفى ، تنصره وتشد أزره ، وتعينه على احتمال أقسى ضروب الأذى والاضطهاد سنين عددا ، فلما قضى على بنى هاشم وعبد المطلب أن يخرجوا من مكة لائذين بشِعب أبى طالب ، بعد أن أعلنت قريش عليهم حربا مدنية لا ترحم ، وسجلت مقاطعتها لهم فى صحيفة علقت فى جوف الكعبة (٢) ، لم تتردد « خديجة » فى الخروج مع زوجها . وهكذا تخلت عن دارها الحبيبة ، مغنى صباها ومجمع هواها ومثابة ذكرياتها ، وقامت تتبع رجلها ونبيها وقد علت بها السن ، وناءت بأثقال الشيخوخة ، والثكل ، والاضطهاد

وأقامت هنالك فى شِعب أبى طالب ثلاث سنين ، تذوق مع المصطفى

(١) ابن هشام : السيرة ٢٥٤/١ وتاريخ الطبرى : ٢٠٦/٢ ، ٢٠٧
(٢) السيرة : ٣٧٥/١ وتاريخ الطبرى : ٢٢٨/٢

ومن تبعه من قومه أهوال الحصار المنهك ، وتكافح الوهن الذى أخذ يدب الى جسدها منذ جاوزت الستين ، متشبثة بالحياة فى نضال رائع ، كيما تظل الى جانب رجلها فى معركته الفذة ، يلقى فيها بقلة مؤمنة عزلاء ، جبروت الوثنية العريقة المتأصلة ، وجموع القرشيين ذوى العدد والعدة والمال ..

ثم فشل الحصار أمام ذلك الايمان الراسخ الصامد ، وآن لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يعود الى بيته فى مكة (١) ، فتحاملت « خديجة » حتى بلغت فراشها وقد نال منها الاعياء ، واستنفد الاضطهاد والعذاب ما أبقى لها الزمن من قوة فى عامها الخامس والستين (٢)

## عام الحزن

ورقدت هناك ثلاثة أيام ، وزوجها الرسول الى جانبها لايفارقها لحظة من ليل أو نهار ، ثم أسلمت الروح بين يدى الرجل الذى أحبته منذ اليوم الأول الذى لقيته فيه ، والذى صدقته وآمنت به منذ سمعت برسالته حتى الرمق الأخير ..

وتلفت محمد ، صلى الله عليه وسلم حوله ، فإذا الدار من بعدها موحشة خلاء ، واذا « مكة » تنبو به بعد رحيلها فليس له على أرضها مكان ..

قال « ابن اسحق » : « فتتابعت على رسول الله صلى الله عليه وسلم المصائب بهلك خديجة ، وكانت له وزير صدق على الاسلام ! (٣)

وبلغت متاعبه أقصى مداها فى عام موت « خديجة » الذى سمى « عام الحزن » ، وخيل الى أعدائه المشركين ان الظلمات تكاثفت حوله فما عاد يبدو على الأفق شعاع من ضياء ، وكذبتهم أمانيهم فظنوا ان الظفر به جد قريب ، وما دروا أن الظلمة تبلغ ذروتها قبيل الفجر ..

---

(١) ابن هشام : السيرة ١٤/٢ : ٢٠
(٢) الاستيعاب ، والسمط الثمين ١٧ .
(٣) السيرة لابن هشام : ٧٢/١ ، ٨٤

ذلك أن « خديجة » لم تمض الا وأمين الوحى يرعى الرسـول غاديا رائحا يذود عنه القنوط والإعيـاء ، والسـابقون الأولون من المؤمنين يحيطون بنبيهم مستبسلين يفتدونه بالمهج والأرواح ، ويرون الاستشهاد فى سبيل دعوته مجدا وانتصارا ..

لم تمت « خديجة » الا والدعوة قد ذاعت وجاوزت « مكة » الى أطراف الحجاز ، ثم الى ما وراءها من بلاد العرب ، وحملها فئة من صحابته عبر البيـد والبحار الى « الحبشـة » (١) مهاجرين بدينهم ، متخلين عن ديارهم وأهليهم ، عارضين على الدنيا خارج الجزيرة ، مشهدا رائعا من مشاهد الايمان الباذل الصـابر ، مالئين الأسـماع والقلوب بحديث مثير عن لذة البذل ومجد الجهاد وبطولة الاستشهاد ..

لم تمت « خديجة » الا وفى الموسم بمكة ، رجال من « يثرب » لن يلبثوا أن يبايعوا الرسـول صلى الله عليه وسلم (٢) ويعودوا فيعبئوا المدينة كلها لنصرته ، وأقصى أمانيهم أن يخوض بهم المعركة النبيلة ، ليذهبوا على الأيام بإحدى الحسنيين : عزة النصر ، أو شرف الموت فى سبيل الله ورسوله ..

(١) السيرة : ٥٧/٢ ـ تاريخ الطبرى : ٢٢٩/٢
(٢) السيرة لابن هشام : ٣٤٤/١ وتاريخ الطبرى : ٢٢١\٢

# ملء الحياة

ولكن ، هل ماتت « خديجة » حقا ؟ ..

كلا ! .. انها لماثلة بين عينى زوجها الرسول ، فما يسير الا وطيف منها يتبعه ، وما يسرى الا وسنى مشرق منها يملأ دنياه .

وستدخل بعدها فى حياة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، نساء ذوات عدد ، لكن مكانها من قلبه وفى دنياه ، سيظل أبدا خالصا لهذه الزوج الأولى ، والحبيبة الرءوم التى انفردت ببيت رجلها ربع قرن من الزمان [1] لم تشركها فيه أخرى ، ولا لاح فى أفقه ظل من زوجة سواها ..

وتفد على هذا البيت بعدها زوجات أخريات ، فيهن ذوات الصبا والجمال ، والحسب والجاه ، ولكن واحدة منهن لن تستطيع أن تزحزح « خديجة » عن مكانها هناك ، ولن تفلح فى ابعاد طيفها الذى أقام أبدا يحوم حول الحبيب ويستأثر بإعزازه ما عاش ..

وستشهده « المدينة » بعد أعوام عندما انتصر فى « بدر » يتلقى فداء الأسرى من قريش ، فلا يكاد يلمح قلادة لخديجة بعثت بها ابنتها « زينب » فى فداء زوجها الأسير « أبى العاص بن الربيع » حتى يرق قلب البطل الرسول من شجو وشجن ، ويسأل أتباعه الظافرين ، فى أن يردوا على « زينب » قلادتها ويفكوا أسيرها [2]

وسيشهد بيت النبى « عائشة بنت أبى بكر » فى عزة صباها ونضرة شبابها وحظوتها بحب المصطفى ، تشغلها الغيرة من تلك الضرة التى سبقتها الى قلب زوجها واستأثرت به وحدها حتى يومها الأخير ، ثم ظلت بعد موتها حيث كانت من قلبه : أقبلت « هالة » ـــ أخت خديجة ـــ

---

(1) انظر الاصابة : جـ ٨ والسمط ١٧ .

(2) ابن هشام : السيرة ٢٠٧/٢ ـ ولحديث القلادة فصل خاص فى كتاب « بنات النبى »

لزيارة المدينة ، وسمع محمد ، عليه الصلاة والسلام ، صوتها فى فناء بيته ، وكان يشبه صوت العزيزة الراحلة ، فهتف خافق القلب :

ـ اللهم هالة ! ..

فما ملكت « عائشة » نفسها أن قالت :

« ما تذكر من عجوز من عجائز قريش ، حمراء الشدقين ، هلكت فى الدهر ، أبدلك الله خيرا منها ؟ ! » (١)

فتغير وجهه عليه الصلاة والسلام وزجر عائشة غاضبا :

« والله ما أبدلنى خيرا منها : آمنت بى حين كفر الناس ، وصدقتنى اذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها اذ حرمنى الناس ، ورزقنى منها الله الولد دون غيرها من النساء » (٢)

فأمسكت « عائشة » وهى تقول فى نفسها :

« والله لا أذكرها بعدها أبدا » ..

وكانت قبل ذاك ، لا تكف عن الكلام فيها ! ..

قالت له يوما وقد ألفته لا ينقطع عن ذكرها :

« كأن لم يكن فى الدنيا امرأة الا خديجة ! » ..

فرد عليها صلى الله عليه وسلم :

ـ ... انها كانت وكانت ، وكان لى منها ولد ...

ورأته صلى الله عليه وسلم اذا ذبح الشاة يقول : أرسلوا الى أصدقاء خديجة . فحدثته فى ذلك مرة ، فقال : انى لأحب حبيبها ! (٣)

وطالما سمعت عائشة رضى الله عنها تقول :

« ما حسدت امرأة ما حسدت خديجة ، وما تزوجنى رسول الله صلى الله عليه وسلم الا بعد ما ماتت » (٤)

أو تقول :

« ما غِرتُ من امرأة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما غِرتُ من

---

(١) المحب الطبرى ، السمط الثمين ١٥

(٢،٣) السمط الثمين : ٢٦ والاستيعاب : ١٨٢٤/٤

(٤) المرجع نفسه : ص ٢٤

خديجة ، لما كنت أسمع من ذكره لها . وما تزوجنى الا بعد موتها بثلاث سنين » (١)

***

وحتى يوم الفتح ـ وقد مضى على وفاة خديجة أكثر من عشر سنين حافلة بأجل الأحداث ـ يختار رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانا الى جوار القبر الذى ثوت فيه زوجه الأولى ، ليشرف منه على فتح «مكة» وليقيم فى قبة ضربت له هناك (٢) ، تؤنسه روح « خديجة » ثم تصحبه من بعد الفتح وهو يطوف بالكعبة ويحطم الأصنام ، ملتفتا بين آونة وأخرى الى بيتها العزيز ، حيث رشف محمد من نبع الحب والحنان ما تزود به لذاك الكفاح المضنى الطويل ..

وستدخل فى الإسلام من بعد « خديجة » ملايين النســاء ، لكنها ستظل منفردة دونهن بلقب المسلمة الأولى التى آثرها الله بالدور الأجل فى حياة البطل الرسول . وسيذكر لها المؤرخون ، المسلمون منهم وغير المسلمين ، ذلك الدور ، فيقول « بودلى » :

« ان ثقتها فى الرجل الذى تزوجته ـ لأنها أحبته ـ كانت تضفى جوا من الثقة على المراحل الأولى للعقيدة التى يدين بها اليوم واحد فى كل سبعة من سكان العالم » (٣)

ويؤرخ « مرجيلوث » حياة محمد ـ رسولا ـ باليوم الذى لقى فيه خديجة « ومدت يدها اليه تقديرا » . كما يؤرخ حادث هجرته الى « يثرب » باليوم الذى خلت فيه « مكة » من « خديجة » ورقدت تحت الثرى ..

ويطيل « درمنجم » (٤) الحديث عن موقف « خديجة » حين جاءها زوجها من غار حراء « خائفا مقرورا أشعث الشعر واللحية ، غريب النظرات .. فاذا بها ترد اليه السكينة والأمن ، وتسبغ عليه ود الحبيبة

---

(١) السمط الثمين ص ٢٤ ـ والاستيعاب : ١٨٢٢/٤
(٢) تاريخ الطبرى ـ حوادث السنة الثامنة للهجرة ، عام الفتح
(٣) بودلى : الرسول . الترجمة العربية لمحمد فرج وعبد الحميد السحار
(٤) درمنجم : حياة محمد ـ ص ٥٨ من الترجمة العربية للاستاذ عادل زعيتر

واخلاص الزوجة وحنـان الأمهات ، وتضمه الى صـدرها فيجد فيه حضن الأم يحتمى به من كل عدوان فى الدنيا » ..

وكتب عن وفاتها :

« .. فقد محمـد بوفاة خديجة تلك التى كانت أول من علم أمره فصدقته ، تلك التى لم تكف عن القاء السكينة فى قلبه .. تلك التى ظلت ما عاشت تشمله بحب الزوجات وحنان الأمهات » ..

ودرمنجم هنا ، يدرك ماغاب عن كثير من قومه المستشرقين الذين فاتهم أن يقدروا حاجة الشاب اليتيم الى الأمومة ، حين تحدثوا عن زواجه بالأرملة الموسرة : فمرجيلوث يجعل لمال خديجة المكان الأول فى زواج كهذا « بين شاب فقير، وأرملة كهذه كهلة مات عنها زوجان من بنى مخزوم وتركا لها ثروة ذات شأن» ثم يمضى فيكتب ، بكلمات تقطر سما وحقدا :

« ان دعوة خديجة جاءت محمدا وهو يجتر كلمات مريرة سمعها من عمه أبى طالب حين خطب اليه ابنته أم هانىء ، فرده لفقره وزوجها لذى مال ، واستشعر محمد ذلة الفقر ومهانته ، فما كاد يسمع عن رغبة خديجة فى الزواج منه حتى أقبل متلهفا على الثراء ، يداوى به جرح كرامته التى أهدرها فقره » (١)

وكذب « مرجيـلوث » فما كان مال « خديجة » هو الذى جذب « محمدا » وجعله يتجاوز عما بينه وبينها من فرق السن ، وانما وجد فيها كما شـهد « بلاشـير » فى كتابه : Le problème de Mohamed تلك الرقة المتناهية والحنان الغامر ..

وكان ما بينهما من فرق السن ، كافيـا وحده لأن يروى ظمأه الى حنان الأمومة التى افتقدها منذ كان طفلا فى السادسة ، وظل على الأيام يجد لذعة الحرمان منها مرة المذاق ..

وأعجب من قول « مرجيلوث » هـذا ، ما تحدث به « موير » عما

(١) راجع فى أمر هذه الخطبة : طبقات ابن سعد ، السمط الثمين ١٢٤ .

وراء وفاء محمد لخديجة من تهيب لمركزها المالي والاجتماعى ، وخوف من أن تطالبه بالطلاق !

وكان على « موير » أن يفسر لنا : فيم اذن كان وفاء الرسول لخديجة بعد موتها ؟ .. وهل كان صلى الله عليه وسلم يخاف أن تطالبه بالطلاق ، وهو يخاصم « عائشة » فيها بعد وفاتها بسنين ، ويأبى عليها أن تمس ذكراها ؟ ! ..

لقد كانت « خديجة » ملء حياة الرسول حية وميتة ، وما جاوزت « عائشة » الحق حين قالت لزوجها الرسول : « كأن لم يكن فى الدنيا امرأة سواها » ..

وهل كان باستطاعة امرأة سواها أن تأسو جرحه القديم الغائر الذى تركه فى أعماقه موت أمه بين يديه ! ؟

هل كان لأنثى غيرها ، أن تهيىء له الجو المسعف على التأمل ، وأن تبذل له من نفسها ــ فى ايثار نادر ــ ما أعده لتلقى رسالة الله ؟

هل كان لزوجة عداها ، أن تستقبل عودته التاريخية من غار « حراء » ، بمثل ما استقبلته هى به من حنان مستثار وعطف فياض وايمان قوى ، دون أن يساورها فى صدقه أدنى ريب ، أو يتخلى عنها يقينها فى ان الله غير مخزيه أبدا ! ؟ ..

هل كان فى طاقة سيدة غير خديجة ، غنية مترفة منعمة ، أن تتخلى راضية عن كل ما ألفت من راحة ورخاء ونعمة ، لتقف الى جانب رجلها فى أحلك أوقات المحنة ، وتعينه على احتمال أفدح ألوان الأذى وصنوف الاضطهاد ، فى سبيل ما تؤمن بأنه الحق ؟ ..

كلا .. بل هى وحدها التى أعدتها الأقدار لتملأ حياة الرجل الموعود بالنبوة ، وتكون لليتيم أما وللبطل ملهمة ، وللمناضل ملاذا وسكنا ، وللنبى المبعوث نبع ثقة وطمأنينة سلام ..

قال ابن اسحق (١) : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يسمع

---

(١) فى السيرة ــ وانظر السمط الثمين : ٢٣

شيئا يكرهه من رد عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك ، الا فرج الله عنه بخديجة رضى الله عنهـا : اذا رجع اليها تثبته وتخفف عنه ، وتصـدقه وتهون عليه أمر الناس ، حتى ماتت رضى الله عنها » ..

***

وتركت الراحلة من بعدها ، بناتها الأربع ملء حيـاة أبيهن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وملء التاريخ الاسلامى . وقد أفردت لهن كتابى عن « بنات النبى » وفيه تفصـيل ما أجملت هنا عن أمومة السيـدة خديجة ، أم المؤمنين الأولى ..

أما ولدها « هند بن أبى هالة » ربيب الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد شهد « يوم أُحُد » وقيل انه شهد بدرا كذلك . كما شهد يوم الجمل مع على بن أبى طالب كرم الله وجهه . وفى رواية انه مات يومئـذ ، ويقال بل مات بالبصرة فى الطاعون فازدحم الناس على جنازته وتركوا جنائزهم وقالوا : مات أخو فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم (١)

---

(١) الاستيعاب : ٤/١٥٤٥ ، وجمهرة أنساب العرب «١٩٩» وقد تزوجت بنت خديجة – من عتيق بن عائذ – فى بنى مخزوم . وكان يقـال لولدها محمد بن عتيق بن أمية المخزومى : ابن الطاهرة ، بعنوان جدته لأمـه : خديجة بنت خـويلد « انظـر نسب قريش : ٢٤ – والاصابة رقم ٧٢ » .

الفصل الثالث

# سودة بنت زمعة
## أرملة المهاجر

« والله ما بى على الأزواج من حرص ،
لكنى أحب أن يبعثنى الله يوم القيامة
زوجا للرسول صلى الله عليه وسلم »

سودة ، أم المؤمنين

# وحشة

الأيام تمضى ثقيلات الخطو مرهقات بأعباء الجهاد ، والليالى طويلات مسهدات ، مشحونة بالذكريات ، ومحمد صلى الله عليه وسلم فى وحدته بعد خديجة : أم العيـال وربة البيت ووزيره فى الإسلام والشريكة فى الجهاد ، يخلو الى نفسه كلما أجهده ما يلقى من قومه ، مع طيف التى ملأت دنياه

والصـحابة يرقبون آثار الحزن على نبيهم فيشفقون عليه من تلك الوحدة ، ويودون لو تزوج ، لعل فى الزواج ما يؤنس وحشته بعد « أم المؤمنين » الراحلة ..

لكن واحدا منهم لم يجرؤ على التحدث الى الرسول ابان حداده ، فى موضوع الزواج ، فلما انتهت أيام الحداد ، كانت « خولة بنت حكيم السلمية » (١) هى التى سعت اليه ذات مساء متلطفة مترفقة ، تقول : « يارسول الله ، كأنى أراك قد دخلتك خلة لفقد خديجة ! »

قال : « أجل ، كانت أم العيال وربة البيت »

فتشاغلت « خولة » بالنظر الى بعيد ، ثم أقبلت على المصـطفى فاقترحت عليه فجأة أن يتزوج ! ..

وأطرق عليه الصلاة والسلام صامتا ، يصغى الى وجيب قلبه العامر بذكرى الراحلة ، ويتذكر « نفيسة بنت منية » حين جاءته منذ بضع وعشرين سنة ، تحدثه فى الزواج وتعرض عليه «خديجة بنت خويلد» !

ثم آب الى محدثته وسألها فى نبرة عتاب :

ــ مَن . . . بعد خديجة ؟

فردت « خولة » على الفور ، كأنما انتظرت هذا السؤال وأعدت له الجواب : « عائشة .. بنت أحب الناس اليك » ! (٢)

---

(١) تاريخ الطبرى : ١٧٥/٣ والسمط الثمين : ١٠٣

(٢) تاريخ الطبرى : ١٧٥/٣ .

وتفتح قلب الرسول حين ذكر صاحبه : أول رجل صدقه وآمن به بعد ابن عمه على ، ومولاه زيد ، ثم وقف الى جانبه من اللحظة الأولى ، باذلا من ماله ونفسه أغلى ما يبذل أخ وصاحب وصديق (١)

وذكر الرسول مع « أبى بكر » ابنته عائشة ، تلك الصبية اللطيفة الذكية ، التى طالما آنسته بمرحها ولطفها ، واستثارت فيه أحلى مشاعر الأبوة ..

ولم يستطع أن يقول لخولة : لا ...

ولو حاول أن يقولها ، لما طاوعه لسانه !

أيرفض بنت أبى بكر ؟ ..

تأبى عليه ذلك صحبة طويلة صادقة ، ومكانة لأبى بكر عندد لم يظفر بها سواه ، وأنس الى تلك الصغيرة العزيزة ، الذكية الملامح ، اللطيفة المحيا ..

ــ لكنها ما تزال صغيرة يا خولة ..

وكان رد « خولة » حاضرا :

ــ تخطبها اليوم الى أبيها ، ثم تنتظر حتى تنضج ..

حتى تنضج ؟ ..

لكن ، من للبيت يرعى شئونه ومن لبنات الرسول يخدمهن ؟ ..

وهل جاءت « خولة » لتعرض زواجا آجلا ، لن يتم قبل سنتين أو ثلاث ؟ ..

كلا ، بل جاءت وفى خاطرها اثنتان ، احداهما بكر وهى « عائشة بنت أبى بكر » .. والأخرى ثيب ، هى « سودة بنت زمعة بن قيس ابن عبد شمس بن عبد ودّ العامرية » (٢) وأمها « الشموس بنت قيس » من بنى عدى بن النجار (٣)

وأذن لها الرسول فى خطبتهما ، فمرت أولا ببيت « أبى بكر » ثم

---

(١) ابن هشام : السيرة ١/٢٦٦ ، ٢٦٧

(٢) من بنى عامر بن لؤى ــ انظر نسب قريش « ٤٢١ » وجمهرة الانساب « ١٥٧ » ذخائر

(٣) فى السيرة ١/٣٥٢ والاستيعاب : ٤/١٨٦٧ أن الشموس بنت قيس بن زيد بن عمرو ــ والذى فى نسب قريش « ٤٢٢ » وجمهرة انساب العرب « ١٥٨ » انها بنت قيس بن عمرو بن زيد

جاءت بيت « زمعة » فدخلت على ابنته « سودة » تقول : [١]

ـ ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة ياسودة ؟ ..

فسألت « سودة » وهى لا تدرى مرادها :

ـ وماذا ياخولة ؟ ..

قالت :

ـ أرسلنى رسول الله أخطبك عليه ! ..

وجاهدت « سودة » لتملك نفسها من فرط العجب والدهشة ، ثم قالت فى صوت مرتجف :

ـ وددتُ ! .. ادخلى على أبى فاذكرى له ذلك ..

فدخلت «خولة» عليه وهو شيخ كبير تخلف عن الحج مع قومه ، فحيته بتحية الجاهلية ، ثم قالت :

ـ ان محمد بن عبد الله بن عبد المطلب أرسلنى أخطب عليه سودة .

فصاح الشيخ :

ـ كفء كريم ، فماذا تقول صاحبته ؟ ..

أجابته خولة :

ـ تحب ذاك ..

فسألها أن تدعوها اليه ، فلما جاءت تلقاها قائلا :

ـ أى سودة ، زعمتْ هـذه ان محمـد بن عبد الله بن عبد المطلب أرسل يخطبك ، وهو كفء كريم ، أفتحبين أن أزوجكه ؟ ..

فلم تقل الا كلمة واحدة :

ـ نعم [٢] ..

وهنا أشار « زمعة بن قيس » الى خولة أن تدعو اليه « محمدا » ، فقامت تدعوه للزواج ..

---

(١) السمط الثمين ـ ١٠٢ ـ وتاريخ الطبرى ١٧٦/٣

(٢) الحوار بنصه منقول من تاريخ الطبرى : ١٧٦/٢

# بعد اغتراب وترمل

وشاع فى « مكة » أن الرسول قد خطب « سودة بنت زمعة » فكاد ناس لايصدقون سمعهم ، فما فى مثل « سودة » مأرب ، وتساءلوا فى ارتياب : أرملة ، مسنة ، غير ذات جمال ، تخلف «خديجة بنت خويلد» التى كانت يوم خطبها الشاب اليتيم الفقير ، سيدة نساء قريش ، ومطمح أنظار السادة من قريش ؟ ..

كلا ، لن تخلف « سودة » أو سواها « خديجة » وانما تجىء الى بيت الرسول جبرا لخاطرها ، وعزاء لها عن زوجها ابن عمها : « السكران ابن عمرو » من بنى عامر بن لؤى ، ذاك الذى هاجر بها فيمن هاجر الى الحبشة (١) ثم مات عنها مهاجرا فى الغربة (٢)

وترك أرملته من بعده ، قد أسلمتها محنة الاغتراب الى محنة الترمل

وذكر رسول الله أولئك النفر الثمانية من بنى عامر ، يخرجون من ديارهم وأموالهم مع مهاجرة الحبشة ، ويجوزون القفر المرهوب ثم يركبون أهوال البحر ، لينجوا بدينهم من مطاردة مجنونة آثمة ، تحاول أن تردهم قسرا الى متاهة الضلال ومهواة الشرك ..

من هؤلاء النفر الثمانية ، كان « مالك بن زمعة بن قيس بن عبد شمس العامرى » أخو سودة ، و « السكران بن عمرو بن عبد شمس » زوجها وابن عمها ، وأخواه « سليط وحاطب ولدا عمرو بن عبد شمس » وابن أخيه « عبد الله بن سهيل بن عمرو » (٣)

وصحب ثلاثة من الثمانية زوجاتهم ، وكلهن عامريات : سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس ، وأم كلثوم بنت سهيل بن عمرو بن عبد

---

(١) ابن هشام ٦٥٢/١ - والسمط الثمين ١٠١ - وانظر الاصابة لابن حجر ٨ - وراجع معه تاريخ الطبرى : ١٥٧/٢

(٢) جمهرة أنساب العرب ١٥٧

(٣) ابن هشام : السيرة : ٣٥٢/١ ، وانظر معه تاريخ الطبرى : ٢٢٢/٢

شمس ، وعمرة بنت الوقدان بن عبد شمس [١]

وهكذا خرجت الأسرة المؤمنة ، برجالها ونسائها ، من دارها ووطنها ، راضية بما هو أقسى من الموت ، فى سبيل الله

وتمثل المصطفى « سـودة » وهى تودع أرضـا عزيزة حملت بها تمائمها وازدهر فيها صباها واطمأنت على أرضها كهولتها ، ثم تمضى الى بلد مجهول ، وناس لا هى منهم ولا هم منها ، لسانهم غير عربى ، ودينهم غير الاسلام ، وقبل أن تثوب من غربتها ، وتهبط « أم القرى » فاضت روح زوجها « السكران بن عمرو » .. لم يمهله الموت ريثما يعود كيما يدفن فى ثرى مكة ، مرقد من مضوا من الأهل والخلان [٢]

وتأثر صلى الله عليه وسلم للمهاجرة المؤمنة المترملة أيما تأثر ، فما كادت « خولة بنت حكيم » تذكرها له ، حتى مد يده الرحيمة اليها يسند شيخوختها ، ويهون عليها الذى ذاقت من قسوة الدنيا ..

---

(١) ابن هشام : السيرة ٣٥٢/١ ـ وتاريخ الطبرى ج ٢

(٢) اتفقت الرواية فى جمهرة الانساب «١٥٧» وتاريخ الطبرى «١٧٢/٣» على ان السكران مات بأرض الحبشة ، وفى الاولى انه مات هناك مهاجرا ، وفى الطبرى أنه تنصر ومات بها . والذى فى السيرة «٨/٢» آنه مات بمكة قبل هجرة الرسول ، ولم يشر قط الى تنصره . واقتصر فى نسب قريش «٢٢٤» على أنه هلك عن سـودة · وكذلك جاء الخبر عنه فى « الاستيعاب ١٨٦٧/٤ » مقتضبا .

# وهبت ليلتى لعائشة

وأصبحت « سودة » ذات يوم ، فاذا هى زوجة لرسول الله المبعوث بدين الاسلام ..

وداخلتها رهبة من جلال زوجها ، وقاست نفسها اليه صلى الله عليه وسلم ، ثم الى « خديجة » الزوج الأولى ، ثم الى « عائشة » العروس الصبية المنتظرة ، فأحست كأن الأرض تميد بها من فرط دهشتها وعجبها !

ولم تخدعها نفسها قط ، بل أدركت بتجربة سنها أن بينها وبين قلب « محمد » ــ صلى الله عليه وسلم ــ حاجزا لا سبيل الى اقتحامه ..

وعرفت من اللحظة الأولى التى جمعتها بزوجها ، أن المصطفى هو الذى تزوجها ، لا « الرجل » الذى لم تجرده النبوة من بشريته ..
وأيقنت دون ريب ، ان حظها من الرسول بر ورحمة ، لا حب وتآلف وامتزاج ..
لكن ذلك لم يرعها ، بل كان حسبها أن رفعها رسول الله الى تلك المكانة ، وأن جعل منها ــ أرملة السكران بن عمرو ــ أما للمؤمنين ..
وأرضاها كل الرضا أن تأخذ مكانها فى بيت رسول الله ، وأن تخدم بناته ..
وكان يسعدها أن تراه صلى الله عليه وسلم يضحك من مشيتها ــ وكانت ثقيلة الجسم (١) ــ وأن يأنس أحيانا الى خفة روحها أو يستملح عبارة من عباراتها ..
قالت له مرة :
« صليت خلفك الليلة يارسول الله ، فركعتَ بى حتى أمسكتُ بأنفى مخافة أن يقطر الدم ! »
فتبسم عليه الصلاة والسلام ضاحكا من قولها ..

---

(١) الاستيعاب : ١٨٦٧/٤

وكانت فيها طيبة توشك أن تكون سذاجة . روى « ابن اسحاق » :

« قَدِم بأسرى بدر ، وسودة بنت زمعة زوج النبى صلى الله عليه وسلم عند آل عفراء ، فى مناحتهم على عوف ومعوذ ابنى عفراء ، وذلك قبل أن يضرب على أمهات المؤمنين الحجاب ..

« قال : تقول سودة : والله انى لعندهم اذ قيل : هؤلاء الأسارى قد أُتِىَ بهم . فرجعت الى بيتى ورسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ، واذا أبو يزيد ، سهيل بن عمرو — أخو السكران بن عمرو — فى ناحية الحجرة ، مجموعة يداه الى عنقه بحبل ، فلا والله ما ملكت نفسى ، حين رأيت أبا يزيد كذلك ، أن قلت :

— أى أبا يزيد ، أعطيتم بأيديكم ، ألا متم كراما ؟

فوالله ما أنبهنى الا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم من البيت :

— ياسودة ، أعلى الله ورسوله تحرضين ؟ ..

قلت :

— يارسول الله ، والذى بعثك بالحق ، ما ملكت نفسى حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه الى عنقه ، أن قلت ما قلت ! » (١)

***

ظلت « سودة » تقوم على بيت الرسول حتى جاءت « عائشة بنت أبى بكر » فأفسحت لها « سودة » المكان الأول فى البيت ، وحرصت جهدها على أن تتحرى مرضاة العروس الشابة ، وأن تسهر على راحتها

ثم وفدت على بيت الرسول زوجات أخريات ، فيهن حفصة بنت عمر ، وزينب بنت جحش ، وأم سلمة بنت أبى أمية المخزومى زاد الركب ، فما ترددت سودة فى ايثار عائشة ، زوج الرسول الشابة ، باخلاصها ومودتها ، وان لم تظهر ضيقا بغيرها من الأزواج اللائى يستأثرن دونها بعواطف الزوج الرسول

لكنه صلى الله عليه وسلم ، أشفق عليها من الحرمان العاطفى ، وكره لها قسوة الشعور بأنها ليست مثل الأخريات ، وحاول جهد طاقته أن

---

(١) ابن هشام ، السيرة : ٢/٢٩٩

يفتح لها قلبه ، لكن بشريته لم تطاوعه ، فكان أقصى ما استطاعه لسودة ، أن يعدل بينها وبين نسائه فيما يملك من مبيت ونفقة ، أما عواطفه فأنى له ــ وهو بشر ــ أن يقسرها على غير ما تهوى ، أو يخضعها بإرادته لموازين العدل وضوابط القسمة ! ..

وبدا له آخر الأمر أن يسرحها سراحا جميلا كيما يعفيها من وضع أحسَّ أنه يؤذيها ويجرح قلبها ، وان لم تبد منهـا بادرة شكوى أو ضيق . وما ساورته هذه الرغبة المنبعثة عن رحمة ورثاء ، حتى عزم على مكاشفة « سودة » بما رآه لها . فانتظر صـلى الله عليه وسلم الى أن جاءت ليلتها ، فأنبأها مترفقا بعزمه على طلاقها (١)

وسمعت النبأ واجمة ، وأحست كأن الجدران تطبق على صدرها فلا تدع لها متنفسا ، فرفعت وجهها الى المصطفى فى ضراعة صامتة ، ومدت يدها مستنجدة ، فأمسك بها رسول الله حانيا مشفقا ، وبوده لو استطاع أن يذهب عنها الروع الذى بغتها

وآبت اليها سكينتها فهمست فى ضراعة :

ــ أمسكنى ، ووالله ما بى على الأزواج من حرص ، ولكنى أحب أن يبعثنى الله يوم القيامة زوجا لك (٢) .

ثم أطرقت محزونة ، وقد عزَّ عليها أن تحمله صلى الله عليه وسلم على ما يكره ، وأنكرت على نفسها ألا تستجيب لرغبته فى تسريحها وهى التى تهب حياتها راضية لكى تتحري رضاه ..

وأحست برودة الشيخوخة تناوش جسدها الكليل الثقيل ، فخجلت من تشبثها بزوج تتنافس على حبه عائشة بنت أبى بكر ، وزينب بنت جحش ، وأم سلمة بنت زاد الركب ، وحفصة بنت عمر ! .. وأنكرت أن تنتزع لنفسها بين هؤلاء مكانا ، بل شعرت انها اذ تأخـذ ليلتهـا مثلهن ، كأنما تأخذ ما لا حق لها فيه ! ..

---

(١) فى رواية اخرى نقلها ابن حجر فى الاصابة ١١٧/٨ ــ انه صلى الله عليه وسلم بعث اليها بطلاقها ، « فقعدت على طريقه ، فناشدته أن يرجعها ، وجعلت يومها وليلتها لعائشة ، ففعل ..

(٢) ابن حجر ، الاصابة : ١١٧/٨

وهمت بأن تجيب فى قهر وعلى استحياء :

ـ سرحنى يا رسول الله !

لـكن الـكلمات تعثرت فى حلقها ...

وطال عذابها ، وطالت حيرتها ...

وفجأة خطر لها خاطر سكنت له نفسها ، فرنت الى المصطفى وقالت فى هدوء :

ـ أبقنى يارسول الله ، وأهب ليلتى لعائشة ، وانى لا أريد ما تريد النساء (١)

فاهتز « محمد » صلى الله عليه وسلم تأثرا بهذه العاطفة الفياضـة وذاك الإيثار السمح الكريم ، وراعه أن يأتى سودة ليسمعها كلمة الطلاق ـ وما أبغضها ! ـ فيكون جوابها هذا الايثار النبيل ، تتحرى به مرضاة الزوج الكريم (٢)

وانجابت ظلمة الليل ، فخرج محمد الى المسجد لصلاة الفجر، وقامت « سودة بنت زمعة » فى مخدعها تصلى ، وقلبها عامر بالرضى والايمان !

***

فلندعها فى صلاتها راضية مطمئنة ، شاكرة لله أن ألهمها هذا الحل الموفق ، تنجو به من محنة فراقها لخير خلق الله ، دون أن تستشعر الخزى بالحرص على الأزواج فى مثل سنها العالية !

ولقد عاشت فى بيت الرسول حتى لحق صلى الله عليه وسلم بربه ، وفى الخبر أنها عمرت حتى « توفيت فى آخر زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه » وقد ظلت أم المؤمنين عائشة ، تذكر لها صنيعها ، وتؤثرها بجميل الوفاء ، فتقول : « ما من الناس أحد أحب الىّ من أن أكون فى مسلاخه من سودة بنت زمعة ، الا أن بها حِدة » (٣)

---

(١) الاصابة : ١١٧/٨ والاستيعاب : ١٨٦٧/٤ ـ وصحيح مسلم ـ وانظر السمط الثمين ، ص ١٠٣ ـ ويقال انها قد اشرفت يومئذ على المائة من عمرها !

(٢) السمط الثمين : ص ٧

(٣) الاستيعاب : ١٨٦٧/٤ .

الفصل الرابع

# عائشة بنت أبي بكر

## حبيبة المصطفى

« أى بنية ، خفضى عليك الشأن ..
فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عند
زوج يحبها ، لها ضرائر ، إلا
كثرن وكثر الناس عليها »

« أم رومان »
والدة عائشة

# الصهر الكريم

ونعود الى حيث تركنا « خولة بنت حكيم » تقترح على المصطفى أن يتزوج عائشة بنت أبى بكر ، فيتفتح قلبه صلى الله عليه وسلم لصلة تؤيد ما بينه وبين أحب النـــاس اليه من صحبة وقربى ، وتربطهما معا برباط المصاهرة الوثيق ..

وأدع « لخولة » الحديث عن مسعاها فى هــذه الخطبة فتقول فيما نقل الطبرى المؤرخ : (١)

« دخلت بيت أبى بكر فوجدت « أم رومان » أم عائشة ، فقلت لها :

ــ أى أم رومان ، ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة !

قالت :

ــ وما ذاك ؟ ..

أجبت :

ــ أرسلنى رسول الله أخطب له عائشة ! ..

فقالت :

ــ وددتُ ، انتظرى أبا بكر فإنه آت ..

وجاء أبو بكر فقلت له :

ــ يا أبا بكر ، ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة ! أرســلنى رسول الله أخطب عائشة ..

قال وقد ذكر موضعه من الرسول عليه الصلاة والسلام :

ــ وهل تصلح له ؟ .. انما هى ابنة أخيه ..

فرجعت الى رسول الله فقلت له ذلك ، فقال :

ــ ارجعى اليه فقولى : أنت أخى فى الاسلام ، وأنا أخوك ، وابنتك تصلح لى ..

---

(١) تاريخ الطبرى ١٧٦/٣ ــ وانظر معه المحب الطبرى فى السمط الثمين ص ٢١

فأتيت أبا بكر فذكرت له فقال :

ــ انتظرينى حتى أرجع ...

وقالت « أم رومان » تجلو الموقف للخاطبة :

ــ ان المطعم بن عدى كان قد ذكر عائشة على ابنه « جبير » ولا والله ما وعد أبو بكر شيئا قط فأخلف ..

فدخل أبو بكر على مطعم وعنده امرأته « أم جبير » ــ وكانت مشركة ــ فقالت العجوز :

ــ يا ابن أبى قحافة ، لعلنا ان زوّجنا ابننا ابنتك ، أن تصبئه وتدخله فى دينك الذى أنت عليه ؟ ! (١)

فلم يرد عليها « أبو بكر » بل التفت الى زوجها « المطعم » فقال :

ــ ما تقول هذه ؟ ..

أجاب :

ــ انها تقول ذلك ( الذى سمعت ) ..

فخرج « أبو بكر » وقد شعر بارتياح لما أحله الله من وعده ، وعاد الى بيته فقال لخولة :

ــ ادعى لى رسول الله ...

فمضت « خولة » الى الرسول عليه الصلاة والسلام فدعته ، فجاء بيت صديقه أبى بكر، فأنكحه عائشة وهى يومئذ بنت ست سنين أو سبع » (٢) وكان صداقها خمسمائة درهم ..

ولا يذكر التاريخ عنها إذ ذاك ، الا أنها بنت ست سنين أو سبع ، وأنها كانت قد خطبت لجبير بن المطعم بن عدى ، وأبوها أبو بكر بن قحافة بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة . وأمها أم رومان بنت عمير بن عامر ، من بنى الحارث بن غنم بن كنانة ..

وقد عُرف قوم عائشة ــ بنو تيم ــ بالكرم والشجاعة والأمانة

(١) المحب الطبرى : السمط الثمين ٢١
(٢) السيرة : ٢٩٢/٤ ــ وتاريخ الطبرى : ١٧٧/٢ ــ والاصابة جـ ٨

وسداد الرأى ، كما كانوا مضرب المثل فى البر بنسائهم والترفق بهن وحسن معاملتهن ..

ثم كان لأبيها الى جانب هذا الميراث الطيب ، شهرة ذائعة فى دماثة الخلق وحسن العشرة ولين الجانب . وأجمع مؤرخو الاسلام على أنه « كان أنسب قريش لقريش ، وأعلم الناس بها وبما كان فيها من خير وشر . وكان رجلا تاجرا ذا خلق معروف ، يأتيه رجال قومه ويألفونه لغير واحد من الأمر : لعلمه وخبرته وحسن مجالسته » (١)

فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم ، أضاف « أبو بكر » الى هذا كله مجدا جديدا ، فكان الرجل السابق الى الاسلام ، المناضل عنه بكل ما يملك ، الداعى اليه فى شجاعة وبسالة . ولمن شاء أن يرجع الى « سيرة ابن هشام ، وطبقات ابن سعد » ليقرأ أسماء من أسلم من الصحابة بفضل أبى بكر واستجابة لدعوته . وحسبنا أن نذكر منهم هنا : عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وطلحة بن عبيد الله ..

وكان رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول :

« ما دعوت أحدا الى الاسلام الا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد ، الا ما كان من أبى بكر بن قحافة ، ما عكم — أى ما تلبث — حين ذكرته له وما تردد فيه » (٢)

وسمع عليه الصلاة والسلام يقول :

« ما نفعنى مال قط ، ما نفعنا مال أبى بكر » . قيل فبكى «أبو بكر» وقال : يارسول الله ، وهل أنا ومالى الا لك ؟ »

***

وأم عائشة : أم رومان بنت عامر الكنانية ، (٣) من الصحابيات

---

(١) السيرة : ١/٢٦٧ — وانظر معه مناقب ابى بكر فى صحيح البخارى : ٢/٢٠٠

(٢) صحيح البخارى : ٢/٢٠٠ ط مصر

(٣) لا خلاف فى نسبها فى بنى مالك بن كنانة ، لكن الخلاف مابين ابيها الى كنانة كثيرا جدا كما صرح فى الاستيعاب « ٤/١٩٣٦ » راجع معه الاصابة ، ونسب قريش : ٢٧٦ وجمهرة انساب العرب : ١٢٧ — ذخائر

الجليلات . كانت قد تزوجت فى الجاهلية من عبد الله بن الحارث الأسدى، فولدت له الطفيل ، ثم توفى عنها فخلف عليها أبو بكر فولدت له عائشة وعبد الرحمن .

وهاجرت الى المدينة بعد أن استقر مقام الرسول وصاحبه بها ، فلما توفيت فى حياة الرسول ــ بعد حادث الإفك ــ نزل صلى الله عليه وسلم قبرها واستغفر لها وقال : « اللهم لم يخف عليك ما لقيت أم رومان فيك وفى رسولك » (١)

---

(١) لم يختلفوا فى وفاتها بعد حادث الافك ، ولكنهم اختلفوا فى تحديد سنة وفاتها .. راجع ترجمتها فى أسد الغابة ، والاصابة والاستيعاب .

## مالوفة

كان حسب « عائشة » أن تكون بنت الصاحب الصديق ، ليفتح لها المصطفى من دنياه موصد الأبواب .. لكنها كانت الى جانب هذه البنوة ذات لطف آسر وذكاء لماح وصبا غض نضير ..

وقد ولدت بمكة فى الاسلام ، بعد أربع سنين أو خمس من المبعث ، فلم يكفها أن تكون مسلمة بالبنوة لأب مسلم ، بل أسلمت قبل أن تشب عن الطوق هى وأختها أسماء ، وكان المسلمون اذ ذاك قلة معدودة (١)

وعرفها محمد ، صلى الله عليه وسلم ، منذ طفولتها الباكرة ، وأنزلها من نفسه أعز ما تنزل ابنة غالية ، وشاهدها تنمو بين عينيه ويتفتح صباها عن ملاحة أخاذة وبديهة حاضرة ، مع فصاحة فى اللسان ، وشجاعة فى القلب ، اذ كان الذى تولى حضانتها جماعة من بنى مخزوم . وبلغ من اعزاز الرسول لها أن كان بعد خطبته إياها ، يوصى بها أمها قائلا :

« يا أم رومان ، استوصى بعائشة خيرا واحفظينى فيها »

فاذا رآها يوما غاضبة ، وقف فى صفها وقال لأمها فى عتاب رقيق :

« يا أم رومان ، ألم أوصِكِ بعائشة أن تحفظينى فيها ؟ »

***

ولم تدهش « مكة » حين أعلن نبأ المصاهرة بين أعز صاحبين وأوفى صديقين ، بل استقبلته كما تستقبل أمرا طبيعيا مألوفا ومتوقعا . ولم يجد فيها أى رجل من أعداء المصطفى أنفسهم موضعا لمقال ، بل لم يدر بخلد واحد من خصومه الألداء ، أن يتخذ من زواج محمد صلى الله عليه وسلم بعائشة ، مطعنا أو منفذا للتجريح والاتهام ، وهم الذين لم يتركوا سبيلا للطعن عليه الا سلكوه ، ولو كان بهتانا وزورا ..

---

(١) الاصابة : ج ٨

وماذا كان عساهم أن يقولوا ؟ ..

هل ينكرون أن تخطب صبية كعائشة ، لم تتجاوز السابعة من عمرها على أبعد تقدير ؟ ..

لكنها قد ذكرت قبل أن يخطبها « محمد بن عبد الله » على « جبير ابن مطعم بن عدى » بحيث لم يستطع « أبو بكر » أن يعطى كلمته لخولة بنت حكيم ، حتى مضى فتحلل من وعده لأبى جبير ..

فهل ينكرون أن يكون زواج بين صبية فى سنها ، وبين رجل اكتهل وبلغ الثالثة والخمسين ؟ ..

وأى عجب فى مثل هذا ، وما كانت أول صبية تزف فى تلك البيئة الى رجل فى سن أبيها ، ولن تكون كذلك أخراهن ؟ لقد تزوج « عبد المطلب » الشيخ من « هالة » بنت عم « آمنة » فى اليوم الذى تزوج فيه عبد الله أصغر أبنائه ، من تِرب هالة : « آمنة بنت وهب » ..

وسيتزوج « عمر بن الخطاب » من بنت على بن أبى طالب ، وهو أسَنّ من أبيها ! ..

ويعرض « عمر » على « أبى بكر » أن يتزوج ابنته الشابة «حفصة» وبينهما من فارق السن مثل الذى بين المصطفى وعائشة ..

لكن نفرا من المستشرقين يأتون بعد نحو ألف وثلاثمائة عام من ذلك الزواج ، فيهدرون فروق العصر والاقليم ، ويطيلون القول فيما وصفوه بأنه « الجمع الغريب بين الزوج الكهل والطفلة الغريرة العذراء » ، ويقيسون بعين الهوى ، زواجا عقد فى مكة قبل الهجرة ، بما يحدث اليوم فى الغرب المتحضر ، حيث لا تتزوج الفتاة عادة قبل سن الخامسة والعشرين ، وهى سن تعتبر حتى وقتنا هذا جد متأخرة فى الجزيرة العربية ، بل فى ريف مصر وأكثر مناطق الشرق . وهو ما أدركه مستشرق منصف زار الجزيرة وعاد يقول :

« كانت عائشة على صغر سنها نامية ذلك النمو السريع الذى تنموه

نساء العرب ، والذى يسبب لهن الهرم فى أواخر السنين التى تعقب العشرين ..

« ولكن هذا الزواج شغل بعض مؤرخين لمحمد .. نظروا اليه من وجهة نظر المجتمع العصرى الذى يعيشون فيه ، فلم يقدروا أن زواجا مثل ذاك ، كان ولا يزال عادة أسيوية ، ولم يفكروا فى ان هذه العادة لا زالت قائمة فى شرق أوربا ، وكانت طبيعية فى اسبانيا والبرتغال الى سنين قليلة ، وانها ليست غير عادية اليوم ، فى بعض المناطق الجبلية البعيدة بالولايات المتحدة .. » (١)

(١) بودلى: الرسول — ص ١٢٩ من الترجمة العربية

# الهجرة

لم يرض « محمد صلى الله عليه وسلم » أن ينتزع الصبية اللطيفة المرحة من ملاهى حداثتها ، أو يثقل كاهلها الغض بأعباء الزوجية ومسئولياتها ، بل تركها حيث هى فى بيت أبيها ، تمرح لاهية مع لداتها وصواحبها وأترابها خلية البال ..

وكان كل حظه منها أن تسرع اليه كلما مر ببيت « أبى بكر » فتكاد تنسيه بلطفها وايناسها ، المشاغل الجسام التى تنتظره لدى الباب ، وتزيل عنه تلك الوحشة المضنية يستشعرها كلما أوى الى منزله وحيدا غريبا..

وحيدا ، وان كان فى عصمته « سودة بنت زمعة » تتفانى فى خدمته وتقوم على شئون داره وبناته ..

غريبا ، وان يكن مقيما فى « مكة » : مهد مولده ومنزل مبعثه وبلد آبائه وأجداده ، منذ ما لايحصى من الدهور والأحقاب ..

وطاب له أن يسعى الى بيت صاحبه « أبى بكر » كلما اشتدت عليه وطأة الشعور بالوحدة والغربة ، ليلاطف خطيبته الصغيرة ويغرق أشجانه فى فيض من دعابتها الذكية ومرحها الفياض ..

وطاب لعائشة أن ترى رسول الله بكل عظمته وجلاله ومهابته ووقاره ، يرتاح اليها ويأنس الى صحبتها ويجد فى عالمها المرح ما يجذبه اليه ، حيث يشاركها لهوها فى بساطة حلوة وألفة حبيبة ..

وازدهاها « ألا يخطىء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يأتى بيت أبى بكر أحد طرفى النهار ، اما بكرة واما عشية » (١)

وذات يوم ــ وقد بلغت محنة الاضطهاد أقصاها ، وخرج المسلمون عن مكة الى المدينة مهاجرين ، فلم يتخلف (٢) مع الرسول الا من حبس أو

(١) الاصابة جـ ٨ ــ والسيرة : ٢\١٢٨ (٢) ابن هشام : السيرة ــ ٢\ ١٢٣

فتن ، غير أبى بكر وعلى بن أبى طالب ــ علت شمس الضحى حتى توسطت كبد السماء ، وراحت تقذف الأرض بالحمم وتظللها بظلة من لهب ، وران على الكون ذلك الصمت المكدود والسكون اللاغب ، وكانت « عائشة » فى فناء الدار ، يأبى عليها مرح صباها أن تهجع القيلولة

وفجأة .. أحست خطوات تدنو من البـاب ، فأصغت فى لهفة وقد عرفت فيها خطوات زوجها العزيز ..

وبادرت الى الباب تفتحه مشوقة مرحبـة ، فما لمح « أبو بكر » شخص الرسول قريبا من الدار فى تلك الساعة من حر الهاجرة ، حتى وثب من مهجعه وهو يقول :

«ما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الساعة الا لأمر حدث »

فلما دخل الرسول تأخر له «أبو بكر» عن سريره ، فجلس عليه الصلاة والسلام ، يبدو عليه أنه مشغول البال بأمر جلل ، فأمسكت «عائشة» أنفاسها ، وكذلك فعلت أختها « أسماء » ، ووقفتا خاشعتين ترقبان ..

وتكلم الرسول فقال لصاحبه دون أن ينظر الى من فى الحجرة :

ــ أخرج عنى مَن عندك ! (١)

فأجاب الصديق :

ــ يارسول الله ، انما هما ابنتاى ..

ثم أضاف مستفسرا فى قلق :

ــ وما ذاك فداك أبى وأمى ؟

قال الرسول :

ــ قد أذن لى فى الخروج والهجرة ...

فهتف الصديق :

ــ الصحبة يارسول الله .. الصحبة !

وكان كثيرا ما يستأذن الرسول فى الهجرة فيقول له : (٢)

(١) ابن هشام : السيرة ــ ١٢٩/٢ وانظر تاريخ الطبرى ٢٤٥/٢
(٢) ابن هشام ــ السيرة : ١٢٨/٢

ـــ لا تعجل ، لعل الله يجعل لك صاحبا !

فيطمع فى أن يكونه ..

وتذاكر الصاحبان ما كان من غيظ قريش بعد بيعة العقبة ، « حين صارت لمحمد شيعة وأصحاب من غيرهم ، بغير بلدهم ، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين اليهم ، عرفوا أنهم قد نزلوا دارا وأصابوا ملاذا ، فحذروا خروج رسول الله اليهم ، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم ، فاجتمعوا فى دار الندوة ـــ وهى دار قصى بن كلاب التى كانت قريش لا تقضى أمرا الا فيها ـــ يتشاورون فيما يصنعون فى أمر الرسول .. (١)

وكان فيهم عتبة بن ربيعة ـــ أبو هند ـــ وشيبة أخوه ، وأبو سفيان ابن حرب ، وطعيمة بن عدى ، وجبير بن مطعم ، والنضر بن الحارث ابن كلدة ، وزمعة بن الأسود ، وأبو جهل بن هشام ، وحكيم بن خزام ، وأمية بن خلف ، وغيرهم ممن لا يعد من قريش ..

واستقروا آخر الأمر على رأى لأبى جهل بن هشام : أن تأخذ كل قبيلة فتى شابا جليدا نسيبا ، فيعطى كل فتى منهم سيفا صارما ، ثم يعمدوا الى محمد فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه ، فانهم اذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعا ، فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا ، فيرضوا منهم بالدية ! (٢)

وأذن الله لرسوله فى الهجرة ، واختار أبا بكر له صاحبا !

وأحست « عائشة » ضيقا وقلقا من الفراق الوشيك ، وتطلعت الى الرسول الحبيب ثم الى أبيها ، فما راعها الا أن رأته يبكى من الفرح .. وما شعرت قط ـــ فى سنها الغضة ـــ قبل اليوم أن أحدا يبكى من الفرح ، حتى رأت أباها يفعل يومئذ (٣)

***

وبدأ التأهب لرحيل عاجل :

(١) ابن هشام ، السيرة ١٢٤/٢ : ١٢٦ (٢) تاريخ الطبرى : ٢٤٣/٢
(٣) المرجع نفسه : ٢٤٦/٢

بعث « أبو بكر » يدعو اليه « عبد الله بن أريقط » ـ وكان دليلا ثقة ، خبيرا بمجاهل الطريق ـ فدفع اليه راحلتين يرعاهما لميعادهما الموقوت (١)

ودعا الرسول اليه ابن عمه « على بن أبى طالب » فأسر اليه النبأ الخطير ، ثم استخلفه بمكة ليؤدى عنه ودائع كانت عنده للناس (٢)

فلما حانت ساعة الرحيل ، وقف الرسول على مرتفع هناك ببيت أبى بكر ، فرنا الى « البيت العتيق » وقتا ، ثم أشرف على « أم القرى » فاستوعبها بنظرة آسية ، وقال يودعها :

« والله انك لأحب أرض الله الى الله ، وانك لأحب أرض الله الىّ ، ولولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت » ..

ثم استدار فنظر الى « عائشة » وحاول جهده أن يتبسم لها مودعا ، وقد أذهلها الفراق المفاجىء السريع فما درت أفى يقظة هى ، أم تلك رؤيا منام ؟ .

وتسلل الصاحبان من خوخة فى ظهر بيت أبى بكر ، وقد حمل الصديق معه خمسة آلاف درهم هى كل ما بقى له ولأهله من مال (٣) ، ثم انطلقا وما يعلم أحد فى « مكة » بخروجهما الا «على بن أبى طالب» وآل أبى بكر ..

وأخذ المهاجران طريقهما الى غار يعرفانه فى « جبل ثور » بأسفل مكة ، وبقيت « عائشة » فى الدار وحيدة قلقة ..

أما أخوها « عبد الله » فانطلق الى مجتمع البلدة ، يتسمع ما يقول الناس ..

وأما أختها « أسماء » فشغلت بتدبير طعام تحمله خفية الى الغار اذا جن المساء (٤)

وسمعت « عائشة » من أخيها « عبد الله » ان المشركين قد أحسوا

(١) و (٢) السيرة : ١٩٢/٢ ـ وتاريخ الطبرى : عام الهجرة
(٣) ابن هشام ، السيرة : ١٣٢/٢
(٤) ابن هشام ، السيرة : ١٣٠/٢ ، ١٣١

خروج الرسول ، وجعلوا مائة ناقة لمن يرده عليهم ..

وكادت نفسها تطير شعاعا ، لولا أن عصمها من اليأس ايمانها بأن الله مع رسوله ، فضلا عما كانت تسمع من حديث أخيها الى مولاهم « عامر ابن فهيرة » أن يرعى النهار فى رعيان أهل مكة ، فاذا أمسى أراح غنم أبى بكر على الغار !

وكانت مشغلة « عائشة » طول النهار أن تعد الدقائق وهى تمضى فى بطء كأنها أعوام ، مرهفة سمعها الى نبأ جديد ، فاذا ولى النهار واستعدت أختها « أسماء » لرحلتها المسائية ، حملتها «عائشة» تحياتها ودعواتها للراحلين العزيزين ، ثم وقفت تحدق فى الطريق مترقبة عودة « أسماء » وقلبها يذوب من لهفة وقلق ..

وتعود « أسماء » فتشرئب اليها عائشة فى لهفة ، وتجلس اليها لتسمع منها ما رأت من حال المهاجرِين الغاليين : زوجها المصطفى ، ووالدها أبى بكر .

وتحدثها « أسماء » عن مشقة الاقامة فى الغار ، وعما كان من حزن أبى بكر حين رأى الرسول فى ضـيق الغار مع فرقة الأهل ووحشة الغربة ، فقال :

« ان قُتِلتُ فانما أنا رجل واحد . وان قُتِلتَ أنت هلكت الأمة»

فيذهب الرسول عنه الخوف بقوله :

« لا تحزن ان الله معنا » [1]

وتظل « عائشة » تستعيد حديث أختها المرة بعد المرة ، حتى ينال منها الجهد والسهد ، فتستسلم عيناها للغمض ، وتحوم روحها حول الغار القريب ، مأوى أعز من لها فى الوجود ..

ومر اليوم الثانى يحمل أنباء جديدة عن خروج نفر من قريش لمطاردة محمد وصاحبه ، ثم حان المساء وتسللت « أسماء » خفية تحمل الزاد ، فلما عادت قصت على « عائشة » كيف أن المطاردين بلغوا الغار، وتلبثوا

---

(١) قرآن كريم : سورة التوبة ، من آية ٤٠

عنده برهة ، بل هموا بالنزول اليه ، لولا أن صدهم عنه نسيج من عنكبوت على وجه الغار ، وحمامتان وحشيتان وقعتا عليه !

وحدثتها عما كان من قلق أبيها حين أحس بالمطاردين يقفون على قيد خطوة منهما ويتشاورون فى اقتحام الغار ، فقال للرسول :

ـ لو أن أحدهم نظر الى قدمه لرآنا ..

فكان جوابه صلى الله عليه وسلم :

ـ ما ظنك باثنين ، الله ثالثهما ؟ !

***

فلما كانت الليلة الثالثة ، وقفت «عائشة» فى مرقبها اثر نهار مشحون بالقلق ، ترصد الطريق .. وطال بها الانتظار أكثر مما اعتادت ، وهى مرهفة الحواس تحدق فى غسق الدجى لعلها تلمح شخص « أسماء » ، وتتسمع بملء وعيها وانتباهها ، لعل هواء الليل يحمل اليها حسا من خطوات بعيدة ! ..

ومضى وهن من الليل وهى فى وقفتها تلك تذهب بها الظنون والهواجس كل مذهب ، حتى أقبلت « أسماء » أخيرا تسرى على عجل ، مضطربة الخطو متلاحقة الأنفاس ..

وجمّد القلق حركة « عائشة » ، فوقفت حيث هى ، تحدق فى نطاق « أسماء » الذى عادت به من رحلتها ممزقا ، قد غاب شِقٌّ منه !

ورحمتها « أسماء » فعجلت لها بنبأ خروجهما سالمين من الغار ، ثم انتظرت لحظة تسترد أنفاسها ، وأقبلت تحدث « عائشة » عما كان :

ففى هدأة المساء من تلك الليلة التاريخية الخالدة على الدهر ، والتى اختيرت ليبدأ بها التاريخ العربى ، جاء الدليل ، عبد الله بن أريقط البكرى ، يسوق الراحلتين اللتين أودعهما اياه أبو بكر منذ أيام ، وراحلة له ثالثة ، فأناخ عند فتحة الغار ، فخرج الرسول وصاحبه . وجاءت « أسماء » بطعامهما فى سفرة وقد فاتها أن تجعل للسفرة عصاما ، فلما همّا بالرحيل وأرادت أن تعلقها ، أعوزها العصام تربط به السفرة الى

الرحل ، فحلّت نطاقها فشقته نصفين ، علقت السفرة بأحدهما ، وانتطقت بالشق الآخر (١)

ونظر « أبو بكر » الى الراحلتين يفحصهما ، ثم اختار أفضلهما فقربها الى المصطفى قائلا : « اركب .. فداك أبى وأمى » ..

فركب صلى الله عليه وسلم ، ثم ركب « أبو بكر » وأردف خلفه مولاه « عامر بن فهيرة » ..

وسرى الركب من أسفل مكة ممعنا الى الجنوب فى طريق غير مطروق، ووقفت « أسماء » تتبعه ببصرها وقلبها حتى ابعد ، فعادت وحدها الى بيت أبيها ، وهى توجس خيفة من تنبه المطاردين ..

وغابت «عائشة» عما حولها ، ومضت تسرى بروحها فى أثر الراحلين، فما راعها الا طرقات عنيفة تلح على الباب ، فوقفت مكانها لا تملك حراكا ، وخرجت ذات النطاقين تلقى الطارقين بليل ، فاذا نفر من قريش — فيهم أبو جهل بن هشام — يسألونها فى غلظة :

« أين أبوك يا بنت أبى بكر ؟ »

أجابت :

« لا أدرى والله أين أبى ! »

وما كذبت ، فقد كان آخر عهدها بالرسول منطلقا من الغار ، ساريا فى مجاهل الفلاة ، الى حيث لا تدرى أين بلغ به سراه ..

فلم تشعر الا ويد « أبى جهل » ترتفع بغتة فتلطم خدها لطمة قاسية ، طرحت قرطها ! (٢)

ثم انصرفوا بغيظهم يتهددون ويتوعدون ...

***

ومضت أيام وليال ، لم يكن لمكة فيها من حديث الا عن تلك المطاردة العنيفة ، تعدو فيها قريش وراء المهاجر شبه أعزل ، وقد جنّ خوفها أن

---

(١) السيرة ٢\١٣١ والاصابة : جـ ٨ ـ وتاريخ الطبرى : ٢\٢٤٧

(٢) السيرة ٢\١٣٢ — وتاريخ الطبرى : ٢\٢٤٧

ينجو بدعوته الى حيث يغدو مطمئنا وما لها اليه من سبيل (١)

ونجا الرسول وصاحبه ..

وتضاربت الأنباء فى وجهته ، حتى جاء خبر من يثرب أن أتباع محمد هنـاك يخرجون اذا صلوا الصـبح الى ظاهر المدينـة منتظرين ، فما يبرحون مكانهم حتى تغلبهم الشمس على الظلال .. (٢)

واذ هم يدخلون بيوتهم ذات يوم ولم يبق ظل ، سمعوا صيحة .. رجل من يهود :

ـــ يا بنى قيلة ، هذا جدكم قد جاء

فخرجوا مسرعين ليروا المصطفى فى ظل شجرة ومعه أبو بكر فى مثل سنه ، وأكثرهم لم يكن رأى رسول الله قبل ذلك ، فحفوا بالصاحبين وما يعرفون أيهما الرسول عليه الصلاة والسلام ، حتى زال الظل عن أحدهما فقام الثانى فأظله بردائه ، فعرفوا اذ ذاك نبيهم الكريم ! (٣)

وسرى النبأ فى أنحاء « يثرب » وتعالى الهتاف من كل مكان ، وبدأت الأفواج تملأ الطرقات ساعية فى شـوق ولهفة الى حيث تلقى المهاجر العظيم ، وصيحات ابتهاجهم وأناشيد ترحيبهم ، تشق أجواز الفضاء !

وعرفت « عائشة » مكان الحبيب ..

وكذلك عرفت قريش ، حين لم تعـد تجديها معرفة ، وجاء دورها لتنتظر فى خوف وذعر ماذا يأتى به الغد ..

انكمشت فى ذلة ، تجرع كأس الهوان ، أن أعجزها الظفر بمهاجر فرد ، خرج من « مكة » وليس معه غير صـاحب شيخ ، ودليل غير مسلم ، ومولى تابع ..

وأرهف التاريخ سمعه ، يبدأ بهذه الهجرة الى يثرب كتابا جديدا فى تاريخ الانسانية ، ويبدأ بها ليثرب نفسها ، عهدا جديدا مباركا ، ومجدا خالدا على الدهر (٤)

---

(١) ابن هشام ، السـيرة : ١\١٣٤ وانظر تاريخ الطبرى حوادث الهجرة

(٢) السـيرة : ٢/١٣٧ (٣) تاريخ الطبرى : ٢\٢٤٨

(٤) انظر الاول والثانى وانظر نسب «قيلة» ام الانصار فى كتاب « وفاء الوفا باخبار دار المصطفى » للسمهودى ، ٨ : ١٥٦ ط ١٩٥٥

## العروس

لم تمض الا أيام حتى جاء « زيد بن حارثة » من « المدينة » ليصحب بنات النبي عليه الصلاة والسلام اليها ، ومعه رسالة من « أبي بكر » الى ابنه عبد الله ، يطلب اليه فيها أن يلحق به ، مصطحبا زوجه « أم رومان » وابنتيه « أسماء ، وعائشة » (١)

وتهيأ الجمع للسفر ، وخرجوا صحبة يريدون مدينة الرسول ، وما تكاد الدنيا تسع « عائشة » من فرحتها وابتهاجها ، وقد أمضت الأيام الأولى للسفر مرحة تتوثب ، فلما كانوا ببعض الطريق نفر بعيرها فاستغاثت « أم رومان » مذعورة :

« وابنتاه ، وا عروساه ! » (٢)

وأسرع عبد الله بن أبي بكر ، وطلحة بن عبيد الله ، وزيد بن حارثة ، فردوا البعير النافر ، ومن ثم سكنت عائشة فوق راحلتها وأسبلت عينيها منتشية بقرب لقاء الأعزاء ..

وفى « المدينة » كان المصطفى يهيىء مقاما لعائشة ..

حدثوا انه صلى الله عليه وسلم أقام فى « قباء » أربعة أيام ، أسس خلالها أول مسجد فى الاسلام .

وركب ناقته « القصواء » يوم جمعة ، فأدركته صلاتها فى « بنى سالم بن عوف » فصلى أول جمعة بالمدينة ، ثم استأنف مسيره فكلما مرَّ بحى من أحياء يثرب خرج اليه رجاله مرحبين داعين :

« هلم الينا يارسول الله ، الى العدد والعدة والمنعة » ..

فيجيب شاكرا :

« خلوا سبيل ناقتى »

---

(١، ٢) تاريخ الطبرى : حوادث الهجرة ـ والاصابة ٨ ، والاستيعاب ( ٤\١٩٣٧) ووفاء الوفا : ١\٢٦٤

حتى انتهت الى مربد هناك فبركت ، فنزل المهاجر المصطفى وصلى .

وفى بيت « أبى أيوب الأنصاري » كان منزل رسول الله حتى بنى مسجده ومساكنه .. (١)

وتنافس المهاجرون والأنصار فى البناء ، حتى تم بناء مسجد المدينة ، ومن حوله تسع حجرات ، بعضها من الجريد والطين ، وبعضها من حجارة مرضومة ، بعضها فوق بعض ..

وكانت أبوابها جميعا تفتح على ساحة المسجد ..

وفى واحد من هذه البيوت أقامت « سودة بنت زمعة » ترعى الشئون المنزلية ، وتسهر على راحة المصطفى وبنتيه : أم كلثوم ، وفاطمة ..

أما « رقية » فكانت مع زوجها « عثمان بن عفان » ..

وأما « زينب » فكانت « بمكة » عند زوجها « أبى العاص بن الربيع » وكان لايزال مشركا ، لم يفرق بينهما الإسلام بعد ..

***

واذ تم بناء مسجد الرسول وبيته ، واستقر المسلمون فى دار الهجرة واطمأن بهم المقام ، آمنين من اضطهاد عدوهم ، تحدث « أبو بكر » بعد الهجرة بأشهر معدودات ، الى محمد صلى الله عليه وسلم فى اتمام الزواج الذى عقده بمكة منذ ثلاث سنين ..

فلبى رسول الله راضيا ، وأسرع مع رجال ونساء من الأنصار الى منزل صهره الصديق ، حيث كان يقيم فى بنى الحارث بن الخزرج ..

وتصف « عائشة » يوم عرسها فتقول (٢) : « جاء رسول الله بيتنا فاجتمع اليه رجال من الأنصار ونساء ، فجاءتنى أمى وأنا فى أرجوحة بين عذقين ، فأنزلتنى ثم سوت شعرى ومسحت وجهى بشىء من ماء ، ثم أقبلت تقودنى حتى اذا كنت عند الباب ، وقفت بى حتى ذهب بعض نفسى ، ثم أدخلتنى ورسول الله جالس على سرير فى بيتنا ، فأجلستنى فى حجره وقالت :

---

(١) السمهودى : وفاء الوفا : ١\٢٥٦ ، [illegible]

(٢) الاصابة ٨ — والسمط الثمين ص ٣٢ — وتاريخ الطبرى : ٣\١٣٦ ووفاء الوفا : ١\٢٦٠

ـ هؤلاء أهلك فبارك الله لك فيهن وبارك لهن فيك ..

ووثب القوم والنساء فخرجوا ، وبنى بي رسـول الله في بيتي ، ما نحرت عليّ جزور ولا ذبحت من شاة ، وأنا يومئذ ابنة تسع سنين ، حتى أرسل الينا سعد بن عبادة بجفنة كان يرسل بها الى رسول الله »

وحمل اليهما كذلك قدح من لبن ، شرب المصطفى منه ثم قدمه الى العروس فتناولته على استحياء فشربت منه ..

وكانت عائشة عروسا حلوة ، خفيفة الجسم ، ذات عينين واسعتين ، وشعر جعد ، ووجه مشرق ، مشرب بحمرة . وقد انتقلت الى بيتها الجديد ، وما كان هذا البيت سوى حجرة من الحجرات التى شيدت حول المسجد ، من اللبن وسعف النخيل ، وضـع فيه فراش من أدم حشوه ليف ، ليس بينه وبين الأرض الا الحصير ، وعلى فتحة البـاب أسدل ستار من الشعر .. (١)

وفى هذا البيت البسيط المتواضع بدأت « عائشة » حياة زوجيـة حافلة ، ستظل حديث التاريخ حتى يومنا هذا وغد بعده ، كما بدأت تأخذ مكانها المرموق فى حياة الرسول والاسلام ..

كانت صغيرة السن ، يحسبها بعض ذوى الهوى طفلة ، لكنها بشهادة مستشرق منهم ، « منذ وطئت قدماها بيت محمد ، كان الجميع يحسون وجودها . ولو أن هناك شابة عرفت ما هى مقبلة عليه ، لكانت عائشة بنت أبى بكر .. فلقد كونت شخصيتها منذ اليوم الأول الذى دخلت فيه دور النبى الملحقة بالمسجد .. » (٢)

وأدق من هذا أن يقال ان «عائشة» قد اكتمل نموها فى هذا البيت ، ونضجت شخصيتها وتدرجت بين عينى الرسول من صبية يأتيها زوجها بصواحبها ليلعبن معها ، أو يحملها على عاتقه لتطل على نفر من الحبشة يلعبون الحراب (٣) الى شابة ناضجة مجربة ، تسألها امرأة فى مسألة دقيقة

---

(١) السمهودى : وفاء الوفا ٢/٤٥٩ : ٤٦١ .

(٢) بودلي : الرسول ، ص ٩٣ ، ١٢٠ من الترجمة العربية

(٣) مسند احمد : جـ ٦ ، صحيح البخارى ٢٠/١٨٢ ط الشرقية

من مسائل الزينة والتجميل ، فتجيبها : « ان كان لك زوج فاستطعت أن تنزعى مقلتيك فتضعيهما أحسن مما هما فافعلى ! »

وتكره أن تلقى امرأة زوجها فى كآبة الحداد فتروى الحديث :

« لا يحل لامرأة تؤمن بالله أن تحد فوق ثلاثة أيام إلا على زوج »

***

ولم يكن وجود « سودة » على مقربة منها ، زوجة ثانية للرجل الذى أحبته « عائشة » بكل كيانها ، يشغل بالها فى كثير أو قليل ، فما غاب عنها قط الا مكان لسودة فى قلب الزوج . وانما الذى كان يشغل عائشة ، هو ذلك الحب العميق الذى ظفرت به « خديجة » قبلها من زوجها الرسول ، وتلك المكانة التى احتفظ بها لمن استأثرت بكل عواطفه نحو ربع قرن من الزمان ! ..

وأشد ماكان يغيظ العروس الشابة ، أن خديجة بقيت تشاركها عواطف زوجها ، وهى راقدة هنالك بعيدا تحت ثرى مكة ، فما تستطيع «عائشة» أن تشتفى منها بدعابة قاسية ، أو تباهيها بشبابها الغض وصباها الفتى النضير، أو تفاخرها بأنها زفت الى الرسول بكرا لم تعرف قط رجلا غيره

وحاولت « عائشة » أن تتجاهل هذه الضرة التى ماتت ، فذهبت محاولتها عبثا . ذلك أن طيف « خديجة » بقى ماثلا أمام عينى زوجها ، واسمها الحبيب على لسانه ، وصوتها فى مسمعه ، وذكراها حية ملء دنياه

وزاد فى قسوة الموقف أن الشهور مضت والأعوام ، و « عائشة » لا تنجب لزوجها ولدا ، على حين أنجبت « تلك العجوز من قريش » — كما كانت تصفها — البنين والبنات ..

وكانت عائشة تعرف فى زوجها ، وفى رجال قومها جميعا ، ذلك الحب القوى للأبناء ، والحرص على الإنجاب ، ثم ترى من تعلق الزوج — الذى أحبته جهد الحب — ببنات خديجة ، ما يرهف شعورها بوطأة الحرمان تجثم على صدرها فتكاد تكتم أنفاسها ، لولا ما يغمرها من عطف هذا الزوج ومحبته ، وما يأخذها به ايمانها من تجمل بالصبر فيما لاحيلة لها فيه

وكانت بحيث تجد فى بنات محمد ـ زوجها الحبيب ـ ما يلطف من ظمئها الى الأمومة ، لو حاولت أن تتبناهن . لكن ما تكاد تذكر أنهن ، كذلك ، بنات ضرتها « خديجة » حتى تحس كأن حواجز منيعة تقوم بينها وبينهن ، بل تحس أن كل واحدة منهن ، هى « خديجة » نفسها ، تثير فيها شعورا مرا بالعقم ، وتذكرها فى كل آن بما كتب عليها من حرمان ..

والتفتت عائشة حولها تلتمس من أبناء اخوتها من تفيض عليه عواطف أمومتها المحرومة كى لا يرهقها الكبت ، فأنزلت ابن أختها أسماء « عبد الله بن الزبير » منزلة الابن ، وبه كانت تكنى فيقال : « أم عبد الله » [1] . وحين مات أخوها « عبد الرحمن » ضمت اليها ابنه القاسم الذى ذكر لها ما منحته من أمومتها ، فى كلمته المأثورة :

« فما رأيت والدة قط أبر منها » ..

وكذلك حاولت أن تستعين على ما تجد من حرمان ، بما عرفت لها من موضع فى قلب المصطفى لم تبلغه أخرى بعد « خديجة » ، وما ظفرت به من حظوة لديه ، ومن حبه ..

---

(١) الاستيعاب : ١٨٨٣/٤

## الضرائر

واذ هى سعيدة بهذا الحب تحاول أن تجد فيه عوضا عن حرمانها ، آملة أن تستطيع به ــ ولو بعد حين ــ تناسى ضرتها التى ماتت ، فوجئت بزوجة جديدة تفد الى بيت النبى ، وتشغل الحجرة التالية لحجرتها وحجرة «سودة» ، وتشاركها فى حياتها الزوجية ، يوما بيوم وليلة بليلة !

ومن الزوجة الجديدة ؟ ..

انها « حفصة » بنت عمر بن الخطاب الذى أعز الله الاسلام به !

وروع « عائشة » أن يتزوج عليها « محمد » صلى الله عليه وسلم ، وما تزوج قط على « خديجة » ، حتى ماتت فى الخامسة والستين !

وأشقاها ألا يحميها شبابها ومجد أبوتها ، وحب زوجها لها ، من ذلك الهم البغيض المر الذى لم يرض المصطفى لخديجة أن تذوقه ما عاشت !

***

وجاءت من بعد « حفصة » زوجات أخريات ، حتى امتلأت بهن البيوت التسعة ..

كانت فيهن « زينب بنت جحش » الشابة الجميلة ، و « أم سلمة بنت أبى أمية زاد الركب » ، الحسناء الأبية المترفعة ، و « جويرية بنت الحارث » التى تأخذ العين بملاحتها ، و « صفية بنت حيى » سليلة اليهود ، الناعمة الساحرة ، و « أم حبيبة » بنت أبى سفيان زعيم مكة وقائد جيشها ..

ثم كانت هناك « مارية » المصرية الجذابة ، أم ابراهيم بن محمد ..

وريحانة بنت عمرو : حسناء بنى قريظة ، لم يتزوجها الرسول ، لكنها أقامت فى ملكه ما عاش ..

وكان هذا بحيث يجعل « عائشة » تسيغ هذه المشاركة على مر الأيام ، لكن يخطىء من يزعم أن «عائشة» أساغت يوما مرارة الضرائر ، ويجهل فطرة الأنثى من يظن أن «عائشة» استراحت من ألم حرمانها من الأبناء

ووجدت فى كنيتها بأم عبد الله ، أو فى أمومتها للمؤمنين جميعا ، ما يطفىء شوقها لأن يكون لها ولد من زوج حبيب ، عزّ مثله فى الأزواج

ولم تدر « عائشة » أول الأمر كيف تدفع هذا الضر المحتوم ، فقد كانت تعرف ـ كما يعرف سـواها ـ أن الرسـول يتزوج لحـكمة ، وان لم تبرأ بشريته من رغبة ..

وكانت تعلم ـ ويعلم الناس جميعا ـ ان عائشة هى الزوج الحبيبة المفضلة ، برغم تعدد الزوجات ..

فهل تسكن إلى رضى واستسلام ؟ ..

كلا ، وانما عليها أن تذود هؤلاء الأخريات عن مكانها فى قلب زوجها مهما يكلفها الأمر ، وأن تحاول بكل أنوثتها وذكائها وصـباها ، أن تلزمهن موضعا محدودا لا يتجاوزنه ..

وأعانها على ذلك أن كان زوجها المصطفى بشرا لا يتجرد من بشريته ، ولا يحمل « عائشة » أو غيرها من نسائه على التجرد منها ..

فلتستجب « عائشة » لفطرتها دون كبت أو قهر ، ولتكن لأزواجه مشاغلهن النسوية وشواغلهن العاطفية ، ولو جمحت بهن الغيرة ، وكلفته صلى الله عليه وسلم من أمرهن شططا ..

***

وكانت « عائشة » بين أزواج النبى أشدهن غيرة عليه ، ونضالا فى سبيل الاستئثار بحبه ..

وعذرها أنها أول من تفتح لها قلبه بعد « خديجة » ، وأنها وحدها التى تزوجها بكرا ، وأنها « عائشة بنت أبى بكر » ..

وقد نظرت الى ضرائرها تقيس نفسها اليهن ، محاولة قدر ما وسعها الجهد أن تزن كل واحدة منهن بانصاف ، لا لأنها تريد أن تعترف لهن بفضل أو ميزة ، ولكن لأن معرفة قوة الخصم أول سلاح للمحارب !..

وبدأت فأسقطت من حسابها غير ذوات الخطر منهن ، ممن لا قبل لهن بمنافستها ، مثل « سودة بنت زمعة » ، و « زينب بنت خزيمة » التى لم

تلبث أن ماتت بعد زواجها بأشهر معدودات ..

ووجدت من بعد ذلك ألا طاقة لها بمحاربة الزوجات مجتمعات، تظاهرهن « فاطمة الزهراء » التى أرادت لها « عائشة » منذ جاءت بيت محمد، أن تكون لها ضرة وخصما ..

وقررت أن تختار من هؤلاء، أبعدهن عن الخطر فى ميدان المنافسة، فتوددت فى شجاعة ولباقة الى « حفصة بنت عمر » (١) متخذة من تقاربهما فى الأبوة سبيلا الى هذا التودد ..

واستجابت « حفصة » لهذا التودد وقد سرّها أن تؤثرها « حبيبة الرسول » ، بالمودة، وأن تعترف بأن بنت عمر، أقرب زوجة الى بنت أبى بكر ..

واتخذت « عائشة » من « حفصة » موضع سرها منذ سمعت بزواج الرسول من « أم سلمة » فشكت لحفصة أنها وجدتها أجمل مما يقول الناس ..

وهونت « حفصة » من خطر « أم سلمة » فانها على جمالها كبيرة السن، وان الجمال ليذبل سريعا فى مثل سنها، فلتبق عائشة غيرتها لمن تستحق ..

وفعلت عائشة ...

ادخرت غيرتها للشابة القرشية الحسناء « زينب بنت جحش » وتأهبت لها قبل أن تجىء، فما أعلن الرسول زواجه من بنت عمته، بعد أن عاتبه فيها الوحى، حتى قالت عائشة فى غيرة :

« ما أرى ربك الا يسارع فى هواك » (٢)

وراحت « عائشة » ـ تؤازرها حفصة ـ ترقب الزوج الجديدة وتحصى الدقائق والساعات التى يقضيها المصطفى معها، فلما رأته يطيل المكث لديها، فكرت فى حيلة تصرفه صلى الله عليه وسلم عنها ..

---

(١) فى حديث السيدة عائشة عن حرب النساء، ان حزبها كان فيه حفصة وسودة وصفية، وفى الحزب الاخر أم سلمة وسائر الازواج «رضى الله عنهن» انظر السمط الثمين فى السمط الثمين ٨٢

(٢) ذكرت رواية اخرى فى كلمتها هذه . فى : السمط الثمين ٨٢

وأشركت معها ، حفصة وسودة ، أيتهن دخل الرسـول عليها اثر انصرافه من عند زينب ، فلتقل له : « أكلتَ مغافير ؟ »

والمغافير ثمر حلو كريه الرائحة ، وكان عليه الصلاة والسلام لايطيق الرائحة الكريهة ..

وجاء الرسول « عائشة » فتشممت أنفاسه وقالت :

« انني أشم رائحة مغافير ، آكلت مغافير ؟ » ..

وكذلك قالت حفصة ..

ولما مر بسودة سألته مثل ذلك فأجاب : « لا » ..

قالت :

« فما هذه الريح ؟ » ..

قال :

« سقتني زينب شربة من عسل » ..

فقالت سودة بلهجة الخبيرة بمراعى البادية :

« رعَتْ نحله العرفطَ » ..

والعرفط : الشجر الذى يثمر المغافير ..

فما كان من المصطفى الا أن حرم على نفسه ، من يومه ، شرب العسل عند « زينب »

وأحست « سودة » ندما فقالت لصاحبتيها :

« سبحان الله ! والله لقد حرمناه ! » (٢) ..

فنظرت اليها عائشة ، أن اسكتى !

***

حتى جاءت وافدات أخريات شغلن « عائشة » حينا عن أم سـلمة وزينب ، وان عرفت ان هاتين أحب أزواج المصطفى اليه ، بعدها ..

إحدى هؤلاء الوافدات من كندة ، وثانية من مصر ..

---

(٢،١) السمط الثمين : ٨٠ ، ٨١ — وفى رواية ان التى سقته شربة العسل هى السيدة حفصة

أما الأولى فكانت « أسماء بنت النعمان » التى أحست « عائشة » خطر جمالها منذ وقعت عليهـا عيناها ، وقدرت أنها اذا لم تحل بينها وبين زوجها ، فسوف تكلفها من أمرها عسرا ..

ومن ثم قررت أن تفرغ منها قبل أن يتم الزواج ! ..

وبدأت تعمل على الفور مستعينة بصواحبها ! ..

دعت اليها حفصة ، وأخرى ممن يحرصن على ارضائها ، فقالت لهما :

« قد وضع يده فى الغرائب يوشكن أن يصرفن وجهه عنا » ..

واتفقن على خطة موحـدة : أقبلن على العروس مهنئات ، يجلونها للزفاف ويوصينها بما تفعل وما تقول استجلابا لرضـا الزوج المصطفى ومحبته ، فكان مما نصحن لها به أن تستعيذ بالله اذا ما دخل عليها ! .. وفعلت المسكينة ! ..

لم تكد ترى المصطفى مقبلا عليها ، حتى استعاذت بالله [1] وفى حسابها أنها تستجلب محبته ورضاه ! ..

فصرف رسول الله وجهه عنها وقال :

« لقد عذت بمعاذ » ..

وغادرها من لحظته ، وأمر أن تلحق بأهلها..

فبعثت اليه ، أو بعث أبوها ، من يتوسط لردها وبحدث عما كان من نسائه معها ، فلم يملك عليه الصلاة والسلام الا أن يتبسم ويقول :

« انهن صواحبات يوسف ، وإن كيدهن عظيم ! »

وبقى عند كلمته ، فلم يمسك تلك التى عاذت بمعاذ ..

وتخلصت عائشة من منافسة خطرة !

***

أما « مارية » المصرية ، فلعل « عائشة » لم تأبه لها أول الأمر ، اذ

---

(١) اختلفت الروايات فى اسم التى استعاذت بالله منهن لما دخل عليها المصطفى ، فقيل هى أسماء بنت النعمان ، وقيل هى ابنة عم لها من كندة ، ـ السيرة ٢٩٧/٤ . وفى الطبرى انها ملكة بنت داود الليثية ـ ١٢٣/٣ ـ او فاطمة بنت الضحاك الكلابية ـ ١٣٩/٣

كانت أمةً قبطية أجنبية ، منزلها دون منازل أمهات المؤمنين ..

وربما استكثرت « عائشة » عليها أن تعدها منافسة لها ، وهى التى تعيش خارج بيت النبى ..

لكن « مارية » لم تكد تحمل من المصطفى ، حتى هاجت غيرة « عائشة » وغيظها ، فبدأت تكيد لها ، والرسول يحاول أن يحميها من كيد الحبيبة المدلة بمكانتها . لكن الأمر خرج من يده ذات يوم : جاءت « مارية » تلتمس لقاءه فى شأن لها ، فخلا بها فى بيت حفصة التى كانت اذ ذاك تزور أباها . فلما عادت « حفصة » ألفت الستر مسدلا وعلمت أن « مارية » هناك ، فأقامت تنتظر على أحر من الجمر ، حتى اذا انصرفت « مارية » دخلت « حفصة » على زوجها باكية مقهورة ، ولم تهدأ حتى حرم الرسول «مارية» على نفسه ، موصيا «حفصة» بكتمان ماكان (١)

لكن حفصة لم تستطع أن تكتم سرا عن عائشة ، فكأنما أشعلت فيها النار ، واندفعت « عائشة » تستثير ضرائرها ، فما زالت بهن حتى انضممن اليها وقد تناسين غيرتهن منها ، وكانت كلمتهن :

« صبرنا على ايثار الرسول لابنة أبى بكر ، وما بقى الا تلك الأمة القبطية ، فأى هوان ! » ..

ولجت عائشة فى غيرتها ، والنساء يظاهرنها على زوجهن المصطفى ، غيظا من «مارية» التى حملت منه دونهن ، وترفق الرسول بهن ما استطاع ، مقدرا بواعث هذا التظاهر ، لكنهن تمادين فى اللجاج الى حد الشطط ، مستمرئات عطف الرسول ورفقه بهن ..

وما كان صلى الله عليه وسلم فارغ البال اذ ذاك لهذا العبث النسوى المسرف ، ولا كان يستطيع أن يرخى لعائشة وحفصة والباقيات أكثر مما فعل ، فاعتزلهن جميعا فى صرامة لم يألفنها ، وأعلن فى حزم انه منقطع عنهن ، منصرف عن مؤامراتهن الصغيرة الى شواغله الكبار ..

---

(١) السمط الثمين : ٨٥

وسرى الهمس بين المسلمين أن النبى مطلق أزواجه ، وانكمشت المتظاهرات فى بيت النبى حزينات نادمات ، فقد جاوز الأمر ما قدّرن ، وأوشكن على الوقوع فى الهوة التى حفرنها لمارية ، وما لهن من عاصم يقيهن سوء المصير ، اذا لم تدركهن رحمة الله وعفو رسوله ..

على أن « عائشة » ـ قائدة الثورة وزعيمة المتظاهرات ـ لم تفزع لغضب رسول الله ، بقدر ما فزعت لما مسه صلى الله عليه وسلم من ضُر ومشقة . وكان قلبها يتمزق ، كلما تمثلت الحبيب يعود من ميدان الكفاح مثقل الكاهل بأشق المسئوليات ، فيأوى الى خزانة له ذات مشربة (١) ، يرقى اليها على جذع خشن من جذوع النخل ، ويجلس غلامه « رباح » على عتبتها ما أقام عليه الصلاة والسلام بها . وما من يد رقيقة تمسح عن جبينه الطاهر قطرات العرق ، وتنفض عنه غبار المعركة ، ولا من صوت ناعم يهدهد مضجعه حتى ينام ! ..

ومضى شهر بأكمله والرسول فى شغل بنشر الدعوة ، و « عائشة » فى شغل به ، وأمهات المؤمنين مروعات بالهجر ، والمسلمون يرقبون نبيهم فى عزلته دون أن يجرؤوا على مفاتحته فى موضوع أزواجه ..

***

ولكن المصطفى لم يطلق نساءه ..

والسماء لم تتخل عنهن ، بل اكتفت بانذارهن ان لم يتُبن فعسى ربه ان طلقهن ، أن يبدله أزواجا خيرا منهن ! (٢)

وطارت البشرى الى أمهات المؤمنين ان الرسول صلى الله عليه وسلم عائد الى بيته ، فوقفن بأبوابهن فى لهفة يلتمسن نظرة الى وجهه الكريم اذ يعود من معتزله ، على حين بقيت « عائشة » داخل غرفتها تستعد للقاء الحبيب العائد ، اذ كانت تعرف عن يقين ان اليها أولَ المطاف ! (٣)

وأمسكت قلبها أن يذوب حين سمعت خطواته تقترب من بابها ،

---

(١) انظر وصف المشربة التى اعتزل فيها الرسول نساءه ، بكتاب « وفاء الوفا ، باخبار دار المصطفى » للسمهودى : ٤٦٢/٢

(٢) سورة التحريم

(٣) السمط الثمين : ٥٢

ولاذت بكل ما استطاعت من تماسك لتتلقاه قائلة فى عتاب رقيق :

« بأبى أنت وأمى يا نبى الله ! قلتُ كلمة لم ألق لها بالا فغضبتَ علىّ »

واذ أقبل عليها مصغيا ، استطردت تقول فى دلال ودعابة حلوة :

« أقسمتَ أن تهجرنا شهرا ، ولما يمض منه غير تسع وعشرين » ..

فأشرق وجهه عليه الصلاة والسلام بابتسامة عذبة ، وقد سرّه أن يعرف أنها كانت تحصى ليالى الفراق عدًّا ..

وأجابها بأن شهرهما ذاك ، تسع وعشرون ليلة ! ..

***

ونجت « عائشة » من محنة الهجر ، ومن قبل نجاها الله من محنة أدهى وأقسى ، وتجلت لها رحمته تعالى حين أظلمت الدنيا حولها ، وأوشكت على الضياع ..

## محنة الافك

حدث ذلك فى السنة السادسة للهجرة ، بعد أن تزوج المصطفى بنت عمته « زينب بنت جحش » ..

وكان عليه الصلاة والسلام يتأهب لغزو بنى المصطلق ، فأقرع بين نسائه على عادته كلما خرج فى سفر أو غزوة ، فخرج سهم « عائشة » (١)

وانطلقت فى صحبته سعيدة هانئة ، وقد سرها أن تنفرد بزوجها الحبيب أياما وليالى لا تشاركها فيه أخرى ..

وكانت فألا حسنا على البطل الغازى ، فعاد من غزوته منتصرا ، وسار ركبه الظافر يغذ السير الى « المدينة » التى كانت اذ ذاك تهزج بأغانى النصر ..

وفى الطريق ، قريبا من المدينة ، أناخ العسكر فباتوا بعض الليل ، ثم أذن فيهم بالرحيل ، فارتحلوا ، وما يخطر على بال أحدهم أن السيدة عائشة قد تخلفت حيث أناخوا ..

وبلغ الركب المدينة فى مطلع الصبح ، واقتيد بعير أم المؤمنين الى مناخه أمام بيتها ، وأنزل الهودج فى رفق ، فاذا أم المؤمنين ليست فيه !

ولبث المصطفى وصحبه ساعة من نهار ، حائرين قلقين ، وانطلق بعضهم فى الطريق يلتمسون العزيزة الغائبة ..

حتى بدت من بعيد ، تركب بعيرا ، يقوده رجل عرفوا فيه « صفوان ابن المعطل السلمى » ..

واطمأن عليه الصلاة والسلام أن وجدها بخير ، وسمع حديثها عن سبب تخلفها فما أنكر منه حرفا ..

---

(١) تاريخ الطبرى : ٦٧/٣ ـ والسيرة . ٢١٠/٣ وانظر طبقات ابن سعد : ٤٦/٤ ط ليدن .

قالت :

« خرجت لبعض حاجتي ، قبل أن يؤذَّن في الناس بالرحيل ، وفي عنقي عقــد لي فيه جزع ظفــار ــ مدينة باليمن ــ فلما فرغت انسل من عنقي ولا أدرى ، فلما رجعت الى الرحل ذهبت ألتمسه في عنقي فلم أجده ، وقد أخذ الناس في الرحيــل ، فرجعت الى مكاني الذى ذهبت اليه فالتمسته حتى وجدته ، وجاء القوم ، وأنا بعيدة ، فرحلوا بعيرى وأخذوا الهودج وهم يظنون أني فيه ، اذ كنت خفيفة لم يثقلني اللحم . فاحتملوا الهودج فشدوه على البعير ولم يشكوا أني فيه . ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا به ، فرجعت الى العسكر وما فيه من داع ، ولا مجيب ، قد انطلق الناس ..

« فتلففت بجلبابي ، ثم اضطجعت في مكاني ، وعرفت ان لو قد افتقِدتُ لرُجع إليَّ. فوالله اني لمضطجعة ، اذ مر بي صفوان بن المعطل السلمي وقد كان تخلف عن العسكر لبعض حاجته فلم يبت مع الناس ، فرأى سوادى فأقبل حتى وقف عليَّ ــ وقد كان يرانى قبل أن يضرب علينا الحجاب ــ فلما رآني قال :

« انا لله وانا اليه راجعون ، ظعينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ! ما خلّفك يرحمك الله ؟ ! ..

فما كلمته ...

ثم قرب البعير فقال : اركبي ..

واستأخر عني ، فركبت ، وأخذ برأس البعير فانطلق سريعا يطلب النــاس ، فوالله ما أدركنا الناس وماافتقِدتُ ، حتى أصبحت ونزل الناس ، وطلع الرجل يقود بي » (١)

وأوت « عائشة » الى فراشها فنامت هادئة ، والمدينة يقظى لا تنام ! ذلك أن قوما من ذوى النفاق ، على رأسهم «عبد الله بن أبيّ بن سلول» ــ الذى ما برىء قط من حقده على الرسول منذ جاء إلى دار الهجرة ،

---

(١) ابن هشام : السيرة ٣/٣١٠ ــ وتاريخ الطبرى : ٣/٦٨

وما فتىء يكيد له ــ تلقفوا الحادثة بما نسج يهود حولها من مفتريات ، ليشفوا وترهم وأحقادهم ..

واتنقل حديث الإفك من دار « ابن سلول » ، ومن لفّ لفه ، الى أحياء المدينة ، وردده ناس من المسلمين ، فيهم « حسان بن ثابت » شاعر الرسول ، و « مسطح بن اثاثه » قريب أبى بكر وموضع بره ، و « حمنــة بنت جحش » ، بنت عمة النبى وأخت زوجه زينب ! ..

وبلغ الحديث أذنى محمــد صلى الله عليه وسلم ، كما بلغ مســامع أبى بكر وأم رومان فصكها صكا ! لكن أحدا منهم لم يستطع أن يواجه «عائشة» بالشائعة الرهيبة ، اذ كانت منذ عادت من غزوة بنى المصطلق ، معتلة تشتكى شكوى شديدة ، فظلت لا تدرى ما يقول الناس عنها ولا يبلغها من ذلك شىء ، الا أنها أنكرت من زوجها جفوة ظاهرة ، وقد عودها اذا اشتكت من قبل أن يلطف بها ويغمرها بحنان وافر ، فأمست هذه المرة ولا حظ لها من ذلك اللطف والحنان الا أن يدخل عليها من حين الى حين ، وعندها أمها تمرضها فيسأل : (١)

« كيف تيكم ؟ » ، لايزيد على ذلك ! ..

ولم تشأ أن تسأل زوجها عما يريبها من جفائه ، فقد كان يبدو لها واجما مشغول البال ، وكانت تحس بقلبها انه صــلى الله عليه وسلم يكابد هما ثقيلا ، فتماسكت متجلدة ، وهى تعلل نفسها بانقشاع هذه السحابة التى غشيت دنياها ..

حتى جاوز جفاؤه احتمالها ، فقالت : « لو أذنت لى ، فانتقلتُ الى أمى ، فمرضتنى ؟ »

فلم يزد ، صلى الله عليه وسلم ، على أن قال : « لا عليكِ »

فتقول « عائشة » : (٢)

« فانتقلت الى أمى ولا علم لى بشىء مما كان ، حتى نقهت من وجعى بعد بضع وعشرين ليلة ...

---

(١) السمط الثمين : ٦٤ وتاريخ الطبرى : ٦٨/٢ ط مصر

(٢) ابن هشام: السيرة ٤\٣١١١ ــ والسمط الثمين ص ٦٥ ــ وتاريخ الطبرى ٦٨/٢.

« فخرجت ليلة لبعض حاجتى ، ومعى أم مسطح بنت أبى رهم بن المطلب بن عبد مناف ـ وكانت أمها بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد ابن تيم ، خالة أبى بكر ـ فوالله انها لتمشى معى اذ عثرت فى مرطها فقالت :

ـ تَعِسَ مِسْطَح ! ..

قلت :

ـ بئس لعمر الله ما قلتِ لرجل من المهاجرين قد شهد بدرا !

فسألت فى دهشة :

ـ أو ما بلغك الخبر يا بنت أبى بكر ؟ ..

قلت :

ـ وما الخبر ؟ ..

قالت :

ـ نعم والله ، لقد كان .. وقصّت خبر الإفك .

فوالله ما قدرت على أن أقضى حاجتى ، ورجعت فما زلت أبكى حتى ظننت أن البكاء سيصدع كبدى ، وقلت لأمى :

ـ يغفر الله لك ، تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لى من ذلك شيئا ؟ ..

قالت :

ـ أى بنية ! خفّضى عليك الشأن ، فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها ، لها ضرائر ، إلا كثّر وكثّر الناس عليها ! (١)

لكن « عائشة » باتت مسهدة لا يرقأ لها دمع ولا تكتحل عيناها بنوم

***

وبعيدا عنها كان المصطفى يعانى مثل الذى تعانيه : قلبه يحدثه انها ضحية اتهام ظالم فادح ، وأذناه تصغيان الى الشائعات المرجفة بالسوء وقد قام فى الناس يخطبهم ولا علم لعائشة بذلك ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« يأيها الناس ، ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى ويقولون عليهم غير

(١) السيرة : ٣/٣١١ والسمط الثمين ٦٥ ـ وتاريخ الطبرى ٣/٦٨

الحق ؟ .. والله ما علمت منهم إلا خيرا ، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه الا خيرا ، وما يدخل بيتا من بيوتى الا وهو معى » ..

فتكاد أفئدة المسلمين تنخلع تأثرا لنبيهم فى محنته وعذابه ، ويثورون غضبا لشرف زوجة كريمة ، وعقيلة حرة ، فتختلط أصـواتهم فى طلب الانتقام والتأديب ، ويتماسك الأوس والخزرج متصايحين مطالبين بأعناق أصحاب الإفك من هؤلاء وأولئك ، حتى كاد يكون بين هذين الحيين من الأوس والخزرج شر (١)

وتمضى عائشة فى وصف محنتها فتقول :

« ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل علىّ ، فدعا « على ابن أبى طالب وأسامة بن يزيد » فاستشارهما ..

فأما أسامة فأثنى علىّ خيرا وقال :

ـــ يارسول الله ، أهلك ، ولا نعلم منها الا خيرا ، وهـذا الكذبُ والباطل ..

وأما « على » فانه قال :

ـــ يارسول الله ، ان النساء لكثير ، وإنك لقادر على أن تستخلف ، وسل الجارية فإنها ستصدقك ..

فدعا رسـول الله صلى الله عليه وسلم جاريتى « بريرة » ليسألها : فقام اليها « على بن أبى طالب » فضربها ضربا شديدا وهو يقول :

ـــ اصدقى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فتقول بريرة :

ـــ والله ما أعلم الا خيرا ، وما كنت أعيب على عائشة شيئا الا انى كنت أعجن عجينى فآمرها أن تحفظه ، فتنام عنه ، فتأتى الشاة فتأكله ! »

ويخرج الرسول مشغول البال محزون الفؤاد ..

ثم يعود بعد حين الى بيت أبى بكر ، فاذا عائشـة هنـاك مقرحة الأجفان تبكى ، فتبكى لها زائرة عندها من الأنصار ، وأبواها ينظران اليها فى صمت وأسى ..

---

(١) انظر حديث الافك بالتفصيل « فى صحيح البخارى » : ٣٧/٣ ط الشرقية وفى « السمط الثمين » ص ٦٢ وتاريخ الطبرى فى حـوادث السنة السادسة : ٦٧/٣ : ٧١ والسيرة جـ٣

ولأول مرة منذ شاع حديث الإفك ، جلس الرسول يحدث عائشة ..
قال : (١)

« يا عائشة ، انه قد كان ما قد بلغك من قول الناس ، فاتقى الله . وان كنت قد قارفتِ سوءا مما يقول الناس فتوبى الى الله ، فان الله يقبل التوبة من عباده » ..

فما هو الا أن قال لها ذلك حتى جف دمعها وهرب الدم من عروقها لهول ما سمعت . وحاولت أن تتكلم فعصى لسانها ، واذ ذاك تلفتت الى أبويها ، منتظرة أن يجيبا عنها رسولَ الله ..

واذ سكتا لا يحيران جوابا ، صاحت فيهما بملء عذابها :

ــ ألا تجيبان ؟ ..

قالا معا بصوت تخنقه العبرات :

ــ والله لا ندرى بم نجيب ! ..

فأسعفتها عيناها بفيض من الدمع أطفأ اللهب المشتعل فى كيانها ، ثم اتجهت الى زوجها الرسول تقول فى إصرار :

« والله لا أتوب الى الله مما ذكرتَ أبدا ، والله انى لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس ، والله يعلم أنى بريئة ، لأقولن ما لم يكن . ولئن أنا أنكرت ما يقولون ، لا تصدقونى » ..

وحاولت أن تتذكر اسم « يعقوب » لتتأسى به فما استطاعت ، واستطردت : « ولكن سأقول كما قال أبو يوسف : فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » ثم صمتت (٢) ..

فلم يبرح الرسول مجلسه عندها ، حتى تغشاه ما كان يتغشاه من نزول الوحى ، فسُجى بثوبه ، ووُضعت له وسادة من أدم تحت رأسه ..

وأمسك الأبوان أنفاسهما حتى ظنت عائشة لتخرجن نفساهما ، فرقا وقلقا ، وأما هى فما فزعت ولا خافت ، اذ كانت تعرف براءتها وتعلم أن الله عز وجل غير ظالمها ..

ثم سرى عن رسول الله ، فجلس يمسح العرق عن جبينه ويقول :

(١،٢) السمط الثمين ٦٧ ــ وتاريخ الطبرى ٦٧/٣

« أبشرى يا عائشة ، فقد أنزل الله براءتك ! »

وتنفس أبو بكر كمن أزيح عن صدره كابوس جاثم ، ووثبت أم رومان من مكانها وقد استخفها الفرح ، فأشارت الى عائشة أن تقوم الى زوجها ، فقالت عائشة فى عزة وإباء : « والله لا أقوم اليه ، فانى لا أحمد الا الله عز وجل ، هو الذى أنزل براءتى » (١) ..

ثم التفتت الى أبيها ، وهو يدنو منها فيقبل رأسها وعيناه نديتان بالدمع فرحا وانفعالا ، فقالت له : « يا أبتاه هلا كنت عذرتنى ! »

فأجاب : « أى سماء تظلنى وأى أرض تقلنى ان قلت بما لا أعلم ؟ »

أما زوجها الرسول ، فرنا اليها فى عطف وهو يتذكر ما كابدت من إفك ظالم ، ثم خرج الى المسجد وتلا على الناس من وحى الله :

« ان الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ، لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم ، لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم والذى تولّى كِبرَه منهم له عذاب عظيم . لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين . لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ، فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون . ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة ، لمسّكم فيما أفضتم فيه عذابٌ عظيم . إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم . ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ، سبحانك هذا بهتانٌ عظيم . يعِظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين . ويبين الله لكم الآيات ، والله عليم حكيم . ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذابٌ أليمٌ فى الدنيا والآخرة ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » (٢) ..

وجلِد الذين تقوّلوا بالفاحشة : « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء ، فاجلدوهم ثمانين جلدةً ولا تقبلوا لهم شهادةً أبدا ، وأولئك هم الفاسقون » (٣) ..

(١) السمط الثمين : ٦٧
(٢) سورة النور ، آيات : ١١ ، ١٩
(٣) سورة النور : آية ٤

# العروة الوثقى

وعادت السيدة « عائشة » الى مكانها فى بيت زوجها الرسول ، تحف بها هالة من آيات النور ، ويزدهيها النصر الإلهى الذى جعل براءتها قرآنا يتعبد به المسلمون ...

عادت لتستأنف حياتها الزوجية الحافلة ، وتمرح ما شاء لها صباها ودلالها فى ظل الحبيب ، وتباهى ضرائرها قائلة :

« أية امرأة كانت أحظى عند زوج منى ! » ..

ولا تفتأ تردد على مسامعهن قوله عليه الصلاة والسلام :

« حبك يا عائشة فى قلبى كالعروة الوثقى » ..

أو تنقل اليهن ما كان من سؤال عمرو بن العاص للرسول :

ـ يارسول الله ، من أحب الناس اليك ؟ ..

فأجاب الرسول : « عائشة » ..

قال عمرو :

ـ انما أقول من الرجال ..

فقال عليه الصلاة والسلام : « أبوها ! » (١) ..

وفى السيرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عندما خرج الى خيبر غازيا ، فى جمادى الأولى سنة سبع من مهاجره ـ بعد نحو عام من محنة الإفك ـ اتخذ رايته الأولى من بُرد لزوجته عائشة . روى « ابن سعد » فى غزوة خيبر : « ولم تكن الرايات الا يوم خيبر ، انما كانت الألوية ، فكانت راية النبى « صلى الله عليه وسلم » السوداء من برد لعائشة ، وتدعى العقاب ، ولواؤه أبيض ، ودفعه الى على بن أبى طالب » (٢)

---

(١) صحيح البخارى : ٢٠١/٢ ط الشرقية

(٢) الطبقات الكبرى : ٧٧/٢ ط ليدن

وكان المسلمون يعلمون حب نبيهم لعائشة وايثاره اياها ، فينتظرون حتى يكون فى بيتها ويبعثون اليه بالهدايا (١) . ومع أن المصطفى كان يرسل لكل واحدة من أزواجه نصيبها مما يتلقى وهو فى بيت عائشة ، الا أن الغيرة استفزتهن ، فتشاورن فى وضع حد لما يلقين من بنت أبى بكر

وانتهى بهن الرأى الى أن يلتمسن من « السيدة فاطمة الزهراء » مخاطبة أبيها صلى الله عليه وسلم فى الأمر ، واستجابت رضى الله عنها فدخلت على أبيها وعائشة عنده فقالت :

« يا أبى ، ان نساءك أرسلننى اليك ، وهن ينشدنك العدلَ فى ابنة أبى قحافة » ..

فسألها أبوها ، صلى الله عليه وسلم : (٢)

« أى بنية ، أتحبيننى ؟ » ..

فهتفت بملء ايمانها : بلى يا أبى ..

قال :

« فأحبيها » ..

وعادت الزهراء الى أزواج أبيها المصطفى ، فنقلت اليهن ما سمعت ، فألححن عليها أن تعاود الحديث فى الموضوع ثانية ، لكنها أبت أن تحدث أباها عليه الصلاة والسلام بما يكره ..

واخترن من بينهن احدى اثنتين ، هما أحب نساء الرسول اليه بعد عائشة : زينب بنت جحش ، أو أم سلمة (٣) . فتحدثت اليه صلى الله عليه وسلم فيما يشكو نساؤه ، مرة ثانية وثالثة ، الى أن قال :

« لا تؤذينى فى عائشة ... » (٤) ..

وهكذا رد المصطفى عن عائشة ضرائرها ..

---

(١، ٢، ٣) السمط الثمين للطبرى : ص ٤٠

(٤) المرجع نفسه ص : ٤١

وكذلك رد عنها « أبا بكر » حين كان يحاول فى عنف أن يخفف من غلوائها ..

وحين كانت الغيرة تشتط بها ، كان زوجها يوسع لها العذر فيقول :

« ويحها ، لو استطاعت ما فعلت ! » ..

وقد يسألها :

ـــ أغرتِ ؟ ..

فتجيب :

ـــ وما لى أن لا يغار مثلى على مثلك ؟ (١)

وصدقت « عائشة » ..

ووهم الذين ادعوا تجردها من البشرية وترفعهــا عن أهواء حواء وبراءتها من فطرة الأنثى ..

وأخطأت الزميلة « الدكتورة زاهية قدورة » ، حين قالت فى رسالتها عن « عائشة أم المؤمنين » : « ان الغيرة لم تكن لتتغلغل الى أعماقها ، بل كانت تقف عند الحدود التى تقضى بها قواعد الدين والعدل ... وان الأمر لم يكن ليدخل فى باب الخصومات الحزبية كما يحلو لبعض كتاب التاريخ الاسلامى من الافرنج أن يصــفوها (٢) .. ولعل ما يرد على هؤلاء ، ما رأيناه من صور الوفاق الرائع بين الضرائر ، وتفانيهن فى ارضاء زوجهن رسول الله » ..

سبحان الله ! ..

وهل كان تحزبهن فى قصة المغافير ، وتظاهرهن ضد مارية ، من صنع الفرنجة ؟ ..

أو كانت وصيتهن للعروس أن تستعيذ بالله اذا دخل عليها الرسول ، داخل ماتسميه الزميلة : الحدود التى تقضى بها قواعد الدين والعدل ؟

أو كان اتفاقهن على مغاضبة الرسول اذ خلا بمارية وهى حِل" له ،

---

(١) السمط الثمين : ٨٠

(٢) فى السمط الثمين للمحب الطبرى ص ٣٩ ، حديث عن عائشة رضى الله عنها ، ان نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم كن حزبين

من بين هذه الصور للاتفاق الرائع بين الضرائر ؟ ..

اللهم لا ، وانما كانت «عائشة» أنثى سليمة الفطرة ، ينزع بها ميراثها العاطفى الى حواء فتستجيب له دون أن تتكلف نفاقا أو مداراة ..

وما غيرتها المحتدمة العارمة ــ بعد هذا كله ــ الا مظهر حب عميق لزوجها ، ودليــل تعلق به عليه الصــلاة والسلام ، ورغبة لا تقــاوم فى الاستئثار به ..

ونظلمها ، ونظلم نبينا الكريم ، اذا تكلفنا نفى هــذه الغيرة عنهــا ووصفنا ما كان بينها وبين ضرائرها « بالاتفاق الرائع » ..

وما لها ألا يغار مثلها على مثله ! ؟

***

كانت السنوات التى تلت محنة الإفك حافلة بجليل الأحداث ..

وقد أقامت « عائشة » ما عاش الرسول تشهد أمجاده ، وتتلقاه عائدا مظفرا من غزواته ، وترقب دعوته وهى تنتشر وتمتد ، كنور الفجر يغزو الظلمات فتنجاب أمامه قطع الليل ..

# الوداع

ثم آن للبطل أن يستريح بعد حياة ناصبة مناضلة مجاهدة ..
لقد أبلغ الرسول رسالته ، وآن لمحمد البشر ، أن يرقد بعد طول نصب وسهاد ..
عاد من حجة الوداع الى « المدينة » فما أقام بها غير قليل حتى أرق ذات ليلة ، فخرج الى البقيع يحيى الراقدين هناك ..
فلما أصبح مرَّ بعائشة فى الغداة فوجدها تشكو صداعا وتئن متوجعة : وا رأساه ! ..
قال وقد بدأ يحس ألم المرض :
« بل أنا والله يا عائشة وا رأساه ! »
فلما كررت الشكوى داعبها بقوله :
« وما ضرك لو مُت قبلى فقمتُ عليك ، وكفنتك ، وصليت عليك ، ودفنتك ؟ »
فصاحت وقد هاجت غيرتها :
« ليكن ذلك حظ غيرى ! والله لكأنى بك لو قد فعلت ذلك ، لقد رجعتَ الى بيتى فأعرست فيه ببعض نسائك » (1)
فأشرق وجهه صلى الله عليه وسلم بابتسامة لطيفة ، وسكن عنه الألم هونا ما ، ثم قام يطوف بأزواجه ، لكن الألم ما لبث أن عاوده واشتد عليه ..
حتى اذا وصل فى طوافه الى بيت « ميمونة » لم يعد يحتمل مغالبة الوجع ، فنظر الى أزواجه وقد اجتمعن حوله ، ثم قال متسائلا :
« أين أنا غدا ؟ .. أين أنا بعد غد ؟ .. »
وأدركت نساؤه على الفور ما وراء سؤاله من تطلع الى يوم «عائشة»

---

(1) السمط الثمين : 55 والسيرة 4/ 292 – وتاريخ الطبرى : 3/191

فطابت نفوسهن بأن يُمَرَّض حيث أحب ، وقلن جميعا :

« يا رسول الله ، قد وهبنا أيامنا لعائشة » (١)

وانتقل المصطفى الى بيت زوجه الحبيبة ، فسهرت عليه تمرضه وبودها لو تفتديه بالروح ..

وحانت لحظة الرحيل ، ورأسه صلى الله عليه وسلم فى حجرها ..

قالت عائشة تصف اللحظة الرهيبة :

« وجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم يثقل فى حجرى ، فذهبت أنظر الى وجهه فاذا بصره قد شخص وهو يقول :

« بل الرفيق الأعلى من الجنة »

قلت : خُيِّرتَ فاخترت والذى بعثك بالحق ..

وقبض رسول الله بين سحرى ونحرى .. فمن سفهى وحداثة سنى انه صلى الله عليه وسلم قبض وهو فى حجرى ، ثم وضعت رأسه على وسادة وقمت ألتدم مع النساء وأضرب وجهى » (٢)

***

وكادت تكون فتنة ، عصم الله المسلمين منها حين ألهم « أبا بكر» أن يقف فى مسجد المدينة فيقول :

ــ أيها الناس ، انه من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حىّ لا يموت ..

ثم يتلو فيهم قوله تعالى فى كتابه المنزل على محمد بن عبد الله :

« وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزى الله الشاكرين » (٣)

فوالله لكأن الناس لم يعلموا ان هذه الآية نزلت ، حتى تلاها « أبو بكر » يومئذ !

---

(١) ابن هشام : السيرة ٢٩٢/٤ والسمط الثمين : ٥٥ . وفى تاريخ الطبرى انه صلى الله عليه وسلم استأذن نساءه ان يمرض فى بيت عائشة ، فاذن له « ١٩١/٢ »

(٢) تاريخ الطبرى : ١٨٧/٢ (٣) سورة آل عمران : اية ١٤٤

ودفن الرسول فى بيت « عائشة »
وتولى أبوها الخلافة من بعده ..

***

وعاشت « أم المؤمنين عائشة » لتكون المرجع الأول فى الحديث والسنة ، وليأخذ المسلمون عنها نصف دينهم كما أمر رسول الله ..

قال الامام « الزهرى » : لو جمع علم عائشة ، الى علم جميع أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، وعلم جميع النساء ، لكان علم عائشة أفضل (١)

وقال هشام بن عروة عن أبيه : « ما رأيت أحدا أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة » (٢)

عاشت لتصحح رأى الناس فى المرأة العربية ، وتعرض لها صورة أصيلة حية ، ستظل تبهر الدنيا ما أدبر ليل أو أقبل نهار ..

عاشت لتشارك فى حياة الاسلام أعنف مشاركة ، فتخوض معركة الفتنة الكبرى التى صنعت التاريخ الاسلامى منذ مقتل « عثمان بن عفان » رضى الله عنه ، وتقود الجيوش لمحاربة « على بن أبى طالب » كرم الله وجهه ..

***

ثم ماتت فى السادسة والستين من عمرها ، بعد أن تركت أعمق الآثار فى الحياة الفقهية والاجتماعية والسياسية للمسلمين ..

وكانت وفاتها ــ على الأرجح ــ ليلة الثلاثاء لسبع عشرة مضين من رمضان عام ثمانية وخمسين (٣) ..

وصلى عليها « أبو هريرة » ثم شيعت جنازتها فى غسق الليل الى البقيع ــ كما أوصت ــ على أضواء مشاعل من جريد مغموس فى الزيت ، وسارت الجموع من ورائها باكية معولة ، فلم تر ليلة أكثر ناسا منها..

وأودع جثمانها مع أمهات المؤمنين ، وقد ألغى الموت ما كان بينها وبينهن من غيرة وتنافس ، وأخمد الزمن ذاك اللهب الذى احتدم أعواما

---

(١،٢) الاستيعاب : ١٨٨٣/٤ والسمط الثمين ص ٨٢ – والاستيعاب ٨٨٥/٤؛

(٣) تاريخ الطبرى ، حوادث سنة ٥٨ هـ ..

في ذلك الكيان الرقيق اللطيف ..

وفي ( صحيح البخاري ) أن عائشة رضي الله تعالى عنها أوصت عبد الله ابن الزبير ، ابن أختها أسماء ، أن يدفنها مع صواحبها بالبقيع (١)

ونزل معها الى القبر ولدا أختها أسماء ذات النطاقين : عبد الله وعروة ابنا الزبير ، والقاسم وعبد الله ابنا أخيها محمد ، وعبد الله ابن أخيها عبد الرحمن (٢)

ونامت أخيرا ، وخلفت الدنيا من ورائها ساهرة فيها ، والتاريخ مشغولا برصد دقائق حياتها منذ كانت في السادسة من عمرها ، معنيا بتتبع حركاتها وسكناتها وكلماتها طوال الأعوام الستين التي عاشتها ملء الحياة !

---

(١) وانظر وصف قبرها وموضعه ، في « وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى » للسمهودي : ٩١٢/٣

(٢) تاريخ الطبري : مثله في الاستيعاب : ١٨٨٥/٤

الفصل الخامس

# حفصة بنت عُمر
## حافظة المصحف الشريف

« يا بنية ، لا يغرنك هذه التى أعجبها
حسنها وحب الرسول صلى الله عليه
وسلم لها ، والله لقد علمت أن رسول
الله لا يحبك ، ولولا أنا لطلقـك »

أبو حفصة
عمر بن الخطاب

## الارملة الشابة

لم يشهد « بدرا » من بنى سهم غير رجل واحد ، هو الصحابى الجليل « خنيس بن حـذافة بن قيس بن عدى السهمى القرشى » (١) وكان من أصحاب الهجرتين ، هاجر الى الحبشة مع المهاجرين الأولين اليها ، ثم الى المدينة ..

وقد شهد « أحدا » كذلك ، ثم مات بعدها فى دار الهجرة ، من جراحة أصابته فى « أحد » وترك من ورائه أرملته « حفصة بنت عمر ابن الخطاب » ..

وتألم « عمر » لابنته الشابة التى ترملت فى الثامنة عشرة من عمرها وأوجعه أن يلمح الترمل يغتال شبابها ويمتص حيويتها ويخنق صباها وبدأ يشعر بانقباض أليم كلما دخل بيته ، ورأى ابنته فى حزنها ، فبدا له — بعد تفكير طويل — أن يختار لها زوجا ، قد تأنس الى صحبته فتسترد بعض الذى أضاعت فى حداد استغرق ستة أشهر أو تزيد ..

ووقع اختياره على « أبى بكر بن قحافة » صفى الرسول وصهره ، وصاحبه الصديق ..

وارتاح للفكرة ، فان أبا بكر فى رزانة كهولته وسماحة خلقه ووداعة طبعه ، كفيل بأن يحتمل « حفصة » بما فى طبعهـا من حـدة مزاج ، وما ابتلاها به الترمل من كآبة وضجر ..

وأرضاه أن يصهر الى أحب رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يتردد عمر ، بل سـعى من فوره الى أبى بكر ، فحـدثه عن « حفصة » والصديق يصغى فى عطف ومواساة ..

ثم عرض عليه أن يتزوجهـا ، وفى يقينـه أن « أبا بكر » سيرحب بالشابة التقية ، ابنة الرجل الذى أعز الله الاسلام به ..

---

(١) انظر السيرة لابن هشام : ٦/٢، ٢٤١ وتاريخ الطبرى : ١٧٧/٢ — مع : طبقات ابن سعد ، والاصابة

وفى تاريخ وفاة « خنيس » خلاف ، انظره فى « وفاء الوفا للسمهودى » ٩٠٠/٢

لكن « أبا بكر » أمسك لا يجيب .. !

وانصرف « عمر » واجدا ، لا يكاد يصدق أن صاحبه رفض « حفصة » بعد أن عرضها أبوها عليه ..

وسارت به قدماه الى بيت «عثمان بن عفان» وكانت زوجته «رقية» بنت الرسول قد مرضت بالحصبة ـ بعد عودتها من الحبشة ـ والمسلمون يلقون عدوهم فى بدر ، ثم ماتت بعد أن تم النصر لأبيها والمؤمنين (١)

وتحدث عمر الى عثمان ، فعرض عليه « حفصة » وهو لايزال يحس مهانة الرفض من أبى بكر ، وان حاول جهده أن يكظم غيظه ، فلعل الله قد اختار لحفصة « عثمان » وهو ـ تعالى ـ يعلم أى الرجلين أصلح للأرملة الشابة ..

وكان جواب عثمان أن استمهله أياما ، جاءه بعدها فقال :

« ما أريد أن أتزوج اليوم ! » (٢)

فكاد « عمر » يتميز غيظا من قسوة الموقف ، ثم ثار به الغضب ، فانطلق الى الرسول يشكو صاحبيه ..

أمِثلُ حفصة ، فى شبابها وتقواها وشرفها ، ترفَض ؟

وممن ؟ من أبى بكر وعثمان ، صاحبى الرسول وصهريه ، وأولى المسلمين بأن يعرفا قدر عمر ، وأحق الصحابة بألا يردا مثله صهرا ؟

ودخل « عمر » على الرسول ، وما يملك نفسه من غضب وألم ، فتلقاه الرسول عليه الصلاة والسلام هاشا باشا ملاطفا ، وأقبل عليه يسأله فى عطف ومودة عما يؤلمه ..

ونفض « عمر » لدى الرسول الكريم ما يرهقه ويضنيه ، وكشف له عما كان من « أبى بكر بن أبى قحافة ، وعثمان بن عفان » ..

فتبسم المصطفى قائلا :

---

(١) انظر حديث السيدة رقية فى : « بنات النبى » ط دار الهلال

(٢) هذه رواية الاستيعاب « ٤\١٨١١ »وفى رواية ان عمر عرض حفصة على عثمان ثم على ابى بكر ـ رضى الله عنهم .. ارجع الى السمط الثمين ص ٨٣

« يتزوج حفصةَ من هو خير من عثمان ، ويتزوج عثمانُ من هى خير من حفصة » ..

وردّد عمر مأخوذا بروعة المفاجأة : « يتزوج حفصةَ من هو خير من عثمان ؟ » ..

وأشرقت فى خاطره لمحة مضيئة : أيتزوج الرسول من ابنته ؟
ذاك والله شرف لم تتطاول اليه أمانيه ..

ونهض الى الرسول يصافحه متهللا ، وقد زال عنه ما كان يجد من مهانة الرفض ..

وخرج مسرعا ليزف الى ابنته ، والى أبى بكر وعثمان ، والى المدينة كلها ، بشرى الخطبة المباركة ..

وكان أبو بكر أول من لقيه ، فما نظر اليه حتى أدرك على الفور سر تهلله وفرحته ، فمد يده مهنئا معتذرا يقول : (١)

« لا تَجِدْ علىَّ يا عمر ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذكر حفصة ، فلم أكن لأفشى سر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو تركها لتزوجتها » ..

ومضى كلاهما الى ابنته :
أبو بكر ليهون على « عائشة » من وقع الخبر ..
وعمر ليبشر « حفصة » بخير زوج ..

وباركت المدينة يد الرسول وهى تمتد لتكرم عمر بن الخطاب وتأسو جراح ابنته حفصة ..

كما باركت بعد قليل زواج عثمان من « أم كلثوم بنت محمد » فى جمادى الآخرة ، من السنة الثالثة للهجرة ..

وتهيأ بيت النبى لاستقبال « حفصة » التى تزوجها المصطفى ، عليه الصلاة والسلام ، فى شهر شعبان ، من تلك السنة (٢)

---

(١) السمط الثمين ٨٢ ــ والاستيعاب : ٤\١٨١١
(٢) تاريخ الطبرى : ٩/٣ . وفاء الوفا للسمهودى : ٣\٩٠٠

# السر المذاع

جاءت العروس ، وفى البيت « سودة » و « عائشة » ..

أما « سودة » فرحبت بها راضية ، وأما « عائشة » فغاظها أن يأتيها الرسول بضرة ، وما فعل ذلك قط مع « خديجة » ..

وضايقها ألا تجد فى « حفصـــة » مغمزا ، فهى مَنْ هى ، شــبابا وتقى ، وعزة نسب ..

لقد كانت عائشة تزهو على سودة وخديجة من قبلها ، بشبابها الدافق وأبيها الصديق ، وحظ «حفصة» من هذين ، ليس بالذى ينكر أو يجحد و « عائشة » كانت تضيق حين يمضى زوجها ليلة بعد أخرى فيبيت عند « سودة » التى ما اكترثت لها عائشة كثيرا ، فكيف يكون موقفها حين يبيت المصطفى عند حفصة ؟ ..

واحتارت ماذا تفعل ، اذ كانت تقدر مغزى زواج كهذا يرضى عمر ابن الخطاب ، ويباركه الإسلام والمسلمون ..

وسكتت على مضض وغيرة ، الى أن وفدت على بيت النبى زوجات جديدات ، فتناست « عائشة » ما كانت تجد من « حفصة » ، وحاولت أن ترى فيها أقرب ضرائرها اليها ، وأجدرهن بأن تقف معها فى وجه الخطر المشترك ..

وأدركت حفصة ، أنها اذا جاز لها أن تنكر ضرة لها ، فليس من الحق ولا من العدل أن تكون هــذه الضرة « عائشةَ » وقد سبقتها الى بيت زوجها ، والى قلبه ..

وربما جرح شـعورها أن تعرف حب المصطفى لعائشة ، لكنها حين تتابعت الضرائر : وقفت دون تردد ، الى جانب بنت أبى بكر ..

وكان « عمر » يرقب موقفها فى قلق مبهم ، فيريبه هذا التقارب ــ غير الطبيعى ــ بين ابنته وبين بنت أبى بكر ، حتى اذا استبان له ما وراء

تقاربهما من ائتمار بالزوجات الأخريات ، كره لحفصة أن تساير صاحبتها وليس لها مثلُ حظها من حب الرسول ولامكانتها من قلبه . فأقبل على ابنته يحذرها أن تتشبه بالحسناء المدللة ، ويردها عن جموحها بمثل قوله :

« أين أنتِ من عائشة ، وأين أبوك من أبيها ؟ »

واذ يسمع يوما من زوجته أن ابنته تراجع الرسول حتى يظل يومه غضبـان ، ينطلق من فوره حتى يدخل عليها فيسألها ان كان ما سمعه حقا ؟ وإذ أجابت بأنه حق ، صاح يزجرها :

ـ تعلمين انى أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله ، يابنية ، لايغرنّك هذه التى أعجبها حسنها وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم لها ، والله لقد علمت أن الرسول لا يحبك ، ولولا أنا لطلقك ! »

ويمضى عن « حفصة » وفى حسابه أنه قد ردها الى ما ينبغى لها من خضوع ومجاملة ، لكنها كانت معتدة بذاتها مدلّة بشخصيتها ، لا ترى فى منزلة عائشة أو سواها مايجور على مكانتها ، أو مايلزمها بأن تتكلف ما ليس فى طبعها . بل تركت نفسها على سجيتها ، فلم تكن تتحرج من معارضة زوجها الرسول حين يبدو له من الأمر ما لايرضيها ، وربما سمعت منه حديثا فردت عليه غير متهيبة اذا بدا لها وجه آخر فيما يقول ، روى « ابن سعد » فى حديث الحديبية وبيعة الرضوان ، أن الرسول صلى الله عليه وسلم ذكر عند حفصة أصحابه الذين بايعوه تحت شجرة الحديبية فقال : « لايدخل النار ان شاء الله أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها » قالت حفصة : « بلى يارسول الله ! » فانتهرها فتلت الآية : « وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا » . فتلا النبى صلى الله عليه وسلم ، الآية بعدها : « ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا » [١]

ولعل إباءها هو الذى فرض عليها أن تدارى غيرتها من « عائشة » عسى أن تلتمس فى صحبة هذه الشابة المرحة ، ومشاركتها فى معاركها الصغيرة ومؤامراتها الذكية ، ما يشغلها عن ذاك الهم المطوى ..

---

(١) الطبقات الكبرى : ٧٣/٢ ط ليدن ـ والآيتان من سورة مريم : ٧١ ، ٧٢

ويرخى لهما المصطفى ما استطاع ، ويشفع لهما عنده أنوثة ضعيفة تستثير رحمته ، وبنوتهما لأعز صاحبين ..

***

حتى خلا يوما بمارية فى بيت « حفصة » فعاد جرحها يقطر دما ؛ وتمثل لها أبوها يقول :

« والله لقد علمت أن رسول الله لا يحبك ، ولولاى لطلقك ! »

فلما انصرفت « مارية » دخلت « حفصة » حجرتها وقالت لزوجها : « لقد رأيتُ من كان عندك ، ولله لقد سببتنى ، وما كنت لتصنعها لولا هوانى عليك ! » .. ثم استعبرت باكية .. (١)

ووقعت كلمتها من الرسول موقعا أليما ، فما كان ليهين بنت عمر ، وقد تزوجها تكريما لصاحبه ..

وأقبل عليها يترضاها (٢) ، وهان عليه أن يُسِرَّ إليها أن « مارية » حرام عليه ، فلتتناسَ « حفصة » ما كان ، ولتعتبره كأن لم يكن ..

ورضيت « حفصة » ..

وسعدت ليلتهـا بقرب زوجها وعطفه ، حتى اذا مضى عنها الغداةَ ولمحت « عائشة » قريبا منها ، لم تستطع أن تكتم عنها ما تطوى من سر خطير ، فنبأت به صاحبتها التى انتهزت الفرصة السانحة ، لتنال من غريمتها « الأمة القبطية » ..

ولم تقدر « حفصة » وهى تذيع السر لعائشة ، انها بسبيل اشعال نار فى بيت الرسول ، فإن عائشة لم تهدأ حتى جمعت نساء النبى فى مظاهرة ثائرة بمارية ، مصرّة على ألا يبقى لها فى مدينة الرسول مكان

وتلا ذلك ما نقلنا عند الحديث عن عائشة (٣) ، من اعتزال الرسول نساءه مدى شهر من الزمان ، شاع فيه انه صلى الله عليه وسلم مطلّق أزواجه ..

---

(١ ، ٢) السمط الثمين : ٨٥

(٣) ص ٨٧ : ٨٩

والذى يعنينا هنا ، هو ما يتصل بحفصة وأبيها « عمر » فقد كانت هى التى نبأت بالسر الذى أوصاها الرسول أن تكتمه ، فأشعلت النار من حيث لا تدرى ولا تقدر ..

فيقال إن الرسول طلّق « حفصة » فعلا ، وهو خبر يرويه « ابن حجر » (١) من طرق شتى ، اتفقت على أن الرسول طلّق « حفصة » تطليقة واحدة ، ثم ارتجعها ..

وفى هذا الارتجاع تختلف الروايات ، فتذهب رواية الى أن ذلك كان رحمة بعمر الذى حثا التراب على رأسه وقال : « ما يعبأ الله بعمر وابنته بعدها » . فنزل جبريل من الغد على النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « ان الله يأمرك أن تراجع حفصة رحمة بعمر » ..

وفى رواية أخرى ، ان جبريل نزل على الرسول فقال له :

« أرجع حفصة فإنها صوامة قوامة ، وانها زوجتك فى الجنة » .(٢)

والراجح أن هذا الطلاق والارتجاع ، قد كانا قبل أن تستفحل ثورة « عائشة » ومن معها من نساء النبى ؛ فلما اعتزلهن الرسول ، كان من الطبيعى أن يكون احساس « حفصة » بالندم أقوى من احساس أمهات المؤمنين الأخريات ، وشعورها بالخطأ فى حق زوجها ، أفدح من شعورهن . فما كان لها ــ وهى التقية العابدة ، بنت عمر بن الخطاب ــ أن تذيع سرا ائتمنها عليه رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وأن تخلف ما وعدت به من كتمان ، ولا كان لها أن تلقى ترضية المصطفى لها ، واكرامه إياها ، بمثل ذاك الجحود والنكران ..

وفى الاصابة (٣) :

« دخل عمر على ابنته وهى تبكى فقال :

ــ لعل رسول الله قد طلّقك ؟ انه كان قد طلقك مرة ثم راجعك من أجلى ، فإن كان طلّقك مرة أخرى لا أكلمك أبدا ..

(١) الاصابة: ٥٢/٨ ــ وانظر معه الاستيعاب ١٨١٢/٤ .
(٢) جاءت الروايتان فى السمط الثمين : ٨٥ ، والاستيعاب : ١٨١٢/٤
(٣) الجزء الثامن : ص ٥٢

وخرج الى المسجد قلقا ، فألفى المسلمين هناك ينكتون الحصا مطرقين ويقولون : طلّق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه ..

ولم يكن أحد قبل ذلك قد جرؤ على أن يكلم الرسول عليه الصلاة والسلام فيهن منذ اعتزلهن . لكن « عمر » ــ وابنته هى السبب ــ لم يطق على ذلك صبرا ، بل قصد الى الخزانة التى يقيم بها الرسول ، وغلامه « رباح » قائم على عتبتها ، فاستأذن عمر فى الدخول على الرسول ، وكرر النداء ، و « رباح » لا يجيب ..

هنالك رفع « عمر » صوته وقال فى ضراعة وأسى :

« يا رباح ، استأذن لى عندك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنى أظنه ظن انى جئت من أجل حفصة .. والله لئن أمرنى بضرب عنقها لأضربن عنقها » ..

وبلغ صوته سمع الرسول فتأثر ، وأذن له فدخل ، وأجال بصره فى الخزانة وبكى ..

قال الرسول : ما يبكيك يا ابن الخطاب ؟ ..

فأشار « عمر » الى الحصير الذى كان الرسول مضطجعا عليه وقد أثر فى جنبه ، والى قبضة من شعير ومثلها من قرظ ، كانتا كل ما بالخزانة من طعام ..

ثم أمسك عبرته وقال :

ــ يارسول الله ، ما يشق عليك من أمر النساء ؟ ان كنتَ طلّقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل ، وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك ..

فابتسم له المصطفى ، ورد اليه طمأنينته ، فما طلّق نساءه وإنما هجرهن شهرا ..

ورُدّت الروح الى « عمر » ، فاستأذن رسول الله ، عليه الصلاة والسلام ، ونزل الى المسجد فنادى بأعلى صوته ، يعلن البشرى :

« لم يطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه » ..

وجاء الرسول صلى الله عليه وسلم من بعده فتلا قوله تعالى :

« يأيها النبى لم تحـــرم ما أحل الله لك تبتغى مرضاة أزواجك والله غفور رحيم . قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم . وإذ أسرَّ النبى الى بعض أزواجه حديثا فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرَّف بعضه وأعرض عن بعض ، فلما نبأها به قالت من أنبأك هــذا قال نبأنى العليم الخبير . إن تتوبا الى الله فقد صغت قلوبــكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير . عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا » (١)

---

(١) سورة التحريم : الايات ١ : ٥ وانظر الاقوال الاخرى فى سبب النزول ، فى تفسير الطبرى ، وفى الكشاف للزمخشرى ، الجزء الرابع ط مصر

## الوديعة الغالية

وعت نساء النبى هذا الدرس ، وثابت « حفصة » الى طمأنينتها وقد كادت تهلك أسى وندما ..

ولا نعرف انها من ذلك الحين ، قد اشتركت فى مؤامرة نسوية ببيت زوجها ، أو تسببت له فيما يكره ما عاش ، فلما انتقل صلى الله عليه وسلم الى جوار ربه الأعلى كانت « حفصة » هى التى اختيرت من بين أمهات المؤمنين جميعا ، وفيهن عائشة ، لتحفظ النسخة الخطية للمصحف الشريف ..

ذلك ان « عمر » نصح « أبا بكر : خليفة الرسول » أن يبادر فيجمع ما تفرق من القرآن الكريم فى صحف شتى ، قبل أن يبعد العهد بنزوله ، ويمضى حفظته الأولون ..

فاستجاب « أبو بكر » ، وجمع المصحف الكريم وأودعه عند أم المؤمنين « حفصة بنت عمر » ..

وبقى المصحف لديها فى مأمن ، حتى أخذه أمير المؤمنين « عثمان بن عفان » فى خلافته ، فنسخ منه النسخ الأربع التى وزعت على الأمصار، وأمر بإحراق ما عداها ، حسما لما يحتمل من اختلاف المسلمين فى قراءة كتاب الاسلام ..

وتفرغت « حفصة » من بعد ذلك للعبادة ، حتى اذا كانت « الفتنة » وتهيأت « عائشة » للخروج من مكة ، فى الجيش المطالب بدم عثمان ، أرادت أن تصحب « حفصة » معها ، فكرهت هذه أن ترد طلبا للزميلة التى آثرتها بمودتها حين جمعهما بيت النبى ، وتهيأت لمصاحبتها ثم عادت فعدلت عن الخروج فى الفتنة ، بعد أن حذرها أخوها « عبد الله ابن عمر » من هذا الخروج ..

وعاشت صوامة قوامة ، حتى ماتت فى أخريات عهد « عثمان » أو فى السنين الأولى من عهد « معاوية » (١)

ودُفنت بالبقيع ، فى مقبرة أمهات المؤمنين (٢)

وخلدت فى التاريخ : أم المؤمنين الحافظة لأول نسخة من المصحف الشريف ، كتاب الإسلام ، ومعجزة نبيه عليه الصلاة والسلام .

---

(١) رواية الواقدى انها ماتت رضى الله عنها فى شعبان سنة ٥٤ ؛ وفى رواية اخرى اوردها المحب الطبرى فى السمط : ٨٦ ، انها ماتت سنة احدى واربعين ، وقيل ماتت فى خلافة عثمان رضى الله عنه — وانظر الاستيعاب: ١٨١٢/٤

(٢) السمهودى : وفاء الوفا ٩١١/٣

الفصل السادس

# زينب بنت خُزيمة
## أم المساكين

« وكانت تسمى أم المساكين ،
لرحمتها إياهم ، ورقتها عليهم .. »
ابن هشام : السيرة النبوية

لم يكن قد مضى على مجىء « حفصة » الى بيت النبى غير وقت قصير ، حين وفدت زوجة رابعة ، كانت هى أيضا أرملة شـهيد كريم من شهداء « أحد » ..

تلك هى « أم المؤمنين ، زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبد الله بن عمرو بن عبد مناف بن هلال بن عامر بن صعصعة » (١)

ويبدو أن قصر مقامها فى بيت الرسول صلى الله عليه وسلم ، قد صرف عنها كتّاب السيرة والتاريخ ، فلم يصل الينا من أخبارها سوى بضع روايات متناثرة شتى ، لا تسلم من تناقض واختلاف ..

وكأنما كان الذى يعنى المؤرخين من أمرها ، انها زينب بنت خزيمة الهلالية العامرية ، وقد استشهد زوجها فى « أحد » فتزوجها النبى صلى الله عليه وسلم ثم لم تلبث أن ماتت ..

أما اسم الزوج الذى استشهد ومات عنها فيختلفون فيه :

قيل هو « عبد الله بن جحش » ابن عمة الرسول وأخو زوجته زينب (٢)

وقيل : « كانت عند الطفيل بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف » (٣)

وأضاف ابن حجر وابن عبد البر : « ثم خلف عليها شقيقه عبيدة ابن الحارث » ..

وفى رواية ثالثة : « كانت قبل الرسول عند عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف ، وكانت قبل عبيدة عند جهم بن عمرو بن الحارث ، وهو ابن عمها » (٤) ..

---

(١) الاصابة والاستيعاب . وانظر جمهرة انساب العرب « ٢٦٢ » وتاريخ الطبرى : ٣/١٧٩
(٢) ابن حجر : الاصابة ٨/٩٤ وابن عبدالبر فى : الاستيعاب ٤/١٨٥٢
(٣) تاريخ الطبرى : ٣/٣٣ ، ١٧٩ — والاصابة ٨/٩٤٤ — والسمط الثمين : ١١٢
(٤) السيرة لابن هشام : ٤/٢٩٧

واختلفوا كذلك فى وقت استشهاد زوجها :

ففى « الاصابة » انه عبد الله بن جحش ، وقد استشهد « بأحد »

وعن « ابن الكلبى » : كانت عند الطفيل بن الحارث فطلقها ، فخلفه عليها أخوه فقتل عنها ببدر ، فخطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم

وفى الطبرى :

« وفى هذه السنة — الرابعة — تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت خزيمة من بنى هلال ، فى شهر رمضان .. وكانت قبله عند الطفيل بن الحارث فطلقها » (١) ..

واختلفوا مرة ثالثة فيمن تولى زواجها من الرسول :

عن ابن هشام :

« زوجه إياها عمها : قبيصة بن عمرو الهلالى ، وأصدقها الرسول أربعمائة درهم » (٢)

وعن « ابن الكلبى » أن الرسول خطبها الى نفسها فجعلت أمرها اليه فتزوجها ..

واختلفوا رابعة فى المدة التى أقامتها ببيت النبى :

ففى الاصابة رواية تقول : « كان دخوله صلى الله عليه وسلم بها ، بعد دخوله على حفصة بنت عمر ، ثم لم تلبث عنده شهرين أو ثلاثة وماتت » ..

ورواية أخرى عن ابن الكلبى :

« فتزوجها فى شهر رمضان سنة ثلاث ، فأقامت عنده ثمانية أشهر وماتت فى ربيع الآخر سنة أربع » ..

ويقول ابن العماد :

---

(١) تاريخ الطبرى ٣٢/٢ ، وانظر ايضا : ١٧٩/٢

(٢) السيرة : ٢٩٦/٤

« وفيها ــ يعنى السنة الثالثة ــ دخل بزينب بنت خزيمة العامرية ، أم المساكين ، وعاشت عنده ثلاثة أشهر ثم توفيت » (١) ..

ولم تكن عناية المحدثين بتتبع أخبارها وتحقيق هذا الاختلاف فيها ، أكثر من عناية الأقدمين : يجزم « الدكتور هيكل » بأنها قد كانت زوجا لعبيدة بن المطلب الذى استشهد يوم بدر، فلم تلبث إلا سنة أو سنتين ، ثم قبضها الله فكانت بعد خديجة ، الوحيدة من أزواج النبى التى توفيت قبله » (٢) ..

وينقل بودلى :

« .. تبع زواجَ محمد من حفصة زواجٌ آخر ، وكان زواجا شكليا أكثر من أى شىء آخر . كانت العروس أرملة عبيدة بن الحارث ــ ابن عم لمحمد سقط فى بدر ــ وكان اسمها زينب بنت خزيمة ، وما ضمها محمد الى نسائه إلا بدافع الشفقة ، وما اهتمت عائشة أو حفصة بها أبدا ، وماتت بعد زواجها بثمانية أشهر » (٣) ..

ومرّ آخرون بزينب ، فلم يذكروها فى كثير أو قليل ..

***

على انه مهما يختلف المؤرخون وكتّاب السيرة فى أمر زينب بنت خزيمة ، فقد اتفقوا جميعا على شىء واحد لم يختلف فيه اثنان : ذاك هو وصفها بالطيبة والكرم والعطف على الفقراء ، ولا يكاد يعرض اسمها فى أى كتاب مما أوردنا إلا مقرونا بلقبها الكريم : أم المساكين فيقول ابن هشام :

« وكانت تسمى أم المساكين لرحمتها إياهم ورقتها عليهم » (٤)

وفى الاصابة : (٥)

(١) شذرات الذهب : اخبار السنة الثالثة
(٢) حياة محمد : ٢٨٨ ــ وانظر تاريخ الطبرى : ١٧٦/٣
(٣) الرسول : ١٧٦ من الترجمة العربية
(٤) السيرة : ٢٩٦/٤
(٥) الجزء ٩٢/٨

« وكان يقال لها أم المساكين ، لأنها كانت تطعمهم وتتصدق عليهم » ومثل ذلك فى الطبرى (١) وشذرات الذهب (٢) والاستيعاب (٣) ..

وقال بودلى : « وكانت طيبة خيرة » ..

وذكر الدكتور هيكل : « ولم تكن ذات جمال ، وانما عرفت بطيبتها وإحسانها حتى لقبت بأم المساكين » ..

ولا بد لى من أن أشير هنا الى مقال كتبه « الشيخ محمد المدنى » فى مجلة الرسالة — عدد ١١٠٣ تاريخ ١٩٦٥/٣/٤ — جاء فيه ما نصه : « وكانت زينب بنت جحش رضى الله عنها هى أجودهن — يعنى أزواج النبى — وأبرهن باليتامى والمساكين ... حتى كانت تعرف بأم المساكين »

ولست أدرى من أين جاء رحمه الله بهذا اللقب للسيدة زينب بنت جحش ، فكل مصادرنا عن السيرة وطبقات الصحابة وكتب التاريخ الاسلامى الأولى ، تجمع على أن لقب أم المساكين انما كان للسيدة « زينب بنت خزيمة » ! ..

***

والراجح أنها ماتت فى الثلاثين من عمرها كما ذكر « الواقدى » ونقل « ابن حجر » فى الاصابة ، وهى سن رآها المحدثون « متوسطة قد تخطت الشباب » ..

ويفوتهم أن حكمهم عليها بتخطى الشباب وهى بعد فى الثلاثين أو ما حولها ، يكفى ردا على ما أطالوا فى الحديث فيه من طفولة « عائشة » !

***

ولو حاولنا أن نسأل كتب السيرة والتراجم مزيدا من أخبار «زينب» فى بيت المصطفى ، لما ظفرنا وراء ذلك بشىء ذى بال ، فحسبنا أن تتمثلها

---

(١) ٢٢/٢

(٢) ١٠/١

(٣) جـ ٤ ص ١٨٥٢ ط نهضة مصر ، وانظر معها : طبقات ابن سعد ، والسمط الثمين

هناك قريرة العين بما نالت من شرف الزواج بالنبى وأمومة المؤمنين ، منصرفة عن شواغل الحريم ، بما كان يشغلها من أمر المساكين ، قانعة بما ينالها من تقدير الرسول ، لايرهقها طمع ولا تنهكها غيرة ..

ولم تطل المقام هناك ، بل مرت رضى الله عنها كطيف عابر ، ثم رقدت فى سلام كما عاشت فى سلام ، وخلدت فى تاريخ الاسلام أما للمؤمنين ، وأما للمساكين ...

***

# أم سَلمَة

## بنت زاد الركب

« لما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم سلمة ، حزنت حزنا شديدا لما ذكر لنا من جمالها .. فتلطفت حتى رأيتها .. فرأيت والله أضعاف ما وُصِفت به »

عائشة بنت ابى بكر
أم المؤمنين

# العزة والجمال

خلا بيت « أم المساكين » فى دور النبى، وقتا غير قصير، حتى جاءت « أم سلمة » فشغلته ..

قالت، فيما روى ابن سعد فى ( طبقاته ) :

«. . . فتزوجنى، فنقلنى الى بيت زينب بنت خزيمة، أم المساكين»

واسمها : هند بنت أبى أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم : القرشية المخزومية (١) ..

ودخل بها الرسول فى شهر شوال من السنة الرابعة للهجرة، كما نقل الطبرى (٢) ..

وأحدث دخولها ضجة فى دور النبى، وأشاع قلقا فى الزوجتين الشابتين، « عائشة وحفصة، ابنتى أبى بكر وعمر » ..

ولمَ لا، وهذه زوج جديدة عزيزة، عريقة المنبت، ذات جمال وإباء وفطنة، تزفها الى بيت النبى أمجاد طوال عراض ..

أبوها : أحد أبناء قريش المعدودين، وأجوادهم المشهورين، وقد ذهب دونهم على الدهر بلقب « زاد الركب » أن كان اذا سافر لا يترك أحدا يرافقه ومعه زاد، بل يكفى رفقته من الزاد ..

وأمها : عاتكة بنت عامر بن ربيعة بن مالك بن جذيمة الكنانية، من بنى فراس الأمجاد. وكان جدها جذيمة بن علقمة، يلقب بجذل الطعان(٣)

وزوجها الذى مات عنها قبل أن يتزوجها الرسول : أبوسلمة، عبد الله ابن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، الصحابى ذو الهجرتين، ابن عمة الرسول : برة بنت عبد المطلب بن هاشم، وأخوه

---

(١) معه، ابن هشام : السيرة ١/د٣٤٥، ٤/٢٩٤وتاريخ الطبرى٣/١٧٧ - ونسب قريش١٦

(٢) تاريخ الطبرى : ٣/٤٢

(٣) السمط الثمين : ٨٦ - ونسب قريش : ٢١٦

ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الرضاعة ، أرضعتهما ثويبة ، مولاة أبى لهب (١) ..

وكان لأبى سلمة ، ولزوجه هند ، الى جانب هذا النسب العريق ، ماض مجيد فى الاسلام ، فقد كانا من بين السابقين الأولين ، وهاجرا معا الى الحبشة حيث وَلدت هند هناك ابنهما « سلمة » وبه كانا يُكنيان (٢)

ثم قدما مكة ، حتى ضاقت بالمسلمين وألحّت فى اضطهادهم ، فأجمع « أبو سلمة » أمره على أن يهاجر ثانية فيخرج بأهله الى يثرب ، فكانت قصة خروجهما مأساة لا تزال ـ على بعد العهد بها وتطاول الآماد ـ مثيرة أليمة الوقع ..

ولندع « أم سلمة » تروى المأساة فتقول : (٣)

« . . . لما أجمع أبو سلمة للخروج الى المدينة ، رحل بعيرا له وحملنى وحمل معى ابنى سلمة ، ثم خرج يقود بعيره ، فلما رآه رجال من قومى ، بنى المغيرة ، قاموا اليه فقالوا :

ـ هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتنا هذه ، علام نتركك تسير بها فى البلاد ؟

ونزعوا خطام البعير من يده وأخذونى ، فغضب عند ذلك بنو عبد الأسد ، وأهووا الى ولدنا سلمة وقالوا لرهط زوجى :

ـ والله لا نترك ابننا عندها اذ نزعتموها من صاحبنا ..

فتجاذبوا ابنى سلمة حتى خلعوا يده ، وانطلق به رهط أبيه ، وحبسنى بنو المغيرة عندهم ..

ومضى زوجى أبو سلمة حتى لحق بالمدينة . وفرّق بينى وبين زوجى

---

(١) السيرة : ١٠٢/٢ والاستيعاب « ٦٣٩ ، ١٦٨٢ » وانظر معهما : جمهرة انساب العرب « ١٣٤ » ونسب قريش «٣٣٧»
(٢) السيرة ٣٤٥/١
(٣) ابن هشام : السيرة ١١٢/٢ ، والسمط الثمين ٨٧

وابنى ، فكنت أخرج كل غداة وأجلس بالأبطح ، فما أزال أبكى حتى أمسى ، سنةً أو قريبا منها ..

حتى مرَّ بى رجل من بنى عمى ، أحد بنى المغيرة ، فرأى ما بى ، فرحمنى فقال لبنى المغيرة :

ــ ألا تخرجون هذه المسكينة ؟ فرقتم بينها وبين زوجها وبين ابنها !
وما زال بهم حتى قالوا :

ــ الحقى بزوجك ان شئت ..

وردَّ علىَّ بنو أسدٍ عند ذلك ابنى ، فرحلتُ بعيرى ووضعت ابنى فى حجرى ثم خرجت أريد زوجى بالمدينة ، وما معى أحد من خلق الله ..
حتى اذا كنت بالتنعيم ــ على فرسخين من مكة ــ لقيت عثمان بن طلحة (١) فقال :

ــ أين يا بنت أبى أمية ؟ ..

قلت : أريد زوجى بالمدينة ..

فقال : هل معك أحد ؟ ..

فقلت : لا والله ، إلا الله وابنى هذا ..

فقال : والله ما لك من مَتْرَك ..

وأخذ بخطام البعير فانطلق معى يقودنى ، فوالله ما صحبت رجلا من العرب أراه كان أكرم منه . اذا نزل المنزل أناخ بى ثم تنحى الى شجرة فاضطجع تحتها ، فإذا دنا الرواح قام الى بعيرى فقدمه ورحله ، ثم استأخر عنى وقال : اركبى ..

فإذا ركبت واستويت على بعيرى ، أتى فأخذ بخطامه فقاد حتى ينزل بى . فلم يزل يصنع ذلك حتى قدم بى المدينة ، فلما نظر الى قرية بنى

---

(١) كان عثمان يومئذ على كفره ، وانما أسلم فى هدنة الحديبية ، وهاجر قبل الفتح مع خالد بن الوليد . فلما فتحت مكة ، دفع الرسول مفاتيح الكعبة الى عثمان بن طلحة والى عمه شيبة ابن عثمان بن ابى طلحة
وقتل عثمان شهيدا باجنادين فى خلافة عمر . الروض الانف : ٢٨٥/١ وانظر ترجمته فى الطبقات ، والاصابة ، والاستيعاب .

عمر بن عوف بقباء ــ وكان بها منزل أبى سلمة فى مهاجره ــ قال :

ــ ان زوجك فى هذه القرية ، فادخليها على بركة الله ..

ثم انصرف راجعا الى مكة.(١) ..

فكانت أم سلمة ــ بين المهاجرات ــ أول ظعينة دخلت المدينة ، كما كانت أول مسلمة هاجرت الى الحبشة (٢) ..

وكذلك كان زوجها أبو سلمة ، عبد الله بن عبد الأسد المخزومى ، أول من هاجر الى يثرب من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣)

وفى المدينة عكفت على تربية صغارها (٤) وتفرغ زوجها للجهاد

ولما خرج الرسول فى غزوة ذى العشيرة ــ فى جمادى الأولى من السنة الثانية للهجرة ، وهى الغزوة التى وادع فيها بنى مدلج وحلفاءهم بنى ضمرة ــ اختار من بين أصحابه أبا سلمة ، فاستعمله على المدينة (٥)

وشهد مع الرسول صلى الله عليه وسلم غزوة « بدر » الكبرى ، فكان أحد ثلاثمائة وأربعة عشر رجلا ، تم بهم النصر على أضعافهم من المشركين، فى أولى المعارك الحاسمة بين الوثنية والتوحيد ..

وحين طمع الطامعون فى محمد والاسلام عقب موقعة « أحد » وبلغ المصطفى بعد شهرين اثنين من المعركة ، أن بنى أسد يدعون الى مهاجمة محمد فى داره بالمدينة ، دعا صلى الله عليه وسلم « أبا سلمة » فعقد له لواء

---

(١) السيرة ١١٢/٢ والاصابة : ٢٤٠/٨ ــ والاستيعاب : ١٩٣٩\٤

(٢) الاصابة : ٢٤٠\٨ والاستيعاب ١٩٣٩\٤

(٣) السيرة : ١١٢/٢

(٤) لا خلاف فى أنها ولدت لابى سلمة ، ولديه سلمة وعمر ، وفى الطبرى «١٧٧\٣» أنها ولدت له كذلك بنتيه زينب وبرة . ومثله فى جمهرة الانساب «١٣٤» ونسب قريش «٣٣٧» لكن جاء فى ترجمة زينب بنت أبى سلمة بالاستيعاب «١٨٥٥\٤» انها قالت : كان اسمى برة ، فسمانى رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب .

(٥) السيرة : ٢٤٨\٢ ، وتاريخ الطبرى ، حوادث السنة الثانية للهجرة ــ والاستيعاب : ١٦٨٢/٤ .

وانظر غزوة ذى العشيرة فى طبقات ابن سعد ٤/٢ ليدن

سرية عدتها مائة وخمسون رجلا ، فيهم أبو عبيدة بن الجراح وسـعد ابن أبى وقاص ..

ونفذ الفارس « أبو سلمة » ما أمر به الرسول من أخذ العدو على غرة ، فأحاط بهم فى عماية الصبح على غير أهبة منهم لنضال ، وقاد جولة نافرة ، ثم رجع وصحبه الى المدينة غانمين ، قد أعادوا بعض ما ضيعت « أحد » من هيبة المسلمين (١) ..

وكان « أبو سلمة » يقود سريته وفيه جرح خطير أصابه يوم «أحد» ثم التأم التئاما سطحيا ، فلما أجهده النضال مع بنى أسد ، عاد الجرح فنغر وظل به حتى قضى عليه ..

وحضره النبى صلى الله عليه وسلم وهو على فراش موته ، وبقى الى جانبه يدعو له بخير حتى مات ، فأسبل بيده الكريمة عينيه ، وكبّر عليه تسع تكبيرات ..

قيل له : يارسول الله ، أسهوت أم نسيت ؟ ..

فأجاب : لم أسه ولم أنس ، ولو كبّرتُ على أبى سلمة ألفا ، كان أهلا لذاك (٢) ..

وترك من بعده ، « أم سلمة ، هند بنت زاد الركب » أولى المهاجرات الى الحبشة ثم الى المدينة ..

***

تلبث كبار الصحابة حتى انتهت عدة « أم سلمة » فتقدم اليها منهم « أبو بكر الصديق » خاطبا ، فرفضت فى رفق ..

وتلاه « عمر بن الخطاب » فلم يكن حظه منها غير حظ صاحبه ..

ومن بعدهما ، بعث اليها المصطفى يخطبها ، فتمنت لو يتاح لها ذاك الشرف العظيم ، لكنها أشفقت ـ وقد جاوزت سن الشباب ، ومعها عيال لها صغار ـ ألا تملأ مكانها فى بيت النبى ، الى جانب عائشة وحفصة

(١) طبقات ابن سعد : ٢\٣٥

(٢) تاريخ الطبرى : ١٧٧/٢ والاصابة : ٨\٢٤٠

وأرسلت الى المصطفى تعتذر وتقول : إننى غَيرى ، مُسنّة .. ذات عيال ..

فأجاب محمد عليه الصلاة والسلام :

ــ أما انك مسنّة ، فأنا أكبر منك ، وأما الغيرة فيذهبها الله عنك ، وأما العيال فإلى الله ورسوله (١) ..

***

وتم الزواج ..

وتكلفت « عائشة وحفصة » ما أطاقتا من شجاعة ، لتستقبلا الزوج الجديدة بشيء من المجاملة ، لكن « عائشة » لم تطق صبرا على هـذا التكلف ، فكشفت لحفصة عما تطوى من ألم وغيرة ، وفى ذلك تقول عائشة :

« لما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم سلمة ، حزنت حزنا شديدا لما ذكر لنا من جمالها . فتلطفت حتى رأيتها فرأيت والله أضعاف ما وُصِفتْ به ، فذكرتُ ذلك لحفصة فقالت : ما هى كما يقال » وذكرتْ كبر سنها ..

فرأيتها بعد ذلك فكانت كما قالت حفصة ، ولكنى كنت غيرَى » (٢)

وما من شك فى أن « أم سلمة » قد سرَّها أن تلمح تأثير دخولها على عائشة ، الزوج المفضلة ، ولعلها ــ لذلك ــ قد رضيت أن تبعث بطفلتها « زينب » الى حاضنة ، كى تفرغ لزوجها المصطفى ..

وكانت قد جاءت بها صغيرة الى بيت النبى ، فبقيت معها حتى جاء عمار بن ياسر ــ أخو هند من الرضاعة ــ فانتزعها من حجرها قائلا لها :

« دعيها فقد آذيت بها رسول الله صلى الله عليه وسلم » (٣) ..

وفى « الاصابة » أن رسول الله كان يأتى أم سلمة فيقول : « أين زناب ؟ » ..

---

(١) السمط الثمين : ٨٩ ــ (٢) الاصابة ٢٤١/٨
(٣) السيرة : ٢\١٧١ والسمط الثمين ٩٠

ـ تدليلا للصغيرة ـ حتى جاء عمار بن ياسر فقال : « هذه تمنع رسول الله حاجته » (١) ..

***

وبدا واضحا أن « أم سلمة » تعرف لنفسها قدرها ، وتأبى على « عائشة » أو سواها المساس بكرامتها ، وقد أعزها مجد عتيق موروث وآخر حديث مكتسب ..

وكذلك أبت على « عمر » أن يتكلم فى مراجعة أمهات المؤمنين لزوجهن الرسول ، وقالت له منكرة :

« عجبا لك يا ابن الخطاب ، قد دخلت فى كل شىء حتى تبتغى أن تدخل بين رسول الله وأزواجه ؟ »

وما قالت كلمتها هذه إلا وهى مدلة بمكانها عند زوجها الرسول وفى بيته ، فقد كان صلى الله عليه وسلم يعدها من أهله : حدثوا أنه كان يوما عندها وابنتها زينب هناك ، فجاءته الزهراء مع ولديها الحسن والحسين رضى الله عنهم ، فضمهما اليه ، ثم قال : « رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت انه حميد مجيد » فبكت أم سلمة ، فنظر اليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وسألها فى حنو : ما يبكيك ؟ .. أجابت : يارسول الله خصصتَهم ، وتركتنى وابنتى . قال : انك وابنتك من أهل البيت (٢)

وقد شبّت زينب فى رعاية النبى « فكانت من أفقه نساء أهل زمانها » ويروى أنها « دخلت على النبى صلى الله عليه وسلم وهو يغتسل فنضح فى وجهها ، فلم يزل ماء الشباب فى وجهها حتى كبرت وعجزت» (٣)

وبلغ من إعزازه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لربيبه « سلمة » أن اختاره زوجا لابنة عمه « حمزة : سيد الشهداء » (٤)

---

(١) الاصابة : الجزء الثامن ص ٢٤٠
(٢) السمط الثمين ٢
(٣) الاستيعاب : ٤/١٨٥٥
(٤) تاريخ الطبرى : ٢/١٧٧ ط مصر ـ السمط الثمين ١٦ ـ وجمهرة انساب العرب « ١٢٤ » ونسب قريش « ٣٣٧ »

وكان الوحي ينزل على رسول الله فى بيت « عائشة » فتباهى بذلك ضرائرها ، حتى جاءت « أم سلمة بنت زاد الركب » فأوحى الى الرسول وهو عندها قوله تعالى :

« وآخرون اعترفوا بذنوبهم ، خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ، عسى الله أن يتوب عليهم ، إن الله غفور رحيم » (١)

وفى سبب نزول الآية :

حدثوا أن الرسول عليه الصلاة والسلام حين غزا بنى قريظة فى السنة الخامسة للهجرة ، وحاصرهم حتى جهدهم الحصار ، قذف الله فى قلوبهم الرعب فبعثوا الى رسول الله أن يرسل اليهم صاحبه « أبا لبابة بن عبد المنذر » ليستشيروه فى أمرهم . فأرسله المصطفى اليهم ، فلما رأوه قام اليه الرجال ، وجهش اليه النساء والصبيان يبكون فى وجهه ، فرقّ لهم ..

وسألوه : يا أبا لبابة ، أترى أن ننزل على حكم محمد ؟ ..

فأجاب : « نعم ، انه الذبح » . وأشار بيده الى حلقه ..

فما زالت قدماه من مكانهما حتى عرف انه خان الله ورسوله ..

وانطلق على وجهه ، فربط نفسه الى عمود من عمد المسجد ، وقال :

« لا أبرح مكانى هذا حتى يتوب الله علىّ مما صنعت » ..

وبلغ رسول الله خبره ــ وكان قد استبطأه ــ فقال عليه الصلاة والسلام :

« أما انه لو جاءنى لاستغفرت له ، فأما اذ فعل ما فعل فما أنا بالذى أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه » (٢) ..

روى ابن هشام : (٣)

« . . أقام أبو لبابة مرتبطا بالجذع ست ليال ، تأتيه امرأته فى كل وقت صلاة فتحله للصلاة ، ثم يعود فيرتبط بالجذع .. »

« حتى نزلت توبة أبى لبابة على رسول الله صلى الله عليه وسلم من السحر وهو فى بيت أم سلمة ، فقالت ، وقد سمعته يضحك :

---

(١) سورة التوبة : اية ١٠٢
(٢) تاريخ الطبرى : حوادث السنة الخامسة للهجرة « ٣/٥٤ ط مصر »
(٣) السيرة : ٣\٢٤

ــ مم تضحك يارسول الله أضحك الله سنك ؟ ..

قال : تيب على أبى لبابة ..

قالت : أفلا أبشره يا رسول الله ؟ ..

فقال : بلى ، ان شئت ..

فقامت على باب حجرتها ، وذلك قبل أن يضرب الحجاب على أمهات المؤمنين ، فقالت :

ــ يا أبا لبابة ، أبشر فقد تاب الله عليك ..

فثار الناس ليطلقوه ، فأبى وقال : لا والله حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يطلقنى بيده ..

فلما مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم خارجا الى صلاة الصبح أطلقه .. »

***

وفى العام السادس للهجرة ، صحبت « أم سلمة » زوجها المصطفى فى رحلته الى « مكة » ، وهى الرحلة التى صدت فيها قريش «محمدا» وأتباعه عن دخول البلد الحرام ، وتم عهد الحديبية الذى نزلت فيه سورة الفتح ..

وكان « لأم سلمة » فى « هدنة الحديبية » دور جليل لم ينسه لها تاريخ الاسلام (١) ..

ذلك أن كثيرا من الصحابة ، لم يرضوا عن شروط عهد الحديبية ، ظنا منهم انه بخس المسلمين حقهم وهم المنتصرون الغالبون . ويكفى أن نذكر ان عمر بن الخطاب ــ حين تم الاتفاق على شروط الصلح ولم يبق الا أن يكتب ــ وثب فأتى أبا بكر يسأله :

« أليس برسول الله ؟

« أو لسنا بالمسلمين ؟

« أو ليسوا بالمشركين ؟

---

(١) تاريخ الطبرى : ٣/٨٠ ــ والسمط الثمين : ٦٥

فيجيب أبو بكر فى كل مرة : بلى ..

قال عمر : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟

فحذره أبو بكر ثم قال :

« انى أشهد أنه رسول الله »

قال عمر :

« وأنا أشهد أنه رسول الله »

ثم مضى « عمر » فأتى الرسولَ صلى الله عليه وسلم ، فسأله مثل ما سأل أبا بكر ، حتى اذا بلغ قوله :

« فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ »

أجابه الرسول :

« أنا عبد الله ورسوله ، ولن أخالف أمره ، ولن يضيعنى » (١)

واستفحل الأمر الى حد منذر بخطر ، حتى ان المصطفى أمر أصحابه أن يقوموا فينحروا ثم يحلقوا ، فما قام منهم رجل ، فعل ذلك ثلاث مرات وما منهم من يستجيب . فدخل على زوجه « أم سلمة » فذكر لها ما لقى من الناس فقالت :

« يا نبى الله ، أتحب ذلك ؟ .. اخرج ثم لا تكلم أحدا منهم كلمة حتى تنحر بدنتك وتدعو حالقك فيحلقك »

وأصغى المصطفى لمشورتها ، فخرج فلم يكلم أحدا منهم كلمة حتى نحر وحلق ، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما وندما (٢)

وأدرك المسلمون ما كان قد غاب عنهم من حكمة هذا الصلح ، وانه ما فتح فى الاسلام فتح قبله كان أعظم منه ، فلقد دخل فى دين محمد بعد الحديبية ، مثل من كان قبل ذلك وأكثر ..

---

(١) ابن هشام : السيرة ١٣١/٣ - وتاريخ الطبرى : ٧٩/٣

(٢) تاريخ الطبرى :حوادث السنة السادسة للهجرة ( ٨٠\٢ ط مصر )

وصحبت «أم سلمة» زوجها الرسول فى غزوة خيبر كذلك ، وفى خروجه لفتح مكة ، ثم فى حصاره الطائف (١) وغزوة هوازن وثقيف ، حتى اذا عادت الى المدينة فى السنة الثامنة للهجرة ، أثارت نساء النبى غيرتها على « مارية » وما زلن بها الى أن استجابت لمنافستها الأولى «عائشة» ورضيت أن تظاهرها على الكيد « لمارية » ..

ووضعت « مارية » غلامها ابراهيم — رضى الله عنه — فى السنة الثامنة للهجرة ، ورأت « أم سلمة » و « عائشة » و « حفصة » و«زينب» وسائر نساء النبى ، مبلغ فرح والده به ، فكانت المغاضبة التى حملت الرسول على اعتزالهن شهرا ..

وساد الهدوء بيت النبى بعد تلك العاصفة ، حتى اذا مرض ، عليه الصلاة والسلام ، أذنت له « أم سلمة » وسائر أزواجه رضى الله عنهن ، أن يمرض صلى الله عليه وسلم حيث أحب ، فى بيت « عائشة » ..

---

(١) المرجع نفسه : حوادث السنة الثامنة للهجرة ( ٢/ ٨٠ ط مصر )

## الله من وراء هذه الأمة

بعد أن لحق المصطفى بالرفيق الأعلى ، حاولت أم المؤمنين « أم سلمة » أن تتجنب الخوض فى الحياة العامة ، الى أن كانت الفتنة الكبرى فاندفعت بالرغم منها تؤازر الإمام على : ابن عم الرسول ، وزوج ابنته الزهراء ، وأبا الحسن والحسين ..

وودت لو تخرج فتنصره ، لكنها كرهت أن تبتلى ، وهى أم المؤمنين ، بمثل ذاك الخروج ، فجاءت «عليا» كرم الله وجهه وقدمت اليه ابنها عمر قائلة :

« يا أمير المؤمنين ، لولا أن أعصى الله عز وجل ، وإنك لا تقبله منى لخرجت معك . وهذا ابنى عمر ، والله لهو أعز على من نفسى ، يخرج معك فيشهد مشاهدك » (١)

ثم مضت الى « عائشة » فقالت لها فى عنف وانكار :

« أى خروج هذا الذى تخرجين ؟ .. الله من وراء هذه الأمة ! .. لو سرتُ مسيرك هذا ثم قيل لى : ادخلى الفردوس ، لاستحييت أن ألقى محمدا هاتكة حجابا قد ضربه على» ..

***

لكن « عائشة » مضت فى طريقها لا تلوى على شىء ..

وتقدم العمر بأم سلمة حتى امتحنت ، كما امتحن الاسلام كله ، بمأساة « كربلاء » ومذبحة أهل بيت الرسول هناك ، وتقول رواية انها ماتت فى آخر سنة احدى وستين بعد ما جاءها نعى الشهيد الإمام الحسين ابن على (٢)

وقيل بل امتد بها الأجل عاما آخر ، وماتت حين سمعت بالجيش الذى

---

(١) الاصابة ٨\٢٤١ (٢) الاصابة ٨\٢٤١

جهزه « يزيد بن معاوية » للفتك بآل على فى «المدينة» سنة ثلاث وستين

وشيع المسلمون بنت زاد الركب ، آخر من مات من نساء النبى ، وصلى عليها « أبو هريرة » الصحابى الجليل ، ودفنت بالبقيع (١) ، ولم يبق بعدها من أمهات المؤمنين غير ذكرى وتاريخ !

---

(١) انظر فى قبرها ، «وفاء الوفا للسمهودى» ٢/٩١٢

# شريفة ومولى

حين دخلت « أم سلمة » بيت النبى ، وتحدثت « عائشة » الى « حفصة » عما تجد من لواذع الغيرة والألم لما رأت من جمال العروس ، لفتتها « حفصة » الى أنها على جمالها كبيرة السن ، ثم أوصتها أن تستبقى غيرتها لمن هى أولى ..

وكأنما كانت « حفصة » تنطق بظهر الغيب ، فما مضى على زواج المصطفى من « أم سلمة » غير عام أو بعض عام (1) ، حتى دخلت بيته من هى أولى بغيرة « عائشة » ..

دخلته « زينب بنت جحش » الشابة الشريفة الحسناء ، سليلة بنى أسد بن خزيمة المضرى (2) ، وحفيدة عبد المطلب ، وابنة عمة محمد صلى الله عليه وسلم (3) ..

وصفتها الرواية بأنها «كانت بيضاء سمينة من أتم نساء قريش» (4) وكانت معتزة بهذا الجمال ، كما كانت معتزة بنسبها الرفيع (5) ..

***

ولو كانت « زينب » قد جاءت معتزة بجمالها وشبابها وقرابتها للرسول فحسب ، لكانت بهذا كله كفيلة بأن تثير غيرة من فى بيت النبى من زوجات ، فكيف وقد كان زواجها من الرسول أمرا سماويا ، ووحيا من عند الله جل فى علاه ؟ ..

ولا نعرف من بين أمهات المؤمنين من شغل زواجها مدينة الرسول مثل « زينب بنت جحش » ، ذلك لما سبق هذا الزواج ، وأحاط به ، من

---

(1) تزوج الرسول ام سلمة فى شوال من السنة الرابعة ، وتزوج زينب فى السنة الخامسة: الطبرى ٣\٤٢

(2) جمهرة انساب العرب : ١٨٠

(3) أمها : اميمة بنت عبد المطلب بن هاشم ـ انظر نسب قريش ص ١٩

(4) السمط الثمين : ١٠٧

(5) السمط الثمين : ١١٢

# زينب بنت جَحش
## الشريفة الحسناء

« يا رسـول الله .. ما أنا كإحـدى نسائك : ليست امرأة منهن إلا زوجها أبوها أو أخوها أو أهلها .. غيرى .. زوجنيك الله من السماء .. »

زينب بنت جحش
أم المؤمنين

ظروف خاصة ، وما أثاره من شبهة وخلاف ، حسمهما القرآن بوحي منزل

ولبيان هذا لابد من استطراد يسير ، نرجع به الى ما قبل المبعث ، حين رجع « حكيم بن حزام بن خويلد » من رحلة له بالشام ، ومعه رقيق ، فيهم غلام يدعى زيدا ..

وما كان « زيد » عبدا ، وانما هو « زيد بن حارثة بن شراحيل بن كعب » من بني زيد اللات ، خرجت به أمه « سعدى بنت ثعلبة » لتزيره أهلها بني معن بن طيىء ، فأصابته خيل لبني القين بن جسر ، فباعوه بسوق من أسواق العرب ، وكان حكيم بن حزام هو الذى اشتراه (١)

وجاءت « خديجة » — وهي يومئذ زوج محمد بن عبد الله — تزور ابن أخيها ، فعزم عليها أن تختار من شاءت من الغلمان ، فأخذت « زيدا » وعادت به الى بيتها . ورآه سيدنا « محمد » فاستوهبه منها فوهبته له راضية (٢) ..

وكان أبوه « حارثة » قد جزع عليه أشد الجزع ، وخرج يلتمسه حتى سمع بمكانه فى مكة ، فانطلق مع أخيه « كعب » حتى وقفا على محمد ابن عبد الله بن عبد المطلب . فقالا له :

« يا ابن عبد المطلب ، يا ابن سيد قومه ، أنتم جيران الله ، تفكون العانى وتطعمون الجائع ، وقد جئتك فى ابننا ، فتحسن الينا فى فدائه ؟ »

سأل المصطفى :

« أو غير ذلك ؟ »

قالا :

« ما هو ؟ » ..

أجاب :

« أدعوه وأخَيِّره ، فإن اختاركما فذاك ، وان اختارنى فوالله ما أنا

---

(١) انظر تفصيل الخبر فى السيرة : ٢\٢٦٤ .

(٢) هذه رواية ابن هشام فى السيرة ٢/٢٦٤ — وفى السمط الثمين رواية اخرى ان محمدا صلى الله عليه وسلم اشترى زيدا فى الجاهلية ، فى سوق عكاظ ، ثم اعتقه وتبناه — ص ١٠٨

بالذى أختار على من اختارنى أحدا » ..

قالا معا :

« قد زدتَ على النصفة » ..

ودعِى زيد ، فعرف أباه وعمه ، وخيّره الرسول : ان شاء ذهب معهما وان شاء أقام معه ..

فاختار سيده ! ..

وتوسل اليه أبوه بصوت متهدج :

« يا زيد ، أتختار العبودية على أبيك وأمك ، وبلدك ، وقومك ؟ »

فتماسك « زيد » ليجيب :

« انى قد رأيت من هذا الرجل شيئا ، وما أنا بالذى أفارقه أبدا »

فعند ذلك أخذ محمد بيده ، وقام به الى الملأ من قريش فأشهدهم أن زيدا ابنه وارثا وموروثا ..

ودعى الغلام « زيد بن محمد » ..

وكان أول من أسلم ، بعد « على بن أبى طالب » (١) ..

وعندما هاجر المصطفى عليه الصلاة والسلام الى المدينة ، وآخى بين أصحابه ، كان زيد وحمزة عم الرسول ، أخوين (٢) ..

وبلغ « زيد » سن الزواج ، فاختار له الرسول « زينب » بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب ..

وكرهت زينب ، وكره أخوها « عبد الله بن جحش » ، أن تزف الشريفة القرشية ، الى مولى من الموالى ..

وفزعا الى الرسول يسألانه ألا يلحق بهما مثل ذلك العار ، فما كانت بنات الأشراف ليتزوجن من موالٍ وان أعتقوا .. وقالت زينب فيما قالت يومئذ : « لا أتزوجه أبدا .. » (٣) ..

فحدثهما الرسول عن مكان « زيد » منه ومن الإسلام ، وعن صراحة

---

(١) السيرة : ٢/٢٦٤ — وتاريخ الطبرى ٢\٢١٥

(٢) السيرة : ٢/١٥١

(٣) السمط الثمين : ١١٢

نسَبه فى العرب ، لكنهما ـ على حبهما لرسول الله وحرصهما على طاعته ـ لم يسيغا الموقف ، حتى نزل فيهما قوله تعالى :

« وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا » (١)

وتزوجت « زينب » زيدا ..

وتم للرسول ما أراد من تحطيم فوارق الطبقات ، وإعلاء كلمة الاسلام

***

لكن حياة الزوجين لم تصفُ لهما ، فما نسيت « زينب » قط أنها الشريفة لم يجر عليها رق ، ولا أساغت لحظة أن تكون تحت مولى كهذا ، دخل بيتَ آلها رقيقا ! ..

وقاسى « زيد » من صدها وإبائها وترفعها ما شق عليه ، فشكا الى رسول الله عليه الصلاة والسلام ، غير مرة ، ما يجد من سوء معاملة زينب ، والرسول يطلب اليه مزيدا من الصبر والاحتمال ، ويأمره أن « أمسِكْ عليك زوجَك واتق الله .. » (٢)

ثم حدث ما يرويه « الطبرى » بسند مرفوع الى محمد بن يحيى بن حبان ، أن الرسول افتقد زيدا فجاء منزله يطلبه ، فهرعت « زينب » تستقبله ، وقد أعجلتها اللهفة ، فقالت :

« ليس هو ها هنا يارسول الله ، فادخل بأبى أنت وأمى » (٣)

وفى رواية أخرى ، نقلها الطبرى كذلك : « ان الرسول جاء يطلب زيدا وعلى باب زينب ستر من شعر ، فرفعت الريح الستر فانكشف عنها وهى فى حجرتها حاسرة ، فوقع اعجابها فى قلب الرسول صلى الله عليه وسلم » (٤) ..

ودعته الى الدخول فأبى ، وولى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو

---

(١) سورة الاحزاب : آية ٣٦

(٢) الآية : « واذ تقول للذى انعم الله عليه وانعمت عليه : امسك عليك زوجك .. » سورة الاحزاب آية ٣٧

(٣) تاريخ الطبرى ٢/٣/٤٢ ـ وانظر كذلك السمط الثمين ص ١٠٧

(٤) تاريخ الطبرى : ٣\٢٣\٤ ط مصر

يهمهم بكلمات ميزت فيها زينب قوله : « سبحان الله العظيم ، سبحان الله مصرف القلوب » ..

وأقامت « زينب » فى مكانها تفكر فيما سمعت من قول ابن خالها ، حتى جاء « زيد » فكان أول ما لقيته به ، أن الرسول أتى منزله .

سألها زيد :

« ألا قلت له : ادخل .. ؟ »

فأجابت :

« بلى ، قد عرضت عليه ذلك فأبى »

واستطرد « زيد » مستفسرا :

« فسمعته يقول شيئا ؟ »

قالت :

« سمعته يقول حين ولّى : سبحان الله العظيم ، سبحان الله مصرف القلوب » (١)

فأطرق « زيد » برهة ، ثم خرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

« يارســـول الله ، بلغنى أنك جئت منزلى ، فهلا دخلت بأبى أنت وأمى ؟ »

ثم أضاف متسائلا :

« فأفارقها ؟ »

فقال الرسول :

« مالك ؟ أرابك منها شىء ؟ »

فأجاب زيد :

« لا والله يارســـول الله ، ما رابنى منها شىء ولا رأيت الا خيرا ، ولكنها تتعظم علىَّ لشرفها ، وان فيها كبرا ، تؤذينى بلسانها » (٢)

---

(١) الحوار بنصه من تاريخ الطبرى : ٤٢/٣
(٢) تاريخ الطبرى ٤٢/٣ والسمط الثمين : ١٠٧

قال المصطفى ، عليه الصلاة والسلام : « أمسك عليك زوجك » .. وأذعن زيد ، وعاد ليجرب الاحتمال من جديد ، ويكابد مزيدا من الشقاء ..

لكن زينب هجرته ، فما استطاع اليها سبيلا بعد ذلك اليوم [١] حتى نفد احتماله ففارقها وكان الطلاق [٢] ..

---

(١) العبارات بنصها ، من تاريخ الطبرى ٣/ ٤٣
(٢) السمط الثمين : ١٠٧ وتاريخ الطبرى ٣/ ٤٣

## زواج بأمر الوحى

وأحس محمد — صلى الله عليه وسلم — عطفا غلابا على الشابة التى أكرهت على الزواج ممن لا ترضى إذعانا لأمر الله ورسوله ، وود لو يستطيع أن يجبر خاطرها المكسور بزواج غير موفق ، كان هو الذى اختاره وأنفذه . وحدثته نفسه أن يتزوجها ، ولكن كيف ؟ أو لم يعلن فى الملأ من قريش ان زيدا ابنه ؟ .. فماذا يقول الناس اذا تزوج ممن كانت زوجة ابنه ؟ .. وهل تراهم يصغون إليه اذا ذكرهم بأن المتبنى غير الابن ، وقد جرت تقاليدهم على أن يلصقوا المتبنى بأبيه ، ويجعلوا له حقوق الابن وحرمة النسب ؟ ..

وآثر « محمد بن عبد الله » أن يكتم رغبته ، وأن يقاوم عطفه على بنت عمته التى انتزعها زهرة غضة من أشرف بيت فى مضر ، فزفها بالرغم منها الى زوج ملصق ، يدعى لغير أبيه ! ..

فبينا هو صلى الله عليه وسلم يتحدث مع عائشة ، اذ أخذته غشية الوحى ، ثم سرى عنه وهو يتبسم ويقول :

— من يذهب الى زينب يبشرها بأن الله زوجنيها ؟ (١)

وتلا — عليه الصلاة والسلام — ما أنزل اليه من وحى الله :

«واذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله ، وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ، فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطرا ، وكان أمر الله مفعولا » (٢)

قالت « عائشة » : فأخذنى ما قرُب وما بعُد ، لما يبلغنا من جمالها ،

---

(١) تاريخ الطبرى : ٣/٤٣

(٢) سورة الاحزاب : آية ٣٧

وأخرى هى أعظم الأمور وأشرفها ، ما صنع الله لها : زوجها .. فقلت : تفخر علينا بهذا » (١)

وكان زيد يدعى « زيد بن محمد » حتى نزلت الآية :

« ... وما جعل أدعياءكم أبناءكم ، ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل . ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ، فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم ، وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم ، وكان الله غفورا رحيما .. »

فدُعى من يومئذ : زيد بن حارثة (٢)

***

هذه هى آيات القرآن ، كتاب ديننا ، فى هذا الزواج .

وتلك هى قصة زينب ، نقلناها من تاريخ الطبرى ، وكتب السيرة وطبقات الصحابة ، لم نكد نتصرف فيها بكلمة . ولست أدرى ما الذى أنكره « الدكتور هيكل» منها حتى اندفع يردها الى مفتريات المستشرقين والمبشرين « الذين أضفوا عليها من أستار الخيال ، حتى جعلوها قصة غرام ووله » ، ثم يقول : « ويكفى لهدم كل القصة من أساسها ، أن تعلم أن زينب بنت جحش هذه ، هى ابنة عمة رسول الله عليه السلام ، وأنها ربيت بعينه وعنايته .. وانه كان يعرفها ويعرف أهى ذات مفاتن أم لا قبل أن تتزوج زيدا ، وانه شهدها فى نموها تحبو من الطفولة الى الصبا الى الشباب ، وانه هو الذى خطبها على زيد مولاه . اذا عرفت ذلك تداعت أمام نظرك كل تلك الخيالات والأقاصيص ، من انه مرّ ببيت زيد ولم يكن فيه فرأى زينب فبهره حسنها وقال : سبحان مقلب القلوب . أو انه لما فتح باب « زيد » عبث الهواء بالستار على غرفة «زينب» فألفاها فى قميصها وكأنها «مدام ريكاميه» فانقلب فجأة ونسى سودة ، وعائشة ، وحفصة ، وزينب بنت مخزوم ، وأم سلمة ، ونسى كذلك ذكر خديجة» (٣)

---

(١) العبارة بنصها منقولة من تاريخ الطبرى ٣/٤٣

(٢) الاستيعاب : ٤٪١٨٥٠ والاية من سورة الاحزاب ( ٥ ، ٦ )

(٣) حياة محمد : ٢٩١ وقوله : « وزينب بنت مخزوم » لم أدر ما وجهه . والذى فى : الاصابة لابن حجر ( ٨/٩٤ ) والسيرة لابن هشام ( ٤/٢٩٧ ) وتاريخ الطبرى ( ٣/٣٣ ) والاستيعاب ( جـ : ٨ ) والسمط الثمين ( ١١٢ ) : « زينب بنت خزيمة : أم المساكين »

وعند الدكتور هيكل ، ان زواج الرسول من زينب لم يدفع اليه ميل ولا عاطفة ، وانما أراد أن يأتمر بحكم الله فيما أبطل من الحقوق المقررة للتبني والادعاء ، ثم أشفق مما يمكن أن يقول الناس فى خرقه لعادة لهم قديمة متأصلة ، فلم يرضَ له الله أن يخفى فى نفسه ما الله مبديه ، ويخشى الناس والله أحق أن يخشاه ..

وأضاف الدكتور هيكل :

« أفيبقى بعد ذلك أثر لهذه الأقاصيص التى يكررها المستشرقون والمبشرون ..

« ولكنها شهوة التبشير المكشوف تارة ، والتبشير باسم العلم تارة أخرى ، والخصومة القديمة للاسلام تأصلت فى النفوس منذ الحروب الصليبية ، هى التى تملى على هؤلاء جميعا ما يكتبون ، وتجعلهم فى أمر زواج النبى ، وفى أمر زواجه من زينب بنت جحش ، يتجنون على التاريخ ويلتمسون أضعف الرواية فيه مما دس عليه ونسب اليه » [1] ..

ومن الحق أن القصة فى جوهرها لم تكن قط « قصة غرام ووله » وآيات القرآن فيها ، تشهد بأن المصطفى عليه الصلاة والسلام تحرج من هذا الزواج ، خشية أن يقول الناس : تزوج ممن كانت زوجا لولده بالتبنى . لكن ماذا عن المرويات الإسلامية فى الستر من الشعر الذى رفعته الريح ، وانصراف الرسول عن بيت زيد وهو يقول : « سبحان الله مقلب القلوب » وقد كتبت هذه المرويات قبل أن تسمع الدنيا بالحروب الصليبية ، بأقلام نفر من مؤرخى الإسلام ورواة السيرة والمفسرين ، لا ترقى اليهم شبهة اتهام بعداء النبى والدس على الإسلام ؟ » [2]

***

ثم فلننظر : هل فيها ما يريب ؟ ..

ان آية المظمة فى شخصية نبينا عليه الصلاة والسلام ، انه بشر يأكل

---

(١) حياة محمد : ص ٢٩٣ ، ٢٩٤

(٢) راجعها بالتفصيل فى السيرة النبويه وطبقات ابن سعد ، ثم فى تاريخ الطبرى : ٣ ٤٢ ، ٤٣ ، وفى السمط الثمين ١٠٧

مع تفسير الطبرى ، وكشاف الزمخشرى : سورة الاحزاب

الطعام ويمشى فى الأسواق ، وما نعرف فى تاريخ الأبطال ــ ولا أقول الأنبياء ــ من أصرّ على تقرير بشريته إصرار « محمد بن عبد الله » ولا عرفت الانسانية كتابا مُنَزلا ، يجعل من بشرية المبعوث به أصلا من أصول العقيدة ، وقرآنا يتعبد به المؤمنون ، كما فعل كتاب الإسلام ..

ولن يكون أحدنا مؤمنا وهو ينكر هذه البشرية وينزه عنها رسولا أوحى اليه : « قل انما أنا بشر مثلكم » . « قل سبحان ربى ، هل كنت إلا بشرا رسولا » [1] فقالها ، ثم اعتز بأنه ابن امرأة من قريش تأكل القديد ..

أفينكر على بشر رسول ، أن يرى شقاء زينب بزيد ، وشقاء زيد بها ، فيرق قلبه لبنت عمه ، ولمن اتخذه ولدا ؟

وماذا يطلب من مثله ، فى سمو خلقه وعفة ضميره ، أكثر من أن يشيح بوجهه عمن رق قلبه لها ، وهو يسبّح باسم الله العظيم ، مقلب القلوب ؟

وأى ضبط للنفس ينتظر من بشر رسول ، أكثر من أن يجيئه زيد فيستأذنه من جديد فى طلاقها ، فيأبى عليه إلا أن يمسكها ويتقى الله ! ؟

ان القصة ــ وقد نقلها الينا رواة غير متهمين ــ لترتفع برسولنا عليه الصلاة والسلام الى أقصى ما تطيقه بشرية من عفة وضبط للنفس وكبح للهوى ، وانها لجديرة بأن تعد مفخرة لمحمد والإسلام ، فما ادعى نبينا قط أن قلبه بيده يصرفه حيث شاء ، ولا زعم مرة ، انه مبرأ من عواطف البشر منزه عن أهوائهم ، وقد كان يقول فى إيثاره عائشة على غيرها من زوجاته اللاتى أمره ربه بالعدل بينهن :

« اللهم هذا قسمى فيما أملك ، فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك »

فكيف نخاف عليه لوما ان رق قلبه لزينب ، ثم أبى مع ذلك الا أن يأمر زوجها بإمساكها ، على ما يعرف من شقائهما بهذا الإمساك ؟ ..

من نحو تسعة قرون ، كتب « الزمخشرى » يفسر قوله تعالى :

« وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه »

---

(١) انظر آيات : الكهف ١١١ ، الاسراء ٩٣ ، القمر ٣٤ ، فصلت ٦ ، الانبياء ٣٤ ومعها ابراهيم ١١ ، الشورى ٥١

« ان رسول الله أبصر زينب بعد ما أنكحها زيدا فوقعت فى نفسه ، فقال : سبحان الله مقلب القلوب . وذلك ان نفسه كانت تجفو عنها قبل ذلك لا تريدها ، ولو أرادتها لاختطبها ..

« فإن قلت : ما الذى أخفى فى نفسه ؟ قلت : تعلق قلبه بها ، وقيل مودة مفارقة زيد إياها ...

« فإن قلت : كيف عاتبه الله فى ستر ما استهجن التصريح به ، وما له لم يعاتبه فى نفس الأمر ، ولم يأمره بقمع الشهوة وكف النفس عن أن تنازع على زينب وتتبعها ، ولم يعصم نبيه صلى الله عليه وسلم عن تعلق الهجنة به وما يعرضه للقالة ؟ قلت : كم من شىء يحتفظ منه الانسان ويستحى من اطلاع النـاس عليه وهو فى نفسه مباح متسع وحلال مطلق ، لا مقال فيه ولا عيب عند الله ... لأن طموح قلب الانسان الى بعض مشتهياته غير موصـوف بالقبح فى العقل ولا فى الشرع ، لأنه ليس بفعل الانسان ، ولا وجوده باختياره » (١) ..

فإن يكن أعداء الإسلام من المبشرين ومتعصبى المستشرقين ، قد تعلقوا بهذا التأويل ومثله ، فليس لنا أن نتهمهم بافترائه ونسجه من الخيال بعد الحروب الصليبية .

بل الأولى أن نعيد النظر فى المرويات الإسلامية ، لنرى « الزمخشرى » مثلا ، فى تأويله للآية ، قد فهمها بمعزل عن سياقها فى موضوع «التبنى» الذى هو جوهر القضية ومناط التشريع .

وحسبنا هنا أن نتلو الآيات المحكمات :

« وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخِيرَةَ من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا بعيدا . وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسِكْ عليك زوجَكَ واتق الله ، وتخفى فى نفسِك ما الله مبديه وتخشى النَاسَ والله أحق أن تخشاه ،

(١) تفسير الكشاف : سورة الاحزاب جـ ٢٣٧/٣ ط التجارية

فلما قضى زيدٌ منها وطرا زوَّجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا ، وكان أمر الله مفعولا . ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له سُنَّة الله فى الذين خلَوا من قبل وكان أمر الله قدرا مقدورا . الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله ، وكفى بالله حسيبا . ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكنْ رسول الله وخاتم النبيين ، وكان الله بكل شىء عليما » .

صدق الله العظيم .

# حجاب

طار البشير الى « زينب » بالخبر السعيد ، قيل حملته اليها سلمى خادم الرسول (١) وقيل بل مضى به اليها « زيد » نفسه ، (٢) فتركت ما بيدها وقامت تصلى لربها شاكرة ..

وكانت وليمة العرس حافلة : ذبح المصطفى شاة ، وأمر صلى الله عليه وسلم مولاه « أنس بن مالك » أن يدعو الناس الى الوليمة ، فترادفو أفواجا ، يأكل فوج فيخرج ، ثم يدخل فوج . الى أن قال أنس :

ـ يارسول الله ، دعوتُ حتى ما أجد أحدا أدعوه ..

فقال صلى الله عليه وسلم : ارفعوا طعامكم (٣)

وللمرة الثانية ، تدخل الوحيُ فى الحياة الزوجية للمصطفى وزينب ..

ذلك أن بعض المدعوين طابت لهم الجلسة بعد أن فرغوا من الطعام ، فأقاموا يتحدثون . وحين طال مكثهم ، بدا الرسول كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا ، فلما رأى ذلك منهم قام يزور نساءه ريثما ينفض المجلس ، فانصرف القوم اثر قيامه ، الا ثلاثة نفر ظلوا حيث هم ، الى أن طاف الرسول ـ كعادته ـ بنسائه جميعا وتلقى تهنئتهن بالعروس الجديدة ، وآن له أن يخلو الى زوجه زينب ، فإذا الثلاثة جلوس مايزالون يسمرون (٤) ومنعه حياؤه الشديد أن يصرفهم ، فخرج منطلقا نحو حجرة عائشة ، وبقى « أنس » منتظرا مع الضيوف حتى انصرفوا ، فأسرع إلى المصطفى ينبئه بذلك ، فجاء صلى الله عليه وسلم واتجه نحو حجرة زينب ، حتى اذا بلغ عتبتها أرخى الستر بينه وبين أنس .

ونزلت الآية :

---

(١) تاريخ الطبرى : ٢/١٢٧
(٢) تفسير الكشاف : سورة الاحزاب ـ والا ستيعاب ١٨٥١/٤٠
(٣) تفسير الكشاف ٣/٢٤٤
(٤) السمط الثمين ص ١١٤ وتفسير الكشاف ٣/٣٢٤

« يأيها الذين آمنــوا لاتدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذَن لكم الى طعام غير ناظرين إناه ، ولكن اذا دُعيتم فادخلوا فإذا طعِمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ، إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحى منكم ؛ والله لايستحى من الحق ، وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ، ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن ، وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا ، ان ذلكم كان عند الله عظيما » (١)

ومن تلك اللحظة ، فُرض الحجاب على نساء النبى ، وعلى المؤمنات جميعا ، رمزَ تصون وعزة ، وسمة كرامة وترفع عن الابتذال ..

(١) آية ٥٣ : سورة الاحزاب

# أكرمهن وليا وسفيرا

ودخل محمد صلى الله عليه وسلم بتلك التى زوجته إياها السماء

وباتت « عائشة ؟ ليلتها مرهقةً الغيرة ، قد أخذها — فيما قالت — ما قرُب وما بعُد ، لما تعرف من جمال زينب ، ولما هى حَرِيَّة أن تفخر به من صنع الله لها ..

وكذلك غارت نساء النبى رضى الله عنهن، وضقن جميعا بهذه العروس الجديدة : تعتز بجمال وشباب وشرف ، وبأن الله هو الذى زوجها ..

ولم تكذب زينب ظنهن ، فإنها ما لبثت أن واجهتهن — وقد أدركت ما يطوين لها ، مباهية : « أنا أكرمكن وليا ، وأكرمكن سفيرا : زوجكن أهلكن ، وزوجنى الله من فوق سبع سموات ! » (١)

واذا كانت «أم سلمة» قد سرها أن ترى أثر دخول زينب على عائشة ، الزوج المفضلة ، فلا ريب فى أن زينب قد أرضاها أن تجىء فتتقدم « أم سلمة » غريمةً لعائشة !

ولم تكتم عائشة غيرتها من زينب ، كما لم تكتمها من أم سلمة ، بل اعترفت بأنهما : « كانتا أحب نسائه اليه ، فيما أحسب ، بعدى »

ثم تؤثر زينب وحدها بخصومتها فتقول : « لم تكن واحدة من نساء النبى تناصينى غير زينب » (٢)

أى تنازعنى وتبارينى ، من قولك : ناصيت فلانا اذا أخذت بناصيته ونازعته ..

أو تقول : لم يكن أحد من نساء النبى صلى الله عليه وسلم تسامينى فى حسن المنزلة عنده ، غير زينب بنت جحش (٣)

---

(١) طبقات ابن سعد : ٧٣/٨

(٢) ابن هشام : السيرة ٣١١/٣

(٣) الاستيعاب : ١٨٥٠/٤

وقد مرَّ بنا ما كان من ضيق « عائشة » بميل زوجها الى زينب « واطالته المكث لديها » ثم تآمرها مع حفصة وسودة ، أيتهن دخل عليها المصطفى اثر انصرافه من عند زينب ، فلتقل له : « آكلتَ مغافير ؟ إنى أجد ريح مغافير »

وكان يحدث أحيانا أن تحتدم بينهما المنافسة فى حضرة المصطفى ، فيدعهما وشأنهما لعل فى هذا راحة لهما وتنفيسا . وقد استطاعت «عائشة» مرة أن تغلب « زينب » فما زاد عليه الصلاة والسلام على أن تبسم وقال : (١)

« انها بنت أبى بكر »

وحدث مرة أخرى ، أن أفلت لسان « عائشة » بكلمة غضب لها الرسول عليه الصلاة والسلام : تلقى هدية وهو فى بيتها ، فأرسل الى كل واحدة من أزواجه نصيبا منها . ولكن زينب ردت ما جاءها ، فلم تملك عائشة أن قالت لزوجها الرسول :

« لقد أقمأتْ وجهَك حين ترد عليك الهدية »

فقام عنها مغضبا وهو يقول :

« أنتن أهوَن على الله من أن تقمئننى »

---

(١) السمط الثمين ص ٤٠ .

# واطولهن يدا

على أن هذه الخصومة بين الزوجين الأوليَين ، لم تمنع حفيدة عبد المطلب من الدفاع عن « عائشة » فى محنة الإفك ، وقد ذكرت لها عائشة هذا الموقف النبيل فقالت :

« وكان كِبر ذلك — الإفك — عند عبد الله بن أُبىّ بن سَلول فى رجال من الخزرج ، مع الذى قال مسطح وحمنة بنت جحش . وذلك أن أختها زينب كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم تكن امرأة من نسائه تناصينى فى المنزلة عنده غيرها .. فأما زينب فعصَمها الله تعالى بدينها فلم تقل إلا خيرا ، وأما حمنة بنت جحش فأشاعت من ذلك ما أشاعت تضارنى لأختها ، فشقيتُ بذلك » (١)

أجل عصمها الله تعالى بدينها ، وقد كانت « زينب » صالحة تقية صادقة التدين ..

شهدت لها بذلك غريمتها السيدة عائشة فقالت :

« ولم أر امرأة قط خيرا فى الدين من زينب ، وأتقى لله ، وأصدق حديثا ، وأوصل للرحم ، وأعظم صدقة ، وأشد ابتذالا لنفسها فى العمل الذى يَتصدق به ويتقرب به الى الله عز وجل » (٢)

وفى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعمر بن الخطاب « ان زينب بنت جحش أوّاهة » فقال رجل : يارسول الله : ما الأواه ؟ قال : الخاشع المتضرع . ثم تلا عليه الصلاة والسلام :

« ان ابراهيم لحليمٌ أوّاهٌ منيب » (٣)

(١) ابن هشام : السيرة ٣١٢/٣

(٢) السمط الثمين : ص ١١٠ — والاستيعاب : ١٨٥١/٤٠

(٣) المرجع نفسه : ص ١١١ ، والاستيعاب : ١٨٥٢/٤ — والاية من سورة هود (٧٥)

وكانت كذلك كريمة خيرة ، تصنع بيديها ما تحسن صنعه ثم تتصدق به على المساكين ، عيال الله الذى أكرمها وأعزها ، وآثرها بما لم يؤثر به زوجة سواها ..

***

وألغى موت محمد ، صلى الله عليه وسلم ، ما بين « زينب » وبين ضرائرها من أثر التنافس على زوجهن الرسول ، فلم يعدن يذكرن إلا انها كانت له صلى الله عليه وسلم زوجا حبيبة ، وللمؤمنين أما رحيمة ، ولربها عابدة قانتة ..

ذكرتها « أم سلمة » فترحّمت عليها وذكرت ما كان يكون بينها وبين « عائشة » ثم قالت :

« كانت زينب لرسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ معجبة ، وكان يستكثر منها ، وكانت صالحة قوامة ، تعمل بيديها وتتصدق بذلك كله على المساكين » ..

وسمعت « عائشة » تقول حين بلغها نعىُ « زينب » :

« ذهبت حميدة متعبدة ، مفزع اليتامى والأرامل » ..

ثم قالت :

« قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أسرعكن لحاقا بى ، أطولكن يدا .. فكنا اذا اجتمعنا فى بيت احدانا بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نمد أيدينا فى الجدار نتطاول ، فلم نزل نفعل ذلك حتى توفيت زينب بنت جحش ، ولم تكن بأطولنا ، فعرفنا حينئذ أن النبى صلى الله عليه وسلم انما أراد طول اليد بالصدقة ، وكانت زينب امرأة صناع اليدين تدبغ وتخرز ، وتتصدق فى سبيل الله » [1]

ويروون أن « عمر بن الخطاب : أمير المؤمنين » أرسل اليها عطاءها

(١) السمط الثمين : ص ١١ ـ والاستيعاب : ١٨٥١/٤

اثنى عشر ألف درهم ، فجعلت تقول : « اللهم لايدركنى هذا المال فى قابل ، فإنه فتنة » (١)

ثم قسمته فى أهل رحمها وفى أهل الحاجة ، فبلغ « عمر » ذلك ، فوقف ببابها وأرسل اليها بالسلام وقال :

« بلغنى ما فرقت ، فأرسل ألف درهم تستبقينها ؟ »

وأرسل الألف ، فتصدقت رضى الله عنها بها جميعا ، لم تبق منها درهما

وحين حضرتها الوفاة — سنة عشرين — (٢) قالت :

« انى قد أعددت كفنى ، وان عمر أمير المؤمنين ، سيبعث الىّ بكفن ، فتصدقوا بأحدهما » (٣)

وكانت سنها يوم ماتت ، رضى الله عنها : ثلاثا وخمسين سنة ..

---

(١) السمط الثمين : ١١١

(٢) فى رواية انها توفيت سنة احدى وعشرين ، عام فتح العرب للاسكندرية ( الاستيعاب ١٨٥٢/٤ )

(٣) الاصابة جـ ٨

الفصل التاسع

# جويرية بنت الحارث
## سيدة بني المصطلق

« لما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا بنى المصطلق .. وقعت جويرية بنت الحارث فى السهم لثابت ابن قيس أو لابن عم له ، فكاتبته على نفسها ، وكانت امرأة حلوة ملاحة لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه ..

فأتت رسول الله تستعينه فى كتابتها فوالله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتى فكرهتها .. وعرفت أنْ سيرى منها صلى الله عليه وسلم ما رأيت ! »

عائشة بنت ابى بكر
ام المؤمنين

# الأسيرة الحسناء

شغل رسول الله عليه الصلاة والسلام عن منازعات أزواجه وتنافسهن — اثر زواجه بزينب بنت جحش — بأحداث هامة كبار، ملأت النصف الثاني للعام الخامس من الهجرة : ففي شهر شوال وأوائل القعدة، (١) كانت « غزوة الخندق » التي لقي فيها الرسول والمسلمون جموع الأحزاب من المشركين الذين أغراهم اليهود بالخروج لحرب الرسول في دار هجرته

لقيهم المصطفى عليه الصلاة والسلام في ثلاثة آلاف من المسلمين وراء الخندق الذي حفره حول المدينة، وقد أقبلت قريش في عشرة آلاف من أحابيشهم، ومن تبعهم من بني كنانة وأهل تهامة، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد (٢)

ونقض اليهود عهد النبي عليه الصلاة والسلام، في كتابه أول الهجرة : « أن يكونوا مع المسلمين على كل من دهم المدينة » وعظم البلاء بالمسلمين واشتد الخوف، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم، وزلزلوا زلزالا شديدا حتى ظن المؤمنون كل ظن، ونجم النفاق وقال قائلون : « كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب الى الغائط » (٣)

وتخاذل المنافقون الذين خرجوا للقتال مع الرسول طمعا في الغنيمة، وقد حسبوا أنه مهزوم ...

وكان حصار مرهق استغرق سبعة وعشرين يوما، ثم دارت الدائرة على الأحزاب، وتم النصر للرسول والذين معه من حزب الله ..

***

ووضع المسلمون السلاح وقد أجهدتهم المعركة، وأووا الى بيوتهم سمعت امرأة تستأذن في لقاء الرسول بصوت شجي مؤثر ..

---

(١) في السيرة (٣/٢٤) ان غزوة الخندق كانت في شوال سنة خمس، ومثله في تاريخ الطبري (٣/٤٣) والذي في طبقات ابن سعد (٢/٤٧) انها كانت في ذي القعدة سنة خمس من مهاجره • وفي رواية نقلها الزرقاني : قال موسى بن عقبة في مغازيه : كانت سنة أربع :

(٢) ابن هشام : السيرة ٣/٢٣٠ — وطبقات ابن سعد : ٢/٤٧ وتاريخ الطبري : ٣/٤٦

(٣) تاريخ الطبري : ٣/٤٧ — والسيرة : ٣/٢٣٣

يلتمسون راحة ، فما التقطوا أنفاسهم حتى سمعوا صوت داعى الرسول يؤذن فى الناس :

« من كان سامعا مطيعا فلا يُصلينَّ العصر إلا فى بنى قريظة » (١)

واستجابوا لداعى الجهاد ، وحاصروا يهود بنى قريظة خمسا وعشرين ليلة قبل أن يتم التسليم والجلاء ، فى صدر ذى الحجة ..

وأقبلت السنة السادسة ، لتشهد الرسول يغزو بنى لحيان ، ثم يتبعها غزوة ذى قرد ، (٢) ويعود الى المدينة فما يقيم بها شهرا وبعض شهر ، حتى يبلغه أن بنى المصطلق ، وهم حى من خزاعة ، يجمعون الجموع لقتال الرسول ، بقيادة زعيمهم « الحارث بن أبى ضرار » (٣)

وخرج اليهم المصطفى ومعه من نسائه « عائشة بنت الصديق » حتى لقيهم على ماء لهم يقال له المريسيع ، فكان قتال مرير ، انتهى بهزيمة بنى المصطلق ..

وسيقت نساؤهم سبايا ، وفيهن «جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار» (٤)

وقفل الرسول راجعا الى المدينة ، فافتقد « عائشة » التى تخلفت عن الركب حين أناخ فى طريقه إلى المدينة ، وحُمل هودجها وليست فيه . ثم لم تلبث أن دخلت المدينة على بعير « صفوان بن المعطل السلمى » فاطمأن المصطفى عليها ، وخرج ليوزع الغنائم على من اشتركوا فى قتال بنى المصطلق

ثم انصرف الى بيته خالى البال إلا من شئون الدعوة التى أوشكت أن تقضى على الوثنية المشركة والضلال الموروث ..

فبينا هو جالس يوما فى حجرة عائشة ، قبل أن تشيع فرية الإفك ،

---

(١) تاريخ الطبرى : ٥٣/٢ ــ والسيرة ٣٠١/٣

(٢) تاريخ الطبرى ، حوادث السنة السادسة للهجرة . وانظر جمهرة انساب العرب : ٢٢٨

(٣) تاريخ الطبرى : حوادث السنة السادسة للهجرة .

(٤) وقع فى بعض الروايات ان جويرية كان اسمها برة ، فسماها الرسول جويرية كراهة ان يقال : خرج من عند برة ( السمط : ١١٧ والاستيعاب ــ ١٨٠٥/٤ ) لكن سياق الخبر فى الاستيعاب ، يخلط بينها وبين أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث . ويأتى ذكر « بنت الحارث بن ابى ضرار » فى السيرة وطبقات ابن سعد ، وتاريخ الطبرى ، باسم « جويريه » لا غير

وقامت «عائشة» الى الباب لترى مَن تلك ، فإذا شابة حلوة ، مفرطة الملاحة ، « لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه » (١) ، فى نحو العشرين من عمرها ، ترتجف قلقا وذعرا ، وقد توهجت حيويتها بتأثير الانفعال .

وكرهتها « عائشة » من النظرة الأولى ، فوقفت حيالها وبودها لو تحول بينها وبين زوجها الرسول ، الذى كان اذ ذاك يستريح ...

لكن الشابة الغريبة ألحّت فى الاستئذان على نبى الإسلام ، فلم تملك « عائشة » إلا أن تستأذن لها كارهة ، وفى نفسها هاجسٌ من قلق ..

ودخلت الشابة المليحة على الرسول فقالت فى ضراعة تمازجها عزة :

« يارسول الله ، أنا بنت الحارث بن أبى ضرار سيد قومه ، وقد أصابنى من البلاء ما لم يخفَ عليك ، فوقعتُ فى السهم لثابت بن قيس.. فكاتبته على نفسى ، فجئتك أستعينك على أمرى » (٢) ..

فتأثر الفارس العربى للكريمة المهانة والعزيزة المستذلة .. واستثار شهامته موقف سيدة حرة أصيلة ، تلوذ به ، وهو الذى هزم قومها ، لتنجو من مهانة السبى وعار الرق ..

ورق قلبه لهذه العربية الخزاعية ، بنت سيد بنى المصطلق ، اذ تقف ببابه مستطارة اللب مستثارة القلق ، ولم يهن عليه أن يخيب رجاءها فيه

***

وتكلم محمد صلى الله عليه وسلم أخيرا :

« فهل لك فى خير من ذلك ؟ »

سألت فى لهفة وحيرة :

« وما هو يارسول الله ؟ »

أجاب :

« أقضى عنك كتابتك ، وأتزوجك »

---

(١) ابن اسحاق فى السيرة : ٣٠٧/٣ ، وتاريخ الطبرى : ٦٦/٣ والاستيعاب ١٨٠٤/٤

(٢) السيرة : ٣٠٧/٣ السيرة - وتاريخ الطبرى ٣ : ٦٦ - والاستيعاب : ١٨٠٤/٤ - وانظر طبقات ابن سعد ٤٦/٢

فتألق وجهها الجميل بفرحة البشرى ؛ وهتفت وهى لا تكاد تصدق أنها قد نجت من الضياع والهوان :

« نعم يارسول الله ! »

ورد عليها الرسول الكريم :

« قد فعلت : » (١)

(١) الحوار بنصه من السيرة : ٣٠٧/٣ – وتاريخ الطبرى ٦٦/٣ – والاستيعاب : ١٨٠٤/٤

# بركة العروس

وما أسرع ما خرج الخبر الى الناس أن المصطفى صلى الله عليه وسلم قد تزوج بنت الحارث بن أبى ضرار ؛ فتداعى الصحابة ، من المهاجرين والأنصار لتكريم السيدة التى أعزها نبيهم بالزواج (١)

وأقبلوا على من بأيديهم من أسرى قومها ، فأرسلوهم أحرارا وهم يقولون :

« أصهار رسول الله »

ودخلت العروس بيت النبى ، وما من امرأة أعظم على قومها بركة منها : أُعتِقَ بزواجها من الرسول ، أهلُ مائة بيتٍ من بيوت بنى المصطلق (٢)

وظلت « جويرية » ما عاشت ، تبارك تلك اللحظة السعيدة التى لقيت الرسول فيها ، فنجت من العار ، وأعتقت قومها من الأسر ، وكرمت بالزواج من سيد البشر وأمومتها للمؤمنين .

وكذلك ظلت « عائشة » تذكر تلك اللحظة ، لكن فى مرارة وألم ، فتقول فى صراحة مؤثرة :

« .. وكانت امرأة حلوة ملاحة ، لا يراها أحد الا أخذت بنفسه ، فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم تستعينه فى كتابتها ، فوالله ما هو الا أن رأيتها على باب حجرتى فكرهتها ، وعرفت أن سيرى منها صلى الله عليه وسلم ما رأيت .. » (٣)

وهل من حرج على محمد ، صلى الله عليه وسلم ، فى أن ينظر لجويرية ، وقد اتجهت نيته إلى فك أسرها والتزوج بها ؟

---

(١) السيرة : ٣٠٧/٣ ـ وتاريخ الطبرى : ٦٦/٣ والاستيعاب ٠ ١٨٠٤/٤

(٢) ابن اسحاق فى السيرة : ٣٠٧/٣ ـ وتاريخ الطبرى : ٦٦/٣ والسمط الثمين ١١٦ وفى رواية انه صلى الله عليه وسلم جعل صداقها عتق كل أسير من قومها بنى المصطلق ٠ انظر طبقات ابن سعد : ٤٦/٢

(٣) الاصابة : ٤٤/٨ ـ وتاريخ الطبرى ٦٦/٣ ـ الاستيعاب : ١٨٠٤/٤

قال « السهيلى » فى ( الروض الأنف ) : وأما نظره عليه السلام لجويرية حتى عرف من حسنها ما عرف ، فإنما كان ذلك لأنها امرأة مملوكة . ولو كانت حرة ما ملأ عينه منها . . . وجائز أن يكون نظر اليها لأنه أراد نكاحها .. وقد ثبت عنه عليه السلام الرخصة فى النظر الى المرأة عند ارادة نكاحها . وقال للمغيرة حين شاوره فى نكاح امرأة :

« لو نظرتَ اليها ، فإن ذلك أحرى أن يدوم بينكما . وقال مثل ذلك لمحمد بن مسلمة حين أراد نكاح بثينة بنت الضحاك »

وقد كان ما توقعت « عائشة » وخافت :

نظر زوجها المصطفى الى الأسيرة الحسناء ، وأصبحت « جويرية بنت الحارث » شريكة لعائشة فى بيت الرسول ..

كما أصبحت ــ وقد أسلمتْ وحسن اسلامها ــ أما للمؤمنين

يروون ان أباها « الحارث » جاء المدينة قبل أن يعلن الرسول زواجه بها ، فقال للنبى عليه الصلاة والسلام :

« يامحمد ، أصبتم ابنتى وهذا فداؤها ، فإن ابنتى لا يُسبى مثلها ! »

فقال له الرسول :

« أرأيتَ أن أخيرها ، أليس قد أحسنتْ ؟ »

فأجاب : بلى ..

فأتاها أبوها فذكر لها ذلك فقالت :

« اخترت الله ورسوله »

وقيل كذلك إن « الحارث » سمع من الرسول حديثا عما جاء فيه من فداء ابنته ، فصاح بصوت جهير :

« أشهد أن لا اله الا الله ، وأنك محمد رسول الله »

فخطب الرسول اليه ابنته ، فزوجه إياها وأصدقها أربعمائة درهم (١)

(١) السيرة : ٣٠٨/٣ والسمط الثمين ٢١٧

على أن « عائشة » ما لبثت أن شغلت عن « جويرية » وغير جويرية ، بما أعقب تخلفها عن الركب العائد من بنى المصطلق ، من قيل وقال ...

حتى اذا انجلت غمة الإفك ، وعادت عائشة الى مكانها من بيت النبى معتزة بما أنزل الله فى براءتها من آيات ، واجهتها « جويرية » بملاحتها الأخاذة ، فما كان من عائشة الا أن قالت فى زهو وهى تنقل بصرها بين جويرية ، وزينب بنت جحش ، وأم سلمة ، وحفصة ، وطيف ماثل من خديجة :

« لم يتزوج ، صلى الله عليه وسلم ، بكرا سواى » (١)

ذلك أن « جويرية » كانت قبل أن تسبى ، زوجة لابن صفوان المصطلقى (٢)

وقد عاشت رضى الله عنها الى أن استقر الأمر لمعاوية ، وتوفيت بالمدينة بعد منتصف القرن الأول الهجرى (٣)

وعرفت فى تاريخ الاسلام ، بأم المؤمنين التى لم تكن امرأة أعظم على قومها بركة منها ..

---

(١) السمط الثمين • ص ٨٧

(٢) اسمه فى الاستيعاب « ٤/١٨٠٤ » والسمط الثمين ص ١١٦ : مسافع بن صفوان المصطلقى • والذى فى تاريخ الطبرى (٣/١٧٧)انه مالك بنصفوان بن سرح بنمالك بن المصطلق

(٣) السمط الثمين : ١١٨ ـ وانظر الاصابة ٨/٤٤ ـ والاستيعاب : ٨/١٨٠٤

الفصل العاشر

# صفية بنت حُيي

## عقيلة بني النضير

« وأمر صلى الله عليه وسلم بصفية فحيزت خلفه وألقى عليها رداءه فعرف الناس أنه اصطفاها لنفسه »

السيرة النبوية

# معركة ظافرة

انتهت السنة السادسة للهجرة ، بعد أن أحدثت فى بيت النبى ضجة ما مثلها ضجة : تزوج فيها محمـد عليه الصلاة والسلام بجويرية بنت الحارث ، وابتلى بمحنة الإفك فى أعز أزواجه وأحبهن الى قلبه بعد خديجة ، وفيها أيضا ، تم صلح الحديبية ..

وبزغ هلال المحرم من سنة سبع ، والرسول يتهيأ لمعركة حاسمة تقطع دابر اليهود اللئام الذين كشف تواطؤهم مع الأحزاب يوم الخندق ، عما ينطوون عليه من حقد مرير ، وما يبيتون للإسلام من شر !

وخرج المصطفى فى النصف الثانى من المحرم [1] الى « خيبر » معقل العدو ، فما أشرف عليها حتى هتف :

« الله أكبر ، خربت خيبر ، انا اذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين » [2]

وخربت خيبر : فتحت حصونها حصنا حصنا ، وقتل رجالها ، وسبى نساؤها ، وفيهن عقيلة بنى النضير : صفية بنت حيى بن أخطب ، التى ينتهى نسبها الى هرون أخى موسى عليه السلام ، وأمها برة بنت سموءل

ولم تكن قد جاوزت السابعة عشرة من عمرها ..

لكنها ، على صغر السن ، تزوجت مرتين :

تزوجت أولا من فارس قومها وشاعرهم : « سلام بن مشكم »

ثم خلف عليها « كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق » [3] صاحب حصن

---

(١) كذا فى تاريخ الطبرى والسيرة لابن هشام .
وفى طبقات ابن سعد ان غزوة خيبر كانت فى جمادى الاولى سنة سبع (٢/٧٧)

(٢) السيرة ٣/٣٤٤ وانظر غزوة خيبر فى تاريخ الطبرى:٣/٩٢ وطبقات ابن سعد (٢/٧٥)

(٣) كذا فى السيرة (٣/٣٥١) ومثله فى الطبرى (٣/٩٥، ١٧٨) ولكن الذى فى الاستيعاب (٤/١٨٧١) ان اسمه « كنانة ابن أبى الحقيق » ومثله فى طبقات ابن سعد (٢/٢٢)

« القموص » أعز حصن فى خيبر ..

وقد اقتحم المسلمون الحصن بعد نضال مرير ، وجىء القائد الرسول بكنانة حيا ، وكان عنده كنز بنى النضير ، فسأله الرسول عنه فأنكر أن يكون يعرف مكانه ، فقال عليه الصلاة والسلام :

« أرأيتَ ان وجدناه عندك ، أأقتلك ؟ »

قال : نعم ...

فلما اكتشف مخبأ الكنز عنده ، دفعه الرسول الى « محمد بن سلمة » فضرب عنقه بأخيه « محمود بن مسلمة » الذى قتله اليهود فى المعركة (١)

وسيقت نساء القموص سبايا ، وفى مقدمتهن « صفية » زوج كنانة ، مع ابنة عم لها ، يقودهما « بلال » مؤذن الرسول ..

ومرّ بهما «بلال» على ساحة امتلأت بالقتلى من يهود ، فهمّت «صفية» أن تصيح ، لكن الصيحة احتبست فى حلقها لا تنطلق ..

أما ابنة عمها فأعولت صارخة ، وصكت وجهها ، وحثت التراب على رأسها ..

وجىء بهما الى المصطفى عليه الصلاة والسلام :

« صفية » فى حزنها الصامت وجزعها المكبوت ، تحاول أن تتماسك فى ترفع وضبط ، وما من أحد يعرف فيم كانت تفكر ، وان بدا أنها تلوذ أمام القائد المنتصر بآخر ما كان لها من عزة وكبرياء ...

والأخرى : شعثاء الشعر ، معفرة بالتراب ، ممزقة الثياب ، لا تكف عن عويل ونواح ..

صاح المصطفى وهو يشيح بوجهه عنها :

« اغربوا عنى هذه الشيطانة » (٢)

ثم دنا من « صفية » ، وقد بدا عليها أنها راغبة فى أكثر من حماية النبى الفارس ، فألقى عليها نظرة رحيمة وهو يقول لبلال :

---

(١) تاريخ الطبرى : ٩٥/٣ والسيرة : ٣٥١/٣ ـ وانظر طبقات ابن سعد ٨١/٢
(٢) تاريخ الطبرى : ٩٤/٣ والسيرة ٣٥٠/٣

« أنزعت منك الرحمة يا بلال حين تمر بامرأتين على قتلى رجالهما ؟ » (١)

ثم أمر بصفية فحيزت خلفه ، وألقى عليها رداءه ، فكان ذلك اعلانا بأنه ، صلى الله عليه وسلم ، قد اصطفاها لنفسه ..

وكان المسلمون قد قالوا : ما ندرى أتزوجها أم اتخذها أم ولد ، فلما حجبها عرفوا أنه صلى الله عليه وسلم قد تزوجها (٢)

وفى حديث عن « أنس ، رضى الله عنه » أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أخذ صفية بنت حيى ، قال لها : « هل لك فىّ ؟ » قالت : يارسول الله .. قد كنت أتمنى ذلك فى الشرك ، فكيف اذا أمكننى الله منه فى الاسلام ؟ ..

فأعتقها عليه الصلاة والسلام ، وتزوجها ..

وكان عتقها صداقها (٣)

---

(١) تاريخ الطبرى : ١٤/٣ ـ والسيرة ٣٥١/٣ ـ وانظر طبقات ابن سعد : ٨١/٢

(٢) طبقات ابن سعد : ٨٤/٢

(٣) طبقات ابن سعد : ٨٥/٢ ـ والاستيعاب : ١٨٧٢/٤

وانظر ( السمط الثمين ) : ١٢٠

## رؤيا العروس وذكرياتها

وانتظر المصطفى بخيبر حتى هدأت مناحة اليهود ، وظن أن الروع قد ذهب عن « صفية » أو كاد ، فحملها وراءه وانطلق بها الى منزله فى أطراف خيبر ـ على بعد ستة أميال منها ـ فمال يريد أن يعرس بها ، لكنها تمنعت وأبت عليه أن يفعل (١)

فوجدها محمد ، صلى الله عليه وسلم ، فى نفسه ، وشق عليه تمنعها ورفضها .

ثم استأنف مسيره راجعا بعسكره الى المدينة ، فلما كان بالصهباء ـ بعيدا عن خيبر ـ نزل هناك يستريح ، فبدا له أن « صفية » متهيئة للعرس :

جاءتها ماشطة ـ يقول ابن اسحق انها : أم سليم بنت ملحان ، أم أنس بن مالك (٢) ـ فمشطتها وجملتها . وظهرت « صفية » عروسا مجلوة ، تأخذ العين بسحرها حتى لتقول ماشطتها انها لم تر بين النساء أضوأ منها (٣)

ووراء جلوة الفرح المرتقب ، غابت آثار الحزن والألم ، وكأن العروس نسيت الموقعة التى ألقت بأهلها صرعى مجندلين ، وأخرجتها من « حصن القموص » أسيرة ، تساق بين السبايا !

وثمت ، أقيمت وليمة العرس حافلة ، وأكل الناس من طيبات خيبر حتى شبعوا ، ثم دخل محمد عليه الصلاة والسلام على « صفية » وما يزال فى نفسه شيء من رفضها الأول ..

وأقبلت عليه العروس تحدثه حديثا عجبا :

قالت انها فى ليلة عرسها بكنانة بن الربيع ، رأت فى المنام أن قمرا وقع فى حجرها ، فلما صحت من نومها عرضت رؤياها على كنانة ، فقال غاضبا :

---

(١) السمط الثمين : ١٢٠

(٢) السيرة : ٣٥٤/٣ ـ واقتصر ابن سعد على كنيتها ـ ام سليم (٨٤/٢)

(٣) الاصابة : جـ ٨

« ما هذا إلا أنك تمنين ملكَ الحجاز محمدا ! » (١)
ولطم وجهها لطمة ما يزال أثر منها فيه
ونظر المصطفى الى أثر اخضرار فى عينها ، وقد سرَّه ما سمع من حديثها ، وهمَّ بأن يقبل عليها ، لكنه أمسك وسأل :
« ما حملك على الامتناع أولا ؟ »

أو قال : ما حملك على إبائك فى المنزل الأول ؟ (٢)
وأجابت العروس على الفور :
« خشيتُ عليك قربَ يهود » (٣)
فزال ما كان يجد فى نفسه من جفوة ، وأشرق وجهه الكريم بابتسامة راضية ..

وتسترجع « صفية » ذكريات لها عن ارهاص أهلها اليهود بنبى منتظر يعرفونه من أسفارهم ، ثم حقدهم وغيظهم يوم استقبلت دار الهجرة النبى المهاجر ، الذى طالما بشرت يهود بقرب مبعثه ، تستغل البشرى لحماية ثروتها بيثرب من كل غاز وطامع ، أو تتفاخر بها على العرب الأميين ، فيما تتفاخر من علمها بالكتاب ..
تقول « صفية » بنت حيى بن أخطب :

« كنت أحَبَّ ولد أبى اليه والى عمى أبى ياسر ، لم ألقهما قط مع ولدهما الا أخذانى دونه . فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، غدا عليه أبى وعمى مغَلسين ، فلم يرجعا حتى كان مع غروب الشمس ، فأتيا كالين ساقطين يمشيان الهوينا . فهششت اليهما كما كنت أصنع ، فوالله ما التفت الىَّ واحد منهما مع ما بهما من الغم . وسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبى : أهو هو ؟ ..
قال : نعم والله .
قال عمى : أتعرفه وتثبته ؟

(١) السيرة : ٢/٣٥٠ — وتاريخ الطبرى : ٣/٩٤ — والسمط الثمين ١٢٠
(٢) السمط الثمين : ١٢٠ (٣) السمط الثمين : ١٢٠

قال : نعم ..

قال : فما فى نفسك منه ؟..

أجاب : « عدواته والله ما بقيت (١)

وهناك خارج القبة التى دخل فيها المصطفى على صفية ، بات رجل من الأنصار ، هو « أبو أيوب خالد بن زيد » يقظان ساهرا ، متوشحا سيفه ، يطيف بالقبة على غير علم من الرسول ، فلما أصبح صلى الله عليه وسلم سمع حركته ورأى مكانه فسأله :

« مالك يا أبا أيوب ؟ »

أجاب : « يارسول الله ، خفت عليك من هذه المرأة ، قد قتلت أباها وزوجها وقومها ، وكانت حديثة عهد بكفر ، فخفتها عليك » (٢)

فيقال ان الرسول عليه الصلاة والسلام دعا له قائلا :

« اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظنى » (٣)

أو قال : « رحمك الله يا أبا أيوب » مرتين (٤)

ولم يكن المسلمون قد نسوا بعد ، تلك الفعلة الشنعاء لامرأة من يهود خيبر : بنت الحارث ، امرأة سلام بن مشكم ، أحد زعمائهم القواد دخلت على القائد المنتصر وهو مطمئن بعد أن استسلم اليهود لمصيرهم، فأهدت اليه شاة مسمومة ، وكانت قد سألت بعض أصحابه : أى عضو من الشاة أحب الى رسول الله ؟ قيل لها : الذراع . فأكثرت السم فى الذراع حتى سرى منها الى سائر الشاة ..

ووضعتها بين يديه صلى الله عليه وسلم ، ومعه صاحبه « بشر بن البراء » فتناول المصطفى الذراع ، وأعطى « ابن البراء » قطعة أخرى أكلها غير مستريب ..

لكن الرسول لم يسغ الذراع ، بل لفظها وهو يقول : « ان هــذا العظم ليخبرنى انه مسموم » ..

(١) بنصه ، عن ابن اسحاق فى ( السـيرة النبوية : ٢/١٦٥ ) ومعه السمهودى : وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى : ١/٢٧٠

(٢) السيرة : ٣/٢٥٤ ـ وانظر طبقات ابن سعد : ٢ /٨٤

(٣) ابن هشام : السيرة : ٣/٢٥٥

(٤) طبقات ابن سعد : ٢/٨٤

وجيء باليهودية ، فاعترفت بأنها سمّت الشاة عامدة . ولما سألها صلى الله عليه وسلم عما حملها على ذلك ، أجابت :

« بلغتَ من قومي ما لا يخفى عليك ، فقلتْ : ان كان نبيا فسيُخبَر ، وان كان ملكا استرحت منه » ..

فتجاوز عنها الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومات «بشر بن البراء» من أكلته التي أكل .. (١)

وغير بعيد أن يكون «أبوأيوب الانصاري» ذكر هذه الفعلة اليهودية ، حين بات ساهرا حول القبة التي دخل فيها المصطفى على « صفية » عقيلة بني النضير ..

وبلغ الركب المدينة ..

وآثر المصطفى ألا يدخل على أزواجه بالعروس ، فأنزلها في بيتٍ لصاحبه « حارثة بن النعمان الانصاري » ..

وتسامعت نساء الأنصار ، فجئن ينظرن الى جمالها ، ولمح المصطفى زوجه « عائشة » تخرج متنقبة على حذر ، فتتبع خطواتها من بعيد ، فرآها تدخل بيت « حارثة بن النعمان » ..

وانتظر حتى خرجت ، فأدركها وأخذ بثوبها وسألها ضاحكا :

« كيف رأيتِ يا شقيراء ؟ »

فأجفلت « عائشة » وقد هاجت غيرتها ، ثم هزت كتفها وهي تجيب :

« رأيتُ يهودية ! »

ورد عليها رسول الله عليه الصلاة والسلام :

« لا تقولي ذلك ، فإنها أسلمتْ وحسن اسلامها ! » (٢)

ولم تعلق « عائشة » بكلمة ، بل سارت الى البيت حيث كانت « حفصة بنت عمر » في انتظارها ، مشوقة الى أن تسمع رأيها في العروس

ولم تنكر « عائشة » انها جميلة حقا ، وزادت فحدثت « حفصة » عما كان من تتبع الرسول لها وحواره معها ..

---

(١) ابن هشام : السيرة : ٣/٣٥٢ ـ وتاريخ الطبري ٣/٩٥

وروى ابن سعد حديث الشاة المسمومة التي اهديت الى الرسول يوم فتح خيبر ، عن ابي هريرة .. وفيه ان الذين سموها واهدوها ، جماعة من اليهود (٢/٨٤)

(٢) سنن ابن ماجة ـ والاصابة : ج ٨ ـ والسمط الثمين ، ص ٨٠

## ابى هارون ، وعمى موسى

ثم انتقلت « صفية » الى دور النبى ، فواجهتها هناك مشكلة محيرة : كانت عائشة ومعها حفصة وسودة فى جانب ، والأزواج الأخريات فى جانب تقف فيه السيدة فاطمة الزهراء ، بنت النبى صلى الله عليه وسلم

وكان على « صفية » أن تختار ، وانه لموقف دقيق صعب ، فما كانت فى ذكائها بالتى تناصب « الزوج الأثيرة » أو « الابنة الغالية » عداء أو شبه عداء !

ثم أسعفتها لباقة طبعها وواتاها حذرها الموروث ، فقررت أن تتقرب من عائشة وحفصة والزهراء جميعا !

وكان مظهر تقربها الى بنتى أبى بكر وعمر ، اظهار استعدادها للانضمام اليهما ..

أما « الزهراء » فأهدتها « صفية بنت حيى » حلية من ذهب ، رمزا لمودتها ! (١)

وما من شك فى أن « صفية » أرادت أن تحتمى بهذا الموقف اللبق ، مما كانت تخاف من تعريض بأصلها اليهودى ، وتذكير بما لقى الإسلام والمسلمون من عداوة قومها اليهود ، وشرهم الخبيث .

وما كان لها ، فى الحق ، أن تخشى أذى من « الزهراء بنت الرسول » فإنها ، رضى الله عنها ، كانت أحرص الناس على سلام ، وأبر بأبيها المصطفى من أن تشارك فى هذا الضجيج النسوى ، اللهم الا أن تدفع الى شىء من ذلك دفعا ، كالذى أشرنا اليه من سفارتها لأزواج النبى عند أبيها صلى الله عليه وسلم ، فى أمر السيدة عائشة ..

وانما الخوف كل الخوف من « عائشة » فى غيرتها وضيقها بكل حسناء

---

(١) الاصابة : جـ ١٢٧/٨

تدخل بيت زوجها وتشاركها فيه !

ولم يعصم « صفية » مما كانت تخاف ، تقربها من عائشة وحفصة ، فما أكثر ما سمعت التعريض جهرا وتلميحا بالدم اليهودى الذى يجرى فى عروقها ؟ ! وما أكثر ما صكت أذنيها سهام جارحة ، تأبى عليها أن تسكن وتطمئن ، فى ظل أكرم زوج ورعاية أعز رجل !

والذى آلم « صفية » ان عائشة وحفصة ـ اللتين انضمت اليهما ـ كانتا تشاركان الأزواج الأخريات فى النيل منهـا ، ومفـاخرتها بأنهن قرشيات أو عربيات ، وهى الدخيلة من يهود ..

***

وبلغ « صفية » كلام عن حفصة وعائشة ، فلما حدثت النبى به وهى تبكى ، قال صلى الله عليه وسلم وهو يمسح دموعها بردائه ويده :

« ألا قلت : وكيف تكونان خيرا منى ، وزوجى محمد ، وأبى هرون ، وعمى موسى ؟ » (١)

ونزل كلام المصطفى على « صفية » بردا وسلاما ، وكان لها منه حِمى وملاذ ..

***

وكان صلى الله عليه وسلم يحس غربة « صفية » فى دوره بين نسائه ، فيتأهب للدفاع عنها كلما أتيحت له فرصة ..

فى الخبر انه كان فى سفر ومعه من أزواجه صفية وزينب بنت جحش . فاعتل بعير « صفية » وفى إبل زينب فضل ، فقال لها :

« ان بعير صفية اعتل ، فلو أعطيتها بعيرا ؟ »

فردت قائلة : أنا أعطى تلك اليهودية ؟

---

(١) الاصابة ١٢٧\٨ ـ والسمط الثمين ـ ص ١٢١ ـ والاستيعاب : ١٨٧٢/٤

(٢) الاصابة : ١٢٧/٨ وسنن أبى داود

فولّى المصطفى عنها مغضبا ، وتركها شهرين أو ثلاثة لا يقربها ، أو قيل : « فهجرها لذلك ، ذا الحجة ، والمحرم ، وبعض صفر ، ثم أتاها بعد ، وعاد الى ما كان عليه معها » (١)

ولم تحرم «صفية» هذه الحماية حتى آخر أيامه عليه الصلاة والسلام يروون أن أمهات المؤمنين اجتمعن حول فراش زوجهن المصطفى فى مرضه الأخير ، فقالت صفية :

ــ انى والله يانبى الله ، لوددت أن الذى بك بى ..

فتبـادلت الأخريات نظرات ذات معنى ، فما راعهن إلا أن قال عليه الصلاة والسلام :

« مضمضن » !

تساءلن فى دهشة : من أى شىء ؟

قال : « من تغامزكن بها ، والله إنها لصادقة » (٢)

***

ولحق « محمد بن عبد الله » بالرفيق الأعلى ، وافتقدت « صفية » تلك الحماية الطيبة ، فما نسى الناس لها انها منحدرة من سلالة يهود ، وما تورع بعضهم عن مهاجمتها من تلك الثغرة التى لم يكفِ لسدها حسنُ إسلام « صفية » وزواجها من نبى المسلمين عليه الصلاة والسلام

حدثوا أن جارية لها أتت « أمير المؤمنين عمر بن الخطاب » فقالت :

« يا أمير المؤمنين ، ان صفية تحب السبت وتصل اليهود » ..

فبعث « عمر » رضى الله عنه الى صفية يسألها عن ذلك فأجابت :

« أما السبت فإنى لم أحبه منذ أبدلنى الله به الجمعة ، وأما اليهود فإن لى فيهم رحما فأنا أصِلها ! »

ثم اثنت الى جاريتها فسألتها عما حملها على مثل ذلك الافتراء ، فأجابت الجارية : الشيطان ! ..

---

(١) الاستيعاب : ٤/١٨٥٠.
(٢) الاصابة : ١٢٧/٨ .

وردت صفية :

« اذهبى فأنت حرة » (١)

***

واندفعت « صفية » راضية أو كارهة ، تشارك فى المعركة السياسية التى بدأت فى عهد « عثمان » رضى الله عنه . وكان موقفها اذ ذاك شبيها بموقفها بين عائشة والزهراء ، فبالرغم من حرصها على مودة عائشة التى كانت حينذاك ذات نفوذ سياسى قوى، ومكانة فىالدولة الاسلامية رفيعة ، لم تأل « صفية » جهدا فى الولاء لأمير المؤمنين « عثمان » حين كانت « عائشة » تحرض عليه ، حتى بلغ بها الأمر أن دلت قميص رسول الله من بيتها وصاحت فى المسلمين :

« أيها الناس، هذا قميص رسول‌الله لم يبل، وقد أبلى‌عثمان سنته..»

حدث مولى لصفية يدعى كنانة — وقيل هو ابن أخيها — قال :

« قدمت صفية ، فى حجابها ، على بغلة لترد عن عثمان ، فلقينا الأشتر — النخعى ، أحد الذين حاصروا عثمان — فضرب وجه البغلة ، وهو لا يعرف راكبتها ، فقالت لى صفية :

— ردنى لا تفضحنى !

ثم وضعت معبرا بين منزلها ومنزل عثمان ، فكانت تنقل اليه الطعام والماء وهو فى محنة الحصار » (٢)

***

وماتت « صفية » حوالى سنة خمسين ، والأمر مستقر لمعاوية ..

ودفنت رحمها الله بالبقيع ، مع أمهات المؤمنين .. (٣)

وتركت اسمها فى كتب الحديث ، ومن بين الذين رووا عنهـا : ابن أخيها ، ومولاها كنانة ، والامام زين العابدين على بن الحسين ، ومسلم ابن صفوان ..

---

(١) السمط الثمين : ١١٢ — والاصابة ٨/١٢٧ — والاستيعاب : ٤/١٨٧٢

(٢) الاصابة : ٨/١٢٧.

(٣) السمط الثمين : ١٢٣

# أم حبيبة
## بنت أبى سفيان

« ثم خرج أبو سفيان حتى قدم المدينة فدخل على ابنته « أم حبيبة » فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم طوته عنه. فقال : يا بنية ، ما أدرى أرغبت بى عن هذا الفراش أم رغبت به عنى ؟ قالت : بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت رجل مشرك ، فلم أحب أن تجلس عليه » ..

ابن اسحاق : السيرة ٤ / ٣٨

# عودة المهاجرين

عاد البطـل المظفر الى دار هجرته وقد تمّ له النصر فى « خيبر » وتزوج عقيلة بنى النضير ، وسيقت بين يديه غنائم يهود

وتأهبت « المدينة » للقاء الجيش العائد ، وقد أعدت للبطل أسعد مفاجأة ترضيه !

فهناك فى « المدينة » ، والمصطفى غائب فى خيبر ، كان مهاجرو الحبشة قد جاءوا فى صحبة « عمرو بن أمية الضمرى » الذى بعثه النبى عليه الصلاة والسلام الى « النجاشى » ليعود بمن بقى فى بلاده من المهاجرين الأولين (١)

وحملهم « عمرو » فى سفينتين ، فبلغ بهم « المدينة » ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، مع جنده من المهاجرين والأنصار ، فى غزوة خيبر .

وأعقب وصولـهم إعلانُ فتح « خيبر » والنصر على يهودها ، وخرج أهل « المدينة » لاستقبال العسـكر المنتصر ، فضاقت بهم أرجاء الوادى ، وتجاوبت أرجاؤه بهتاف الحمد والتـكبير والدعاء ..

وأهلَّ عليهم نبيهم المصطفى ، فلمح من بينهم أصحابه الذين هاجروا من « مكة » أيام الاضطهاد والعذاب ، أولئك الذين كان آخر عهـده بهم ، يوم تسللوا من « مكة » أيام المحنة ، خارجين من ديارهم وأموالهم فى سبيل الله ، مهاجرين بدينهم من الفتنة والاضطهاد ..

وكانوا قد تواعدوا على اللقاء فى الدار الآخرة ، حيث النعيم الذى وُعد به المؤمنون ، وها هم أولاء يلتقون فى دار الهجرة ، يوم الاحتفال بفتح « خيبر » وقد صارت للاسلام الكلمة العليا فى جزيرة العرب !

ووثب المصطفى من فوق راحلته ، فالتزم ابن عمه « جعفر بن أبى طالب » معانقا ، وقبَّل عينيه وهو يقول فى غبطة :

---

(١) تاريخ الطبرى : ٨٩/٣ والسيرة لابن هشام : ٣/٤

ما أدرى بأيهما أنا أسر : بفتح خيبر ، أم بقدوم جعفر ؟ »

والتفت من بعد ذلك يلتمس بقية صحبه المهاجرين ، وقد كانوا فيما أحصى « ابن اسحق » ستة عشر رجلا (١)

وهناك بين المهاجرات العائدات ، كانت « أم حبيبة » بنت أبى سفيان بن حرب » تنتظر المصطفى ليصحبها الى بيته !

كان صلى الله عليه وسلم قد تزوجها وهى ما تزال بالحبشة (٢) ، ولهذا الزواج قصة تبدأ منذ بعث محمد صلى الله عليه وسلم رسولا ..

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية : ٣/٤ ، ٥

(٢) تاريخ الطبرى : ٣/٩٠

# محنة فى الغربة

كانت « رملة » بنت أبى سفيان زعيم مكة وقائد المشركين ، زوجة لابن عمة الرسول ، عبيد الله بن جحش الأسدى ، أخى السيدة زينب أم المؤمنين . وقد أسلم عبيد الله فأسلمت معه « رملة »

وأبوها « أبو سفيان على الكفر ..

وخشيت أذى أبيها ، فهاجرت مع زوجها الى الحبشة وهى مثقلة بجنين تحمله ، وتركت أباها « بمكة » وقد جن غيظه وقهره ، أن أسلمت ابنته وليس له اليها سبيل ..

وهناك فى الحبشة ، وضعت « رملة » بنتها « حبيبة بنت عبيد الله » التى كنيت بها فصارت تدعى « أم حبيبة » ..

واذ هى فى غربتها تكتم حنينها الى الوطن ، وتحاول أن تجد فى زوجها عوضا عمن فارقت من أهل وعشيرة ، ارتد « عبيد الله » عن دينه الذى من أجله هاجر الى الحبشة ، واعتنق « النصرانية » دين الأحباش..

وحاول أن يردها عن دين الاسلام فصبرت على دينها (١) ..

وكادت « بنت أبى سفيان » تهلك غما وأسى وحسرة :

فيم كانت هجرة عبيد الله إذن ، وفيم كان عذاب الاضطهاد ومحنة التشرد وأشجان الاغتراب ، ومرارة التنكر للآباء والأجداد ، وهذا هو يصبأ عن الاسلام الذى من أجله احتملت « رملة » كل ذلك ، وهان عليها أن تذيق أباها عذاب القهر والغم ؟ ..

لقد كان أكرم لعبيد الله ، أن يبقى على دين آبائه وأن يقاتل عنه مع قومه وعشيرته دفاعا عن مقدسات موروثة عن الأجداد من قديم الحقب والآباد ..

اما أن يكفر بهذا كله ويجحده ، ويرضى بالاسلام دينا ليجىء الى

---

(١) السيرة ٣/٦ وتاريخ الطبرى : ٣/١١٧ — والاستيعاب : ٤/١٩٢٩

الحبشة فيكفر به ويستبدل به دينا غريبا لقوم غرباء ، كما يبدل ثوبا بثوب ، فأية ضلالة وأى خزى وعار ..

وهــذه الابنة الحبيبة ، ما ذنبها لكى تولد لمثل هذا الأب الصابىء المرتد ؟ وما جريرتها لتخرج الى الحياة فى أرض غريبة ، وقد انبتّ ما بين أبويها وتمزق شمل أسرتها وتوزعت أهلها ديانات شتى : فأبوها نصرانى ، وأمها مسلمة ، وجدها مشرك عدو الاسلام !

واعتزلت « رملة » الناس شاعرة بالخزى لفعلة الرجل الذى كان لها زوجا ، ولا يزال لطفلتها والدا ...

وأغلقت الباب عليها وعلى وليدتها « حبيبة » مضاعفة الغربة ، لا تريد أن تلقى الناس فى دار هجرتها ، ولا سبيل لها الى أرض الوطن ، وهناك أبوها يعلن حربا ضارية على النبى الذى صدقته وآمنت به ...

وأين تراها تقيم فى « مكة » لو عادت ؟ ..

أفى بيت أبويها وقد حيل بينها وبينه منذ أسلمت ؟ ..

أم فى دار « آل جحش » رهط زوجها ، وقد أقفرت بهجرة أهلها وصارت منهم خلاء ؟ ..

لقد بلغها من أنباء مكة « أن عتبة بن أبى ربيعة ، والعباس بن عبد المطلب ، وأباجهل بن هشام بن المغيرة ، مروا وهم مصعدون إلى أعلى مكة ، بدار بنى جحش ، فنظر اليها عتبة تخفق أبوابها يبابا ليس فيها ساكن ، ثم تنفس الصعداء وقال :

وكل دار وان طالت سـلامتها    يوما ستدركها النوباء والحوبُ

أصبحت دار بنى جحش خلاء من أهلها .

فقال أبو جهل : وما تبكى عليه ؟ ..

ثم استطرد : هذا عمل ابن أخى ، فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وقطع بيننا » (١)

كلا ، لا سبيل « لرملة » الى « مكة » والمعركة محتـدمة بين أبيها والنبى الذى تؤمن به ، ودار بنى جحش تخفق أبوابها يبابا !

---

(١) ابن هشام ـ السيرة : ١١٥/٢

## رسالة من الحجاز

ومرت فترة من الزمن وهى فى عزلتها الحزينة ، فما شعرت ذات يوم الا وطرقات تلح على بابها الموصد ، مستأذنة لجارية من جوارى النجاشى ..

وفتحت « أم حبيبة » الباب ، فدخلت الجارية وأدت اليها رسالة النجاشى :

« ان الملك يقول لك : وكّلى مَن يزوجك من نبى العرب ، فقد أرسل اليه ليخطبك له ! »

واستعادت « رملة » حديث الجارية مرة ومرتين وثلاثا ، حتى اذا استيقنت من البشرى نزعت سوارين لها من فضة فقدمتهما اليها حلاوة البشرى (١) ، ثم أرسلت الى « خالد بن سعيد بن العاص بن أمية ابن عبد شمس » ـ كبير المهاجرين من قومها بنى أمية ـ فوكلته فى زواجها ..

وفى المساء ، دعا النجاشى اليه مَن بالحبشة من المسلمين ، فجاءوا يتقدمهم جعفر بن أبى طالب ، ابن عم الرسول ، وخالد بن سعيد ، وكيل رملة ..

وتكلم النجاشى وترجم المترجم :

« ان محمد بن عبد الله كتب لى أن أزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان ، فمن أولاكم بها ؟ »

أجاب القوم :

« خالد بن سعيد ، قد وكلته »

فاتجه اليه النجاشى قائلا :

« فزوِّجنها من نبيكم ، وقد أصدقتُها عنه أربعمائة دينار »

---

(١) السمط الثمين : ٩٧ ، والاصابة جـ ٩ ـ والاستيعاب : ٤/١٩٣٠

وسكب الدنانير ، فقام خالد وقال :

« قد أجبت الى ما دعا اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وزوجته أم حبيبة » ..

وقبض الصداق ..

وأولم لهم النجاشى وليمة الزواج (١)

ثم أتوا باب « أم حبيبة » مهنئين مباركين ..

وباتت بنت أبى سفيان ، وهى « أم المؤمنين » !

وأصبحت فجاءتها « جارية النجاشى » تحمل اليها هدايا نساء الملك من عود وعنبر وطيب ، فقدمت اليها « أم المؤمنين » خمسين دينارا من صداقها قائلة :

« كنت أعطيتك السوارين بالأمس وليس بيدى شىء من المال ، وقد جاءنى الله عز وجل بهذا » ..

فأبت أن تمسّ الدنانير ، وردّت السوارين وهى تقول : ان الملك أجزل لها العطاء ، وأمرها ألا تأخذ من أم المؤمنين شيئا ، كما أمر نساءه أن يبعثن اليها مما عندهن من طيب ..

وتقبلت « أم حبيبة » الهدية شاكرة ، فاحتفظت بها حتى حملتها معها الى بيت النبى ، فكان صلى الله عليه وسلم يرى عندها طيب الحبشة وعُودها فلا ينكره (٢)

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر : ٤/١٩٣٠

(٢) تاريخ الطبرى : ٣/٨٩ ـ الاصابة جـ ٨ ـ والسمط الثمين : ٩٧ ، ٩٨ ـ والاستيعاب ٤/١٩٢٩ ، ١٩٣١ .

# بين الأب والزوج

واحتفلت دار الهجرة بدخول بنت أبى سفيان ببيت الرسول ..

وأولم « عثمان بن عفان » وليمة حافلة ، نحر فيها الذبائح وأطعم الناس اللحم ..

وباتت « مكة » ساهدة مؤرقة ، تردد قول زعيمها أبى سفيان وقد بلغه النبأ :

« هذا الفحل لا يجدع أنفه ! » [1]

ولم يكن قد مضى على زواج محمد — صلى الله عليه وسلم — من عقيلة بنى النضير ، غير أيام معدودات !

واستقبلت نساء النبى زميلتهن « أم حبيبة » بشىء من المجاملة ، ولم تر « عائشة » فيها أول الأمر ما يشعل غيرتها ، اذ كانت « رملة » تدنو من عامها الأربعين ، وليس لها سحر « صفية » ، ولا ملاحة «جويرية» ، ولا حسن « أم سلمة » ، ولا جمال « زينب » ...

وأبدت « عائشة » استعدادها لقبول الزوجة الجديدة فى صفها ، لكن « أم حبيبة » أنفت أن تكون تابعة لأخرى ...

وبقدر ما أنكرت « عائشة » ألا تسارع « بنت أبى سفيان » الى كسب رضاها كما فعلت « حفصة بنت عمر » ، أنكرت « رملة » على « عائشة » الزهو الطامح الى الاستئثار بالنفوذ فى بيت النبى ..

لكن الجفوة بينهما لم تشتد الى درجة الخصومة السافرة المعلنة ، وان بقيت «عائشة» تهاب « رملة » وتخشى وقوفها فى سبيل ما تشتهى من

---

(١) تاريخ الطبرى : ٣/٩٠ . والسمط الثمين : ٩٩ . والاستيعاب : ٤/١٨٤٥

تفرد بالكلمة العليا بين أزواج النبى !

وكانت « رملة » بحيث تفعل ما تخشاه « عائشة » لولا أن ظلت تحس فى أعماقها حزنا قاسيا ، لأن أباها لا يزال على الوثنية الضالة ..

وآلمها أن تظل الحرب بين زوجها وأبيها قائمة ، تأكل من رجال أعزة عليها ، فما من قتيل إلا وهو من شيعة أبيها ، وما من شهيد إلا وهو من صحابة زوجها ، أبنائها المؤمنين !

***

وبلغها يوما أن قريشا نقضت عهد « الحديبية » (١) وأدركت بفطنتها وبما تعرف من خلق زوجها الرسول ، انه صلى الله عليه وسلم لن يسكت على ضيم ولن يرضى أن يغدر به أو ينقض له عهد ، فهل نراه يغزو « مكة » ليهدم الأصنام على رءوس المشركين ، وفيهم أبوها ، وإخوتها ، وأكثر أهلها وعشيرتها ؟ ..

كذلك لاحت نذر الخطر فى « مكة » فاجتمع قادتها بدار الندوة يتشاورون فى أمر « محمد » الذى يوشك أن ينقض عليهم ولا قبل لهم به

لقد كانوا من قبل يستهينون بمحمد ومن اتبعه ، فهل تراهم يستهينون به اليوم وقد بلغ من القوة والمنعة ما بلغ ، وصار له السلطان الأكبر فى الحجاز ؟ ..

واستقر رأيهم على أن يوفدوا رسولا منهم الى المدينة يفاوض محمدا — صلى الله عليه وسلم — فى تجديد الهدنة ومد أجلها عشر سنين ، ولكن من يكون رسولهم ؟ ..

أبو سفيان بن حرب ، ولا أحد سواه !

على هذا أجمعوا أمرهم ، ولم يستطع « أبو سفيان » الا أن يذعن ؛ وأنى له أن يعتذر وهو الذى أشعل النار وسهر عليها يمدها بالوقود من فلذات أكباد مكة ؟ .. فليَصْلَ اليوم حرَّها ، وليمض الى « محمد » خصمه الألد ، يسأله الموادعة والمسالمة ! ..

وخرج « أبو سفيان » من أم القرى صاغرا مكرها يريد المدينة ، فلما

---

(١) تاريخ الطبرى : ١١١/٢.

بلغها أشفق من لقاء « محمد » وذكر أن له ابنة هناك فى بيت خصمه ، فتسلل اليها يستعين بها على ما جاء من أجله ..

وفوجئت به « أم المؤمنين » يدخل بيتهـا (١) ، ولم تكن قد رأته منذ هاجرت الى الحبشة ، فوقفت تجاهه بادية الحيرة ، لا تدرى ماذا تفعل أو ماذا تقول ..

وأدرك « أبو سفيان » ما تعانيـه ابنته ، فأعفاها من أن تأذن له فى الجلوس ، وتقدم من تلقاء نفسه ليجلس على الفراش هناك ، فما راعه الا أن وثبت « رملة » فاختطفت الفراش وطوته ...

سألها وهو يلوذ بالصبر :

« أطويته يا بنية رغبة بى عن الفراش ، أم رغبة بالفراش عنى ؟ »

وجاءه جوابها :

« هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت رجل مشرك ، فلم أحب أن تجلس عليه ! »

قال والألم يفرى كبده :

« لقد أصابك يا بنية بعدى شر » (٢)

وانصرف غاضبا مقهورا ..

وخلت إلى أفكارها وهواجسها ، حتى جاء رسول الله أخيرا ، فعلمت ما كان من أمر « أبى سفيان » :

ذهب الى النبى فكلمه فى العهد فلم يجبه بشىء ..

فتوسل بأبى بكر الى الرسول لكن أبا بكر رفض ..

فكلم « عمر بن الخطاب » فرد عليه فى غلظة وجفاء :

« أنا أشفع لكم الى رسول الله ؟ .. فوالله لو لم أجد الا الذر لجاهدتكم به ! » (٣)

وانطلق أبو سفيان الى بيت « على بن أبى طالب » وعنده السيدة فاطمة

---

(١) سيرة ابن هشام : ٣٨/٤
(٢) تاريخ الطبرى : ١١٢/٣
(٣) سيرة ابن هشـــام : ٣٨/٤ وتاريخ الطبرى : ١١٢/٣

الزهراء ، وولدهما « الحسن » يدب بين يديها . فقال أبو سفيان :

ــ يا على ، إنك أمس القوم بى رحما ، وانى قد جئت فى حاجة .. فاشفع لى الى محمد .

أجاب « على » :

ــ ويحك يا أبا سفيان ، والله لقد عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه .

فالتفت أبو سفيان الى السيدة فاطمة وسأل فى ضراعة :

« يا ابنة محمد ، هل لك أن تأمرى بنيَّك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب الى آخر الدهر ؟ »

أجابت رضى الله عنها :

« والله ما بلغ بُنَيِّ ذاك أن يجير بين الناس ، وما يجير أحدٌ على رسول الله صلى الله عليه وسلم »

واذ سدت السبل فى وجهه ، التمس نصيحة ابن عم الرسول ، على ابن أبى طالب ، فقال كرم الله وجهه :

« والله ما أعلم شيئا يغنى عنك شيئا ، لكنك سيد بنى كنانة ، فقم فأجِرْ بين الناس ثم الحق بأرضك . وما أظن ذلك مغنيا ، ولكنى لا أجد لك غيره » (١)

فذهب « أبو سفيان » الى المسجد ، وهنـاك أعلن انه أجار بين الناس ، ثم أسرع الى راحلته وانطلق بها يعدو فى طريق مكة ، كأنه يفر من مطارد ..

سمعت « أم المؤمنين » ماجرى لأبيها ، فما زادت على أن دعت لزوجها المصطفى بالنصر ، وقد رأته يتخذ أهبته للجولة الحاسمة فى البلد الحرام

ولعل نساء النبى راقبنها وهى فى موقفها ذاك الدقيق الحرج ، ترى جيش المدينة يتأهب لأخذ قومها على غرة ، ومكة لا تزال فى حيرة من الأمر ، تستمع لما كان من أمر أبى سفيان الذى رجع من وفادته خائبا

(١) سيرة ابن هشام : ٤/٢٨ ــ وتاريخ الطبرى : ٣/١١٢

على غير قرار ، يقول :

« جئت محمدا فوالله ما رد علىَّ شيئا ، ثم جئت ابن أبى قحافة فلم أجد فيه خيرا ، ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أدنى العدو » (١)

كان الموقف صعبا بالغ الصعوبة ، دقيقا أشد الدقة ، فانتصار محمد صلى الله عليه وسلم ، يعنى القضاء على أبيها وعشيرتها ، وان « أم المؤمنين » لتناصب قومها العداء ، وتبرأ منهم الى الله ورسوله ، ولكن هل يبرأ دمها من دماء لهم سِيطت به ؟ .. وهل يبرأ قلبها من الحزن للمصير الفاجع الذى ينتظرهم فى الدنيا والآخرة ؟ !

واذ هى فى حيرتها المضنية ، لاح لها شعاع من الأمل :

آلا يمكن أن يسلم أبو سفيان ، كما أسلم عمر بن الخطاب ، وخالد ابن الوليد ، وأبو العاص بن الربيع ، زوج بنت الرسول ؟ ..

انه لأمل واه ، أقرب الى أن يكون سرابا ، ولكن زوج النبى تشبثت به ليعصمها من القنوط والجزع ، فتوجهت الى السماء ، تدعو الله أن يهدى أبا سفيان الى الاسلام !

وأحست حينذاك طمأنينة وسلاما ، فتلت من كلمات الله جل جلاله :

« عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة ، والله قدير والله غفور رحيم » (٢)

وكان هذا أقصى ما تملك « أم المؤمنين ، بنت أبى سفيان » لأبيها وأهلها ..

على حين بلغ الجزع برجل من صحابة النبى الذين شهدوا بدرا ، أن بعث كتابا مع امرأة من « مكة » تدعى « سارة » ووعدها مكافأة سخية اذا هى أبلغت كتابه قريشا ، ليعلموا الخطر الذى يوشك أن يدهمهم (٣) وعلم النبى بكتاب صاحبه « حاطب بن أبى بلتعة » فبعث على بن أبى

---

(١) السيرة : ٣٩/٤ وتاريخ الطبرى : ١٢١/٣
(٢) الاية من سورة الممتحنة ، ٧ ، وقد نزلت بعد الحديبية .
(٣) سيرة ابن هشام : ٤٠/٤ — والاصابة: حاطب بن ابى بلتعة

طالب والزبير بن العوام فأدركا « سارة » وما زالا بها حتى أخرجت الكتاب من ذوائب شعرها ..

ودعا النبي اليه صاحبه ، فسأله عما حمله على ذلك . قال حاطب :

« يارسول الله ، أما والله انى لمؤمن بالله وبرسوله ، ما غيرتُ ولا بدلت ، ولكنى كنت امرأ ليس له فى القوم من أهل ولا عشيرة ، وكان لى بين أظهرهم ولد أهل ، فصانعتهم عليهم »

فوثب به « عمر بن الخطاب » واستأذن الرسول فى أن يضرب عنقه ، لكنه صلى الله عليه وسلم حال دونه ، اذ كان أحد أصحاب « بدر » [1]

وانما جئت بحديث « حاطب » هنا ، لنقدر صعوبة الموقف على « أم المؤمنين بنت أبى سفيان » حين رأت زوجها الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهو خارج فى عشرة آلاف مقاتل يريد « مكة » !

***

وتم الفتح ..

وطارت البشرى الى « المدينة » بما أفاء الله على رسوله من نصر ..

وتسامعت « دار الهجرة » بما كان من لقاء الرسول بأبى سفيان ، الذى أرسلته مكة ، حين رأت نيران العسكر الغازى تتوهج قريبا منها ، ليستطلع أمر هذه الجيوش الزاحفة نحو البلد الحرام

وعرف « العباس بن عبد المطلب » أبا سفيان فقال ينبئه بالخبر :

« ويحك يا أبا حنظلة ، هذا رسول الله فى الناس ، واصباحَ قريش اذا دخل مكة عنوة ! فأسلم ثكلتك أمك وعشيرتك » [2]

قال أبو سفيان :

« فما الحيلة فداك أبى وأمى ؟ »

فأردفه « العباس عم المصطفى » وراءه ، وسار به خلال المعسكر، مارا بعشرة آلاف أوقدوا نيرانهم لتلقى الرعب فى قلوب المشركين ..

فلما مرا بنار « عمر بن الخطاب » عرف رضى الله عنه أبا سفيان فأسرع

---

(١) سيرة ابن هشام : ١٠/٤ — والاصابة : حاطب بن ابى بلتعة
(٢) السيرة : ٤٥/٤ — وتاريخ الطبرى : ٤٠/٣ — طبقات ابن سعد : ٩٨/٢

الى خيمة النبى صلى الله عليه وسلم ، مستأذنا فى أن يضرب عنق الطاغية .

وجاء العباس بن عبد المطلب ، على أثره فقال :

« إنى يا رسول الله قد أجرته »

وأمسك القوم أنفاسهم حتى سمعوا كلمة الرسول :

« اذهب به يا عباس الى رحلك ، فإذا أصبحت فائتنى به »

وقضى « أبو سفيان » ليلته مؤرقا يترقب حكم «محمد بن عبد الله» فى كبير قريش ..

فلما كان الصبح جيء بأبى سفيان الى حضرة النبى ، وفى مجلسه كبار المهاجرين والأنصار (١)

وتكلم النبى صلى الله عليه وسلم :

« ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأنِ لك أن تعلم انه لا اله الا الله ؟ »

أجاب الرجل :

« بأبى أنت وأمى ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره ، لقد أغنى شيئا بعدْ ! »

قال الرسول :

« ويحك يا أبا سفيان : ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟ »

أجاب أبو رملة :

« بأبى أنت وأمى ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! أما هذه ، فوالله ان فى النفس منها حتى الآن شيئا ! »

ولكن « أبا سفيان » ما لبث أن أعلن اسلامه ..

فالتمس « العباس » من النبى صلى الله عليه وسلم أن يكرم الرجل بشىء يرضى كبرياءه ، فأجاب النبى الكريم :

« نعم .. من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن » (٢)

---

(١) السيرة : ٤٥/٤ — وتاريخ الطبرى : ٤٠/٣

(٢) سيرة ابن هشام : ٤٦/٤ — وتاريخ الطبرى : ١١/٣ وطبقات ابن سعد : ٩٨/٢

وبعث أبو سفيان من نادى فى مكة :

« من دخل دار أبى سفيان فهو آمن .. »

فما زالت أصداء الهتاف تنتقل فى الأفق حتى بلغت سمع « أم حبيبة » فهتفت وقد هزها الفرح :

« من دخل دار أبى فهو آمن ! »

ألا ما أكرم زوجها الرسول ، وما أحلمه ، وما أنبله ، وما أوصله !

وسجدت لله شاكرة ...

وقامت لترى وقع النبأ الجليـل على عائشة وحفصة ، وسائر أزواج المصطفى ...

***

وأحست أن قد أزيح عن كاهلها عبء باهظ ، ومن تلك اللحظة لم تقبل قط أن تتحداها « عائشة » ، أو تمارس معها ما اعتادت أن تمارسه من تحكم وزهو ومباهاة ..

وظلت ما عاشت ، تقف لعائشة بالمرصاد ، وتتصدى لها كلما أسرفت فى غلوائها أو اشتطت فى اعتدادها بمكانتها ..

حتى اذا حان رحيلها عن الدنيا ، دعت اليها « عائشة بنت أبى بكر » فقالت وهى تحتضر :

« قد كاد أن يكون بيننا ما يكون من الضرائر ، فتحللينني من ذلك ؟ »

أو قالت : « قد يكون بيننـا ما يكون بين الضرائر ، فغفر الله لى ولك ما كان من ذلك »

فحللتها عائشة واستغفرت لها ، واذ ذاك أضـاء وجهها بنور الرضى وهمست : سررتنى سرك الله

وفعلت مثل ذلك مع « أم سلمة بنت أمية ، زاد الركب » (١)

ثم رقدت بسلام ، وأودع جسدها ثرى البقيع الطيب ، فى مدينـة زوجها الرسول ، سنة أربع وأربعين من الهجرة فى خلافة أخيها معاوية (٢)

---

(١) السمط الثمين ، ص ١٠١

(٢) الاستيعاب : ١٩٢٩/٤ ـ وانظر ( وفاء الوفا للسمهودى )٩١٢/٣

[illegible]

الفصل الثانى عشر

# مارية القبطية
## أم ابراهيم

« استوصوا بالقبط خيرا ..
فإن لهم ذمة ورحما »
حديث شريف

# هدية من مصر

وغير بعيد من بيت النبى ، فى منزل خاص ، كانت تقيم واحدة من نساء النبى ، لم تلقب بأم المؤمنين ، ولكنها حظيت دونهن جميعا بشرف أمومتها لابراهيم بن محمد صلى الله عليه وسلم ..

وهى وإن لم تقم فى دور النبى الملحقة بالمسجد ، كان أثرها فى هذه الدور وساكناتها بالغا نافذا ، وحسبنا أن نذكر أنها وحدها التى تظاهرت عليها أزواج النبى ، وفيها نزلت آيات التحريم :

« يأيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبغى مرضاة أزواجك »

فمن تكون هذه السيدة ؟ .. وكيف دخلت حياة الرسول ؟ .. وأى موضع كان لها فى هذه الحياة ؟ ..

***

فى قرية من صعيد مصر ، تدعى «حَفْن» قريبة من بلدة «أنصنا» (١) الواقعة على الضفة الشرقية للنيل تجاه الأشمونين ، ولدت « مارية بنت شمعون » لأب قبطى ، وأم مسيحية رومية ..

وأمضت بها حداثتها الأولى قبل أن تنتقل فى مطلع شبابها الباكر مع أختها « سيرين » الى قصر « المقوقس » عظيم القبط ..

وقد سمعت هنالك بما كان من ظهور نبى فى جزيرة العرب يدعو الى دين سماوى جديد ، وكانت فى القصر حين جاء « حاطب بن أبى بلتعة » موفدا من هذا النبى العربى ، يحمل رسالة الى المقوقس ..

وأذن له فى الدخول ، فأدى الرسالة :

« بسم الله الرحمن الرحيم ..

« من محمد بن عبد الله الى المقوقس عظيم القبط : سلام على من اتبع

---

(١) سيرة ابن هشام : ١/٧ – وراجع معه القاموس الجغرافى لرمزى جـ ١ ط دار الكتب المصرية – وللاستاذ حفنى ناصف رحمه الله بحث فى « موطن مارية القبطية من الديار المصرية » قدمه الى مؤتمر المستشرقين بأثينا عام ١٩١٥ .

الهدى . أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الاسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فان توليت فإنما عليك إثم القبط : « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون »

وقرأ المقوقس الكتاب ثم طواه فى عناية وتوقير ، ووضعه فى حق من عاج دفعه الى واحدة من جواريه ..

والتفت من بعد ذلك الى « حاطب » يسأله أن يحدثه عن النبى ويصفه له ، فلما فعل ، فكر المقوقس مليا ثم قال لحاطب :

« قد كنت أعلم أن نبيـا قد بقى ، وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وهناك كان مخرج الأنبياء ، فأراه قد خرج من أرض العرب .. ولكن القبط لا تطاوعنى ، وأنا أضن بملكى أن أفارقه ... »

ثم دعا بكاتبه فأملى رده على كتاب نبى الإسلام :

« .. أما بعـد ، فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرتَ فيه وما تدعو اليه ، وقد علمت أن نبيا قد بقى ، وكنت أظن انه يخرج بالشام ..

« وقد أكرمت رسولك ، وبعثت لك بجاريتين لهما مكان من القبط عظيم ، وبثياب ، ومطية لتركبها ، والسلام عليك » ..

ودفع « المقوقس » كتابه الى « حاطب » معتذرا بما يعلم من تمسك القبط بدينهم ، وموصيا إياه بأن يكتم ما دار بينهما ، فلا يسمع القبط منه حرفا واحدا ..

وانطلق « حاطب » عائدا الى النبى صلى الله عليه وسلم ، بكتاب المقوقس وهديته :« مارية » وأختها « سيرين » [1] وعبد خصى ، وألف مثقال ذهبا ، وعشرين ثوبا لينا من نسج مصر، وبغل مسرج ملجم ، وحمار أشهب ، وجانب من عسل « بنها » وبعض العود والند والمسك ..

---

(١) هذا هو المشـهور ، وفى رواية ان المقوقس بعث الى الرسول اربع جوار منهن ماريه وسيرين . انظر تاريخ الطبرى ٢/٨٥

وشعرت الأختـــان بوحشـــة لفراق مصر ، فسارتا تملآن أعينهما من الوادي الحبيب ، حتى اذا غابت عنهما آخر معالمه ، ألقتا نظرة وداع دامعة ، على الأرض التى حلّت فيها تمائمهما ، ودرج عليها صباهما ..

وأحس « حاطب » ما تجد الأختان الشابتان من شجن الفراق ، فأقبل عليهما يحدثهما عن تاريخ لبلاده عريق ، ويروى لهما ما وعى من قصص وأساطير نسجها الزمان حول مكة والحجاز طوال قرون لا عداد لها ، ثم اثنى يتحدث عن النبى الرسول ، حديث مؤمن وامق وتابع صاحب ، فأخذت الشابتان بما سمعتا وانشرح قلباهما للاسلام ونبيه الكريم ..

واستغرقهما التفكير فى الحياة الجديدة التى توشك أن تستقبلهما ، وفى السيد النبى الذى ينتظر فى « المدينة » رجوع صاحبه « حاطب » برد المقوقس ..

***

حتى بلغ الركب المدينة ســنة سبع من الهجرة ، وقد عاد الرســول وشيكا من « الحديبية » بعد أن عقد الهدنه مع قريش ..

وتلقى صلى الله عليه وسلم كتاب المقوقس ، وهدية مصر ..

وأعجبته « مارية » فاكتفى بها ، ووهب أختها « سيرين » لشاعره « حسان بن ثابت الخزرجى الانصارى » ..

وطار النبأ الى دور النبى ، ان شابة مصرية حلوة ، جعدة الشعر ، جذابة الملامح ، قد جاءت من أرض النيل هدية للرسول ، فأنزلها صلى الله عليه وسلم بمنزل لحارثة بن النعمان ، قرب المسجد ..

وتكلفت « عائشة » ما استطاعت من جهد ، لكى تعلل نفســها بألا خطر عليها من هذه الشابة الجديدة ، فما كانت ســوى جارية قبطيــة غريبة ، أهداها سيد الى سيد ..

لكنها راحت ترقب فى كثير من القلق ، مظاهر اهتمام زوجها بتلك المصرية ، وقد أثار جزعها أن تراه صلى الله عليه وسلم يكثر من التردد عليها ، ويمكث لديها طويلا (١)

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ــ وانظر السمط الثمين ص ١٤٠

# طيف .. وأمل

ومضى عام أو نحو عام ، و « مارية » سعيدة بحظوتها لدى السيد الرسول ، قد اطمـأن بها المقام فى كنفه ، وأرضـاها أن يضرب عليها الحجاب ، شأن أزواجه أمهات المؤمنين ..

وانحصرت أمانيها وخواطرها ، بل انحصر وجودها كله فى شخص ذلك السيد العظيم الذي ربطها القدر به على غير ميعاد ، فكان لها السيد والصاحب والأهل والوطن ، وصار همها أن تظل أبدا موضع حظوته ورضاه ..

وكانت تحمل فى كيانها سحر مصر ، وفى أعطافها أريج النيل المبـارك وواديه الخصب . كما كانت تحف بها رؤى مثيرة وأطياف ساحرة : لإيزيس فى حبها العبقرى ، ونفرتيتى فى جمالها الباهر ، وحتشبسوت فى ملكها العتيد ، وكليوباترة فى جاذبيتها الآسرة ..

ولم يَغِض قط ذلك النبع الدافق الذى كان يمدها فى كل آن بعذب الحديث وشهى السمر ، على أنها كانت مشدودة الوجدان إلى قصـة « هاجر » زميلتها المصرية التى جاءت من أرض النيل ، وحملت من سيدها « ابراهيم » فأثارت غيرة زوجته السيدة « سارة » فما زالت بزوجها حتى مضى بتلك المصرية وابنها الى البيت العتيق ، حيث تركهما هنالك : وحيدين بواد غير ذى زرع عند اطلال البيت (١)

وطالما شاق « مارية » أن تسمع الحديث عن نجدة السماء التى هدت «هاجر» الى نبع زمزم ، وأن تستوعب ما وعت أم القرى من خبرها : كيف بدأت الجزيرة العربية بانبثاق ذاك النبع المبارك حياة جديدة ، وكيف عاشت « هاجر » ملء التاريخ ، وصارت هرولتها ومسعاها بين الصـفا والمروة ، شعيرة مقدسة من شعائر حج العرب فى الجاهلية والاسلام ..

---

(١) ابن هشام : ٧/١

والِتفت « مارية » حين كانت تخلو بنفسها ، أن تفكر فى « هاجر » ومصريتها وأمومتها لاسماعيل وللعرب ، فلم تخطىء فيها ملامح شبه بها : فكلتاهما جاريتان مصريتان ، وكانت « هاجر » هبة من سارة للنبى ابراهيم ، كما أن « مارية » هبة من المقوقس للنبى محمد ، وقد أثارت كلتاهما غيرة الأزواج الحرائر فى بيت السيد النبى ، ابراهيم ، أو محمد..

ولكن « هاجر » كانت أما لولد ابراهيم ، فهل تغدو « مارية » أما لولد محمد ؟ ! ..

ما أبعد الأمنية ، بل ما أدناها من المستحيل ! ..

لقد تزوج المصطفى منذ ماتت السيدة خديجة ، عشر زوجات ، منهن الشابة الفتية ، والمرأة الناضجة ، ومنهن من كانت ذات ولد من غيره . ولكن أرحامهن جميعا أمسكت فما تجود بولد واحد للزوج المصطفى الذى تخطف الموت أبناءه من خديجة ، فلم يدع له سوى ابنة واحدة ، هى السيدة « فاطمة الزهراء » ..

وقد شارف عليه الصلاة والسلام الستين من عمره ، وبدا كأنه كف عن رجاء الولد ، بعد سنين مجدبة ، مع أزواج ذوات عدد ..

فأنّى لمارية أن يكون لها مثل ما كان لهاجر من أمومتها لاسماعيل يا لها من أمنية أبعد من الوهم ، وأوهى من السراب !

## بشرى

استقبلت « مارية » عامها الثانى فى حياة المصطفى ، وما تكف عن ذكر هاجر واسماعيل ، وابراهيم وسارة ...

وفجأة أحست بوادر حمـل مستكن ، فكذبت احساسـها واتهمت يقظتها ، وخيل اليها أن المسألة لا تعدو أن تكون وهما جسمه شوقها الملح الى الأمومة ، وتفكيرها الدائم فى هاجر واسماعيل ..

وكتمت ما بها شهرا وشهرين وهى فى ريب من الأمر ، لا تدرى أحق هو أم ذاك حلم يقظة ورؤيا منام ..

حتى تجسمت البوادر الأولى للحمل ، وصارت أوضح من أن تتهم ..

عندئذ أفضت به الى أختها « سيرين » فأكدت لها أن ليس فى الأمر وهمٌ ولا شبه وهم ، وانما هو جنين حيٌ تحمله ...

وكادت تترنح من فرط الانفعال والفرح ، فما حسبت أن السماء سوف تستجيب لدعائها هكذا ، وتحقق أملها الذى بدا عقيما واهيا كالسراب ..

واستغرقتها نشـوة حالمة ، حتى جاء السـيد المصطفى ، فأفضت اليه بالسر الخطير الذى تجنه أحشاؤها ..

وتذكر بغتة ما كان يلحظه من توعكها وقلقها وزهدها فى الطعام ، وهى أعراض عرفها من قبل فى « خديجة » فى مستهل كل حمل ، لكنه حسبها فى « مارية » وعكة طارئة لا تلبث أن تزول ..

ورفع الى السماء وجها مشرق الأسارير يشكر لخالقـه ذاك العزاء الجميل الذى منّ به على عبده الرسول ، اثر فقده ابنته الغالية «زينب» بعد أن ماتت قبلها أختاها رقية ، وأم كلثوم ، ومات قبلهن ولداه : عبد الله ، والقاسم ..

ولعله ذكر ، حين حدثته مارية عن ريبتها الأولى فى حملها ، زكريا : « إذ نادى ربه نداء خفيا . قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا . وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت

امرأتي عاقرا فهب لي من لدنك وليا . يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا . يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا . قال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا . قال كذلك قال ربك هو عليَّ هيِّن ، وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا » (١)

وذكر معها قوله تعالى :

« هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين . إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون . فراغ الى أهله فجاء بعجل سمين . فقربه اليهم قال ألا تأكلون . فأوجس منهم خيفة ، قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم . فأقبلت امرأته في صَرَّة فصكّت وجهها وقالت عجوز عقيم . قالوا كذلك قال ربك انه هو الحكيم العليم » (٢)

ولعل مارية فكرت وهي تتلو هذه الآيات ، أنها ليست عجوزا كامرأة ابراهيم وامرأة زكريا ...

وفاض عالمهما المشترك بالهناءة والغبطة ..

***

وسرعان ما سرت البشرى في أنحاء المدينة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ينتظر مولودا له من « مارية المصرية » ، وما بقارىء حاجة الى أن نصور له وقعها الأليم على نساء النبي ..

أتحمل هذه الغريبة الطارئة ، ولما يمض عليها في المدينة سوى عام واحد ، وان منهن من أمضت في بيت الرسول عدة أعوام بلا حمل ؟ ..

أيؤثرها الله بهذه النعمة الكبرى ، وأمهات المؤمنين ، وفيهن بنتا أبي بكر وعمر ، وبنت زاد الركب ، وحفيدة أبي طالب ، محرومات لايلدن ؟

واشتعلت غيرتهن فما يدرين ما يقلن وما يفعلن .

وسرت همسة مريبة تتهم « مارية » بمثل ما اتهمت به قبلها أم المؤمنين، « عائشة بنت الصديق » (٣)

---

(١) سورة مريم : ٢ : ٩

(٢) سورة الذاريات : ٢٤ ـ ٣٠

(٣) السمط الثمين : ١٤/١ ـ والاستيعاب ١٩٢١/٤

ولقد بُرِّئت السيدة عائشة بنت أبى بكر بآية من الوحى ، فهل تطمع بنت شمعون فى آية كهذه تشهد ببراءتها ؟ ..

ولم يتخل عنها الله تعالى فى محنتها هذه ، بل أتاح لها دليلا حاسما على كذب ما رميت به : حدث محمد بن عبد الله الزهرى عن أنس بن مالك قال : «كانت أم ابراهيم سرية النبى صلى الله عليه وسلم فى مشربتها ، وكان قبطى (١) يأوى اليها ويأتيها بالماء والحطب ، فقال الناس فى ذلك : علج يدخل على علجة . فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرسل سيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه ، فوجد القبطى على نخلة هناك ، فلما أخذ « سيدنا على » سيفه ، وقع فى تقسه وألقى الرداء الذى كان يستره فتعرى ، فإذا هو مجبوب ، فرجع « على » الى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره بما رأى من القبطى . ثم جاء جبريل أمين الوحى فقال : السلام عليك يا أبا ابراهيم ، فاطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم» (٢)

وخاف المصطفى على مارية ، فنقلها الى العالية : بضواحى المدينة ، توفيرا لراحتها وسلامتها ، وعناية بصحتها وصحة جنينها ..

قالت عائشة :

« ما غِرتُ على امرأة الا دون ما غرت على مارية ، وذلك أنها كانت جميلة جعدة ، فأعجب بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان أنزلها أول ما قدم بها فى بيت لحارثة بن النعمان ، فكانت جارتنا ، فكان عامة الليل والنهار عندها ... فجزعت ، فحولها الى العالية ، وكان يختلف اليها هناك ، فكان ذلك أشد علينا ، ثم رزقه الله منها الولد وحرمناه منه » (٣)

وسهر الرسول عليها يرعاها ، وكذلك فعلت أختها « سيرين » حتى بلغ الجنين أجله ، وحانت ساعة الوضع ذات ليلة من شهر ذى الحجة سنة ثمان من الهجرة ..

ودعا المصطفى قابلتها « سلمى : زوج أبى رافع » ثم انتحى ناحية من

---

(١) هو الذى جاء معها من مصر ، هدية من المقوقس.
(٢) الاستيعاب : ١٩١٢/٤
والطبقات الكبرى لابن سعد – والسمط الثمين : ص ١٤١
(٣) السمط الثمين : ص ١٤٠

الدار ، يصلى ويدعو ..

فلما جاءته أم رافع بالبشرى (١) أكرمها كل الاكرام ، وخف الى مارية فهنأها بولدها الذى أعتقها من الرق (٢) ، ثم حمـل وليده بين يديه فى غبطة وفرح ، وسماه « ابراهيم » تيمنا باسم الخليل.

وتصدق صلى الله عليه وسلم على مساكين المدينة بوزن شعر الوليد ورقا ، وتنافست الأنصار فيمن يرضعه ، وأحبوا أن يفرغوا مارية للنبى صلى الله عليه وسلم لما يعلمون من هواه فيها ، فاختار الأب المصطفى مرضع ولده ، وجعل فى حيازتها سبعا من الماعز كي ترضعه بلبنها اذا شح ثدياها (٣)

وراح يرقب نموه يوما بعد يوم ، ويجد فيه أنسه ومسرته ، ويود لو شاركته دنياه كلها فى هذا الأنس ..

حمله يوما بين ذراعيه الى « عائشة » ودعاها فى تلطف وبشر ، لترى ما فى الصغير من ملامح أبيه ، فأحست « عائشة » كأن سهما نفذ الى قلبها ، وكادت تبكى مما تجد ، لكنها أمسكت عبرتها وقالت فى غيظ :

ــ ما أرى بينك وبينه شبها !

وأدرك الرسول على الفور مدى ما تكابد ، فانصرف بولده وهو يرثى لعائشة ..

وظلت النار ترعى تحت رماد من التجمل والتكلف والمداراة ، حتى كان اليوم الذى اجتمع فيه الرسول بمارية فى بيت « حفصة » فاندلع الضرام من تحت الرماد متوهجا ، وكان ما كان من قصة التحريم ..

وخيل لمارية أنها بلغت مناها : فهذه هى تلد للنبى ولدا كما ولدت « هاجر » لابراهيم ابنه اسماعيل ..

---

(١) وفى رواية انالذى حمل البشرى الى الرسول : ابو رافع ، زوج سلمى ــ السمط : ١٤٠ ــ وانظر الاستيعاب : ٥٤/١

(٢) السمط الثمين : ١٤٢ ــ وانظر الاستيعاب : ١٩١٢/٤

(٣) الاصـــــابة لابن حجر : جـ ١ ــ والاستيعاب : ٥٥/١

وفى رواية انه صلى الله عليه وسلم ، حلق راس ولده يوم سابعه ، وتصدق بزنة شعره فضة ، وذبح كبشين : وفاء الوفاء فى اخباردار المصطفى ، للسمهودى : ٢٢١٦/١

وهذه هى محنة الغيرة تنتهى على خير لها ، فيعود إليها المصطفى بأمر الوحى بعد أن حرمها على نفسه ، وتكون آيات التحريم قرآنا يتعبد به المسلمون ..

وتستعيد ذكرى « هاجر » فى محنتها بغيرة سارة امرأة ابراهيم ، وتتمثل طيفها إذ يخرج بها سيدها ابراهيم ، ومعها وليدها اسماعيل ، من أرض كنعان ، ويتركهما بوادٍ أجرد غير ذى زرع عند أطلال البيت العتيق . وتتداركهما رحمة الله ، فتنجو هاجر وولدها ، وتحيا ذكراها فى التاريخ الدينى : آية وعبرة

ولم يسعد « مارية » شىء قدر ما أسعدها أن تهب السيد الرسـول على اليأس والكبر غلاما تقر به عينه ، ويتعزى به عمن فقد من أبناء السيدة خديجة زوجه الأولى ...

# الهلال الغارب

لكن سعادتها لم تطل سوى عام وبعض عام ، ثم كانت المحنة الفاجعة والثكل المرير ..

مرض « ابراهيم » ولما يبلغ عامين من عمره ، فجزعت أمه ودعت اليها أختها ، وقامتا ساهرتين حول فراشه تمرضانه وتقساهما تذوبان عليه من لهفة وقلق ..

لكن الحياة أخذت تنطفىء فيه رويدا رويدا .. فجاء أبوه معتمدا على يد « عبد الرحمن بن عوف » لشدة ألمه ، فحمل صغيره من حجر أمه وهو يجود بنفسه ، ووضعه فى حجره محزون القلب ضائع الحيلة ، لايملك إلا أن يقول فى أسى وتسليم :

« إنا يا ابراهيم لا نغنى عنك من الله شيئا » (١)

ودمعت عيناه وهو يرى ولده الوحيد يعالج سكرات الموت ، ثم أصغى واجما الى حشرجة احتضاره ، مختلطة بعويل الأم الثكلى والخالة المفجوعة ..

وانحنى على جثمان فقيده فقبّله والدمع يفيض من عينيه ثم تمالك نفسه فقال :

« تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضى الرب ، وانا يا ابراهيم عليك لمحزونون ، وانا لله وانا اليه راجعون »

ثم نظر الى مارية فى عطف ورثاء ، وقال يواسيها :

« ان له لمرضعا فى الجنة » (٢)

وأقبل ابن عمه « الفضل بن عباس » فغسّل الصغير الميت ، وأبوه الثاكل جالس يرنو اليه فى حزن بالغ (٣)

---

(١) الاستيعاب : ١/٥٧

(٢) مسند أحمد ، والاصابة لابن حجر : ابراهيم بن محمد ـ عليه السلام

(٣) انظر الاستيعاب : ١/٥٥ ـ والسمط الثمين ١٤٣

وحمل جثمان «ابراهيم» من منزل أمه على سرير صغير ، وسار وراءه أبوه وصحابته الى البقيع ، فصلى عليه النبى ، وأضجعه بيده فى قبره ، ثم سوى عليه التراب ونداه بالماء ..

وآب المشيعون الى « المدينة » واجمين ، وقد غام الأفق وانكسفت الشمس ، فقال قائلهم : « انها انكسفت لموت ابراهيم »

وبلغت الكلمة مسمع الرسول ، فالتفت الى أصحابه يقول :

« ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا تخسفان لموت أحد ، ولا لحياته .. » (١)

وطوى جرحه فى قلبه الكبير صابرا مستسلما لقضاء الله فيه ، واعتكفت « مارية » فى بيتها تحاول أن تتجمل بالصبر حتى لا تنكأ الجرح فى قلب الأب الرسول ، فإذا عز الصبر خرجت الى البقيع فاستروحت لقرب فقيدها ، والتمست راحة فى البكاء ..

***

ولكن أيام المصطفى لم تطل بعد موت ولده «ابراهيم» فى السنة العاشرة للهجرة ، (٢) فما أهل ربيع الأول من السنة التالية حتى شكا صلى الله عليه وسلم ، ثم لحق بربه الأعلى ، وترك «مارية» من بعده تعيش خمس سنين فى عزلة عن الناس ، لا تكاد تلقى غير أختها سيرين ، ولا تكاد تخرج الا لكى تزور قبر الحبيب بالمسجد ، أو قبر ولدها بالبقيع ..

فلما ماتت سنة ست عشرة من الهجرة ، أخذ أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه يحشد الناس لجنازتها ، ثم صلى عليها ودفنها بالبقيع (٣)

وكل نفس ذائقة الموت ، فحسب « مارية » أنها دخلت فى حياة النبى العظيم ، وان الله آثرها بفخر أمومتها لولده ابراهيم عليه السلام ..

---

(١) موطأ مالك ، والسمط الثمين ١٤٣ ـ والاصابة جـ ١
(٢) السمهودى : وفاء الوفا ( ٣١٦/١ )
(٣) الاصابة : جـ ٨ والسمط الثمين ، ص ١٤٣ ، والاستيعاب : ١٩١٢/٤

## وصية من الرسول

ثم حسبها بعد هذا كله ، أن دعمت ما بين مصر والجزيرة العربية من صلة عريقة بدأت « بهاجر » من أعماق الماضى الموغل فى القدم ، فجعلت نبى الاسلام يوصى أتباعه بقوم « مارية » فيقول :

« اللهَ الله فى أهل الذمة ، أهل المدرة السوداء ، السحم الجعاد ، فإن لهم نسبا وصهرا »

ويقول صلى الله عليه وسلم :

« استوصوا بالقبط خيرا فإن لهم ذمة ورحما » (١)

ولقد ترك صلى الله عليه وسلم هذه الوصية ميراثا بعده ، فيقال ان الإمام الحسن بن على ، رضى الله عنهما ، طلب الى معاوية فى مفاوضات الصلح بينهما ، أن يرفع الخراج عن أهل قرية « حفن » وفيها خئولة ابراهيم عليه السلام ..

كما يُروى ان « عبادة بن الصامت » لما جاء مصر بعد فتحها ، بحث عن تلك القرية وسأل عن موضع بيت مارية الأول ، فبنى به مسجدا ..

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/٢٤ ، ٨/١٥٤

# قلب يهفو

لم يكن هنالك شيء يشغل المسلمين بعد فتح « خيبر » وعودة مهاجرة الحبشة ، مثل التفكير فيما نص عليه « عهد الحديبية » الذى عقد آخر سنة ست ، من أن « يعود محمد وأصحابه الى مكة فى العام الذى يليه ، فيدخلوها ويقيموا بها ثلاثة أيام ومعهم من السلاح السيوف فى قربها ، ولا شيء غيرها » (١)

وبات المهاجرون يحلمون بالعودة الى « أم القرى » ويتمثلون أنفسهم وقد آبوا الى أرض الوطن ، فطافوا بالبيت العتيق ثم ملأوا عيونهم من مراتع الصبا ومثوى الأجداد ..

لقد مضت أعوام ذات عدد منذ أخرجوا من ديارهم وحيل بينهم وبين البيت الذى جعل مثابة للناس وأمنا ، يأتون اليه من كل فج عميق ..

فلما سعوا اليه فى العام السادس للهجرة حاجين مسالمين وصاروا من « مكة » قاب قوسين أو أدنى ، قام لهم المشركون فصدوهم عن المسجد الحرام ، وان قبلوا أخيرا أن ينص عهد الحديبية ، على أن يعود المسلمون فيدخلوا مكة معتمرين فى العام التالى ، فيمكثوا بها ثلاثة أيام ..

***

ومرت الأيام بطيئة والليالى طويلات ، حتى أتم عام القمر دورته ، ونادى الرسول عليه الصلاة والسلام ، فى الناس كى يتجهزوا للخروج الى مكة ..

وركب ناقته « القصواء » وتبعه ألفا راكب يتلهفون شوقا الى أقدم بيت عبد الله فيه ، وحنينا الى أول أرض كانت لهم مهدا وموطنا ومراحا

وتراءت لهم على البعد رؤى حافلة مثيرة ، للقرية المباركة : مولد المصطفى ومهبط الوحى ..

وارتفعت أصوات الحداة تبشرهم باليوم الموعود ، وأمامهم « عبد الله ابن رواحة » آخذا بخطام « القصواء » ينشد حاديا : (٢)

---

(١) السيرة : ٤/١٠ و تاريخ الطبرى : ٣/٣٩

(٢) ابن اسحاق فى السيرة : ٤/١٢

الفصل الثالث عشر

# ميمونة بنت الحارث
## آخر نساء النبي

« ذهبت والله ميمونة .. أما انها والله
كانت من أتقانا وأوصلنا للرحم .. »

عائشة بنت ابي بكر
الاصابة : ٨ / ١٩٢

خلوا بنى الـكفار عن سـبيله
خلوا ، فكل الخير فى رسوله
يا رب إنى مؤمن" بقيـلـه
أعـرف حـق الله فى قبـولـه

حتى دخلوا مكة ، آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين لا يخافون ، وقد جلا عنها الكفار المشركون فما فيها منهم يومئذ أحد ..

وهتفوا فى صوت واحد ملبين :

« لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك لبيك » ..

فتجاوبت أرجاء « مكة » بالهتاف المؤمن ، ومادت الأرض تحت أقدام المشركين الذين ضربوا خيامهم خارج البلد الحرام ، وأحسوا كأن الجبال الشم الصلاب تكاد تتصدع من رهبة وجلال ...

وتتابع الدعاء من ساحة الحرم :

« لا اله الا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده » ..

فما بقى مكى الا وقد أيقن ان يوم النصر الأكبر للمؤمنين جد قريب..

وصدق الوعد الحق :

« لقد صدق الله رسـوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شـاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون ، فعلم ما لم تعلموا ، فجعل من دون ذلك فتحا قريبا » (١)

***

وفعل المشهد المهيب فى مكة فعل السحر ..

وهفا قلب سيـدة من أكرم سيـدات مكة الى « محمد » صلى الله عليه وسلم ..

تلك كانت « برة بنت الحـارث بن حزن الهلالية المضرية » احدى اخوات أربع قال فيهن الرسول : « الأخوات المؤمنات » ..

(١) آية ـ ٢٧ سورة الفتح

واحدة منهن شقيقة لها ، هى « أم الفضل » لبـــابة الكبرى بنت الحارث » زوج العباس بن عبد المطلب ، وأول امرأة آمنت بالرسول بعد خديجة عليها السلام ، والسيدة التى يذكر لها تاريخ الاسلام انها ضربت أبا لهب عدو الله ورسوله ، حين دخل بيت أخيه العباس فاجتمل مولاه « أبا رافع » فضرب به الأرض ثم برك عليه يضربه لأنه أسلم . فقامت أم الفضل الى عمود هناك ، فشجت رأس أبى لهب شجة منكرة وهى تقول : استضعفته ان غاب عنه سيده ؟ ! فقام موليلا ذليلا ، فما عاش إلا بضع ليال حتى رماه الله بداء قتله (١)

والأخريان أختان لبرة من أمها : « أسماء بنت عميس الخثعمية » زوج جعفر بن أبى طالب ذى الجناحين ، وأم ابنه عبد الله ، وقد تزوجت من بعد جعفر ، أبا بكر الصديق فولدت له محمدا ، ثم خلف عليها الامام على ابن أبى طالب فولدت له يحيى ، رضى الله عنهم ..

و « سـلمى بنت عميس » زوج حمزة بن أبى طالب ، أسـد الله وشهيد أحُد ..

وأمهن جميعا ، هند بنت عوف بن زهير بن الحارث ، التى كان يقال فيها : « أكرم عجوز فى الأرض أصهارا ، هند بنت عوف : أصهارها ، رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر الصديق رضى الله عنه ، وحمزة والعباس ابنا عبد المطلب رضى الله عنهما ، وجعفر وعلى ابنا أبى طالب رضى الله عنهما » (٢) ..

وكان لهند غير هؤلاء ، أصهار آخرون من ذوى المكانة :

الوليد بن المغيرة المخزومى ، زوج لبابة الصغرى بنت الحارث ، أم خالد .

وأُبى بن خلف الجمحى ، زوج ابنتها عصماء بنت الحارث ، أم أبان .

---

(١) سيرة ابن هشام : ٣٠١/٢

(٢) السمط الثمين : ١٠٣ ـ والاستيعاب : ١٩١٥/٤

وزياد بن عبد الله مالك الهلالى ، زوج عزة بنت الحارث (١)
لبابة ، وعصماء ، وعزة ، بنات الحارث : شقيقات لبرة ..

***

كانت « برة » اذ ذاك أرملة فى السادسة والعشرين من عمرها ، قد مات عنها زوجها أبو رهم بن عبد العزى العامرى (٢)

وأفضت « برة » الى شقيقتها « أم الفضل » بما يهفو اليه قلبها ، فتحدثت به الأخت الى زوجها العباس ، وجعلت له يدها ..

وما كان « العباس » ليتردد فى حمل رسالة كهذه الى ابن أخيه ، بل إليه مضى من فوره ، فخاطبه فى أمر « برة » وعرض عليه أن يتزوجها ، واستجاب المصطفى ، وأصدقها أربعمائة درهم ، وبعث ابن عمه جعفر — زوج أختها أسماء — يخطبها ...

وفى رواية أن « برة بنت الحارث » هى التى وهبت نفسها للنبى صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تبارك وتعالى فيها : « وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى ان أراد النبىأن يستنكحها خالصة لك من دونالمؤمنين» (٣)

وكانت الأيام الثلاثة التى نص عليها عهد الحديبية (٤) ، قد قاربت نهايتها ، فود المصطفى لو يمهله المكيون ريثما يتم الزواج ، فيكسب بهذا الامهال مزيدا من الوقت ، ليمكن للاسلام من هؤلاء الذين لا يزالون يكفرون بألسنتهم عنادا وحسدا ..

فلما جاءه رسولا قريش يطلبان اليه أن يخرج ، اذ انقضى الأجل المنصوص عليه فى العهد ، قال مسالما :

---

(١) هذه رواية ابن اسحاق فى السيرة : ١٩٦/٤ ، وانظر الاستيعاب ١٩١٥/٤ والسمط الثمين ١١٥

(٢) هذه رواية ابن اسحاق فى السيرة٤/١٩٦ — والاستيعاب • وفى اسم الزوج خلاف — راجع تاريخ الطبرى : ١٧٨/٣ — والاستيعاب : ١٩١٦/٤ والسمط الثمين ١١٥

(٣) سيرة ابن هشام : ٢٩٦/٤ والاية منسورة الاحزاب : ٥٠

(٤) نص العهد على أن يرجع الرسول واصحابه فلا يدخلوا مكة عامئذ ، السنة السادسة هـ ، ثم يدخلها باصحابها فى عام قابل ، فيقيموا بها ثلاثة ايام — راجع نص العهد فى السيرة لابن هشام : الجزء الرابع • وفى تاريخ الطبرى ٧٩/٣ وطبقات ابن سعد : ٧٠/٢

« ما عليكم لو تركتمونى فأعرست بين أظهركم ، وصنعنا لكم طعاما فحضرتموه ؟ ! » (١)

لكن وافدى قريش ، أدركا أن « مكة » لن تلبث أن تفتح أبوابها لمحمد طائعة ، اذا امتد مقامه بها أياما أخريات ..

وأجابا فى جفاء : « لا حاجة لنا فى طعامك فاخرج عنا » ..

فنزل الرسول على كلمتهما وفاء بعهده ، وأذّن فى المسلمين بالرحيل مخلفا مولاه « أبا رافع » بمكة ، ليلحق به فى صحبة « برة » ..

---

(١) سيرة ابن هشام : ٤/١٤ - وتاريخ الطبرى : ٣/١٠٠

# البقعة المباركة

وفى « سرف » ـ قرب التنعيم ـ جاءت « برة » يصحبها مولى الرسول ..

فبنى بها محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ هناك [1] ، ثم انصرف بها راجعا الى « المدينة » ..

وسماها « ميمونة » أن كان زواجه بها فى المناسبة الميمونة الغراء ، التى دخل فيها « أم القرى » لأول مرة بعد سبع سنين من هجرته ، ومعه أتباعه آمنين لا يخافون ..

ودخلت « ميمونة » بيت النبى مسالمة ، قد اكتفت من دنياها بما منَّ الله عليها به من نعمة الاسلام ، وشرف الزواج بالرسول الكريم ..

وما من ريب فى أن الغيرة من « عائشة » ثم من « مارية » لذعتها : ان استأثرت الأولى بأوفى حظ من حب المصطفى ، وكان للثانية شرف أمومتها لابراهيم ..

وما من ريب كذلك ، فى أنها لم تقاوم عاطفة الجماعة ، حين جمحت الغيرة بنساء النبى ، وهى منهن ، فكانت المغاضبة والهجر ..

لكن مؤرخى الاسلام وكتاب السيرة ، لايذكرون لها ـ فيما عدا ذلك ـ حادثة خصومة انفردت بها ، أو شجار شبَّته فى بيت النبى .

وانما يذكرون أنه صلى الله عليه وسلم كان فى بيتها حين اشتد به الألم فى مرض الموت ، فرضيت أن ينتقل المصطفى حيث أحب ، الى بيت عائشة

فلما انتقل عليه الصلاة والسلام الى جوار ربه الأعلى ، عاشت « ميمونة » تذكر اليوم الميمون الذى جمعها بالرسول ، وتحن الى البقعة المباركة فى « سرف » حيث بنى بها ..

---

(1) السيرة : ٤/١٤ ـ وتاريخ الطبرى : ٣\١٠١ ـ والاستيعاب : ٤/١٩١٨ ووفاء الوفاء للسمهورى ١/٣١٦

وقد أوصت رضى الله عنها أن تدفن فى موضع قبتها هناك ، فلما ماتت ـ بعد منتصف القرن الأول للهجرة ـ أرقدوها حيث أحبت .. (١) وتركت من ورائها ذكرى عاطرة ..

حدث « يزيد بن الأصم » :

« تلقيت عائشة من مكة ، أنا وابنٌ لطلحة من أختها ، وقد كنا وقعنا على حائط من حيطان المدينة فأصبنا منه .. فأقبلت عائشة على ابن أختها تلومه ، ثم أقبلت علىَّ فوعظتنى موعظة بليغة ثم قالت : أما علمت أن الله ساقك حتى جعلك فى بيت من بيوت نبيه ؟ .. ذهبتْ والله ميمونةِ ، ورُمِى بحبلك على غاربك . أما انها كانت والله من أتقانا لله ، وأوصلنا للرحم » ..

سلام على ميمونة ...

وسلام على نساء النبى صلى الله عليه وسلم ، أمهات المؤمنين ..

(١) السمط الثمين : ص ١١٥ ـ والاستيعاب : ١٩١٨/٤

# فهرس

صفحة

## مصادر ومراجع


ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير ط بريل ( ليدن ) ١٣٢٥ هـ

ابن هشام : السيرة النبوية ط الحلبى بالقاهرة ١٩٣٦

ابن جرير الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ط الحسينية بالقاهرة

ابن حجر : الاصابة ط مصر

ابن عبد البر : الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ط نهضة مصر بالقاهرة

نور الدين السمهودى : وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ط السعادة ١٣٧٤ هـ ــ ١٩٥٥ م

المحب الطبرى : السمط الثمين فى مناقب أمهات المؤمنين ط حلب

المصعب الزبيرى : نسب قريش ط الذخائر

ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ط أولى ذخائر

السهيلى : الروض الأنف ط الجمالية بمصر ١٩١٤

الموطأ ، ومسند أحمد ، وكتب الحديث الستة الأمهات